طبعة ثانية

شاهد عيان





ذكريات

الحياة في عراق صدام حسين



جمان كبة

شاهد عيان

ذكريات

الحياة في عراق صدام حسين

بقلم: جمان مكي كبة

ترجمة : معينة نايف الغنام



* اسم الكتاب: شاهد عيان.
* المؤلف: جمان مكي كبة
* الطبعة الأولى: **2009** .
* الطبعة الثانية لشركة بيت الوراق للنشر المحدودة: **2010** .

* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.

WWW.alwarrakbooks.com

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

بيت الوراق
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ تلفون: ٠٠٩٦٤٧٧٠٢٧٤٩٧٩٢ - ٠٠٩٦٤٧٨٠١٣٤٧٠٧٦

Published by special arrangement with McFarland & Company, Inc.

Publishers, Jefferson, North Carolina, USA.

ISBN 07864-15800

2003



محتوى الكتاب

الإهداء

تلاشى الآف من الناس على أيدي النظام

منذ عام 1971 وحتى اليوم

في زنزانات... مظلمة... تحت الأرض....

وفي مقابر جماعية... في الصحراء

وفي أزقة بغداد

أهدي هذا الكتاب الى أرواحهم

وإلى ذكرى أُمي وأبي رحمهما الله تعالى وأسكنهما جنان الخلد.

مقدمة المؤلفة للطبعة العربية

صدر هذا الكتاب باللغة الإنكليزية 2003 قبل أيام حرب الخليج الثالثة التي سقط بها نظام صدام حسين.

كتبت هذه الذكريات العزيزة والمؤلمة لكي أدوّن جزءاً ولو بسيطاً من تاريخنا المعاصر، وهي لا تقتصر على ما حصل لأهلي وأسرتي فقط وأنما أحكي عن الظلم الذي عاصرناه كأسرة وكشعب وكأي بشر منذ أن حلّ علينا ذلك البلاء المسمى حزب البعث. وبهذه الذكريات، أتمنى أن يعرف العالم وأن يعترف ـ ولو لمرة واحدة ـ بما فيهم الدول الغربية والعربية وحتى العراقيين أنفسهم الذين دافعوا عن النظام ووصفوا من تصدّى للنظام بالرجعيين والمتخلفين والغوغائيين - بأن إجرام البعث بدأ منذ اليوم الأول، بل ومنذ اللحظة الأولى لتسلمهم للسلطة، وأن جرائم «أبي طبر» هي أولى «إنجازات» البعث في العراق، وأن أقول للجميع بادىء ذي بدء أن ليس هناك في الكون ثمة عذر أو سبب يتقدم به من ساندوا البعث - سواء كانو عراقيين أم عرب أم أجانب - ليُكفّر عن ذلك الجرم الكبير.

أبدأ هذا الكتاب بذكريات منها ما هو جميل ومميّز وليس له

مثيل، ومنها ما هو اعتيادي وقد يحصل في أي أسرة، وهنا أنا لا أريد أن أتبجّح بالحياة الجميلة التي لمستها أنا وأستمتعت بها ـ لسنوات قليلة ـ ثم اختطفها البعث مني بسرعة ومن الآلاف الذين قتلوا وهجروا، بل أسردها وأريد أن يعلم كل صغار العراق بأنه كان هناك بلد جميل وحياة ناعمة وأني وغيري قد ذقنا من ذلك الشيء اليسير، ولكنه - على الأقل بالنسبة لي - هو كافٍ أن جعلني لأكثر من سبع وعشرين سنة في الغربة أنتظر وأحلم بالرجوع وأعشق الحياة في العراق على الرغم من المصاعب المعيشية والأمنية التي نسمع عنها كل يوم، ذلك لأن سنوات قليلة فيها لمسات من الحب والسعادة زرعت في نفسي بحراً من الحب لهذا الوطن.

ومع أني، ككل العراقيين، فرحت لانتهاء حقبة حكم البعث في بلدنا وحزنت لما حلّ ببلدنا وأهلنا بعد السقوط من فوضى ودمار وطائفية تغطّت كلها باسم الديمقراطية، الا أن أشدّ ما أحزنني وصدمني، أيضاً كالملايين من العراقيين، هو اختزال «انسيكلوبيديا» جرائم البعث باثنتين أو ثلاث من كبرى جرائمه وإهمال حتى مجرد ذكر أو قراءة أو تدوين المئات بل الآلاف من الانتهاكات لحقوق الانسان. أتمنى أن يعالج هذا الكتاب هذه القضية وأن نبدأ بتدوين كل المآسي التي جلبها البعث على رؤوسنا ابتداءً من جرائم «أبي طبر» وما عاناه العراقيون في السبعينات والثمانينات، وسكتت عنه الدول الكبرى والعربية والإسلامية ومنظمات حقوق الإنسان .

وأنا أعلم أنّ مشاعر الحزن والفراق ليست حكراً على أحد،

وأن كل حزن هو أكبر شيء لمن عاناه ولا يحق لأحد أن يستهين بآلام أي إنسان مهما كان حجمها. وأرجو أن يعلم كل الشباب والشابات أن الأمل لا يمكن أن يموت ما دام هناك قلب واحدٌ ينبض بالحب والإخلاص، وأن العراق هو الأمل وأنه سيرجع يوماً قمة في علمه وحضارته وأن هذا العلم وهذه الحضارة هما من صنع الإنسان العراقي، وأننا سنعيد كل ذلك، وأن الحروب والدمار والمآسي هي من صنع البعث وكل من أيَّده وهو ليس قدرنا المحتوم. وأنا واثقة أن الجيل الذي أمثله أنا ـ وأقراني ـ هو الذي سيعيد العراق إلى الحياة وسيعيد الحياة الى العراق فنحن حلقة الوصل بين ما كان وما سيعود وما سنبنيه إن شاء الله وبعونه .

وأخيراً أرجو من القارئ العزيز أن ينتبه إلى: أولاً: أني - في هذه الطبعة العربية - قد غيّرت في صياغة وترتيب بعض الجمل للتوضيح والإفادة واختصرت بعض المقاطع الأخر عمّا هو واضح للقارئ العربي ولكنّه ليس كذلك للقارئ الأجنبي، وثانياً: أن هناك بداخل النص ملاحظات هامشية إضافية جديدة لم تكن كلها موجودة في النسخة الإنكليزية وكذلك بعض الأسماء والتفاصيل التي علمتها لاحقاً، وثالثاً: إن الكتاب فيه تفاصيل دقيقة وكثيرة عن حياتنا العراقية أو الشرقية وقد أمعنت بها بدقة وتفصيل كبير وُمبالغ أحياناً لأعرِّف القارئ في الغرب عن طبيعة حياتنا الجميلة الحنونة في العراق والتي أحبها وأعشقها، ومعظم هذه التفاصيل معروفة لدى العراقيين وقد تكون مملّة للبعض، فأرجو السماح لأنها لمثلي ـ من ترك العراق في سن مبكرة ـ تفاصيل وذكريات عزيزة وجميلة وأردت أن أوصلها

للقارئ الغربي بأجمل صورة وأعرّفه بمدى رقة وجمال حياتنا في العراق قبل أن يدمّرها البعث.

وفي الختام أتقدم بخالص الشكر والامتنان الى خالتي العزيزة السيدة معينة نايف المترجمة من اللغة الإنكليزية إلى العربية والى الأخت العزيزة السيدة عزة حسين كبة على مراجعة النص وتدقيقه، أشكرهما على هذا الإنجاز الكبير والساعات المتواصلة من أجل إيصال هذه الحقائق المهمة إلى القارئ العربي. كما أشكر العاملين في دار الوراق على جهودهم في هذا المجال.

جمان مكي كبة

آب 2007

شكر وامتنان

يسعدني أن أشكر الأصدقاء والزملاء ممن شجعني ووثق بعملي هذا. أتقدم بجزيل الشكر الى السيدة ف. فاراز، والسيدة ك. راضي، والدكتورة س. هل، والسيد ج. كلايسمان. أشكر هؤلاء الأصدقاء والزملاء الطيبين على تشجيعهم وصبرهم على قراءة أجزاء مختلفة من هذا النص. كما أتقدم بخالص الامتنان للأخت والصديقة المخلصة ج. لي لملاحظاتها القيمة ودعمها لهذا العمل. وأتقدم بالشكر الى أخي أ. م. ك حيث أعطاني معلومات وتفاصيل مهمة، أشكره لاستضافتي حين عملنا على كتابة معلوماته. كما أشكر أيضاً أفراد أسرتي لتشجيعهم ولمساهمتهم بتقديم تفاصيل عديدة.

وهنا لا أجد، في أي لغة من اللغات، الكلمات الوافية لأعبّر عن امتناني لزوجي ط. م. أ، وكم أنا مدينة له حيث حفّزني على الدوام لتحقيق طموحاتي، وثابر على تشجيعي على إنهاء هذا النص وأحاطني بالحب والحنان خلال انشغالي بهذا النص والذي تزامن ـ صدفة ـ مع ظروف قاهرة مررت بها. أشكره على ذلك الحب الصابر، أحب أن أقول له بأن ذلك الحب والعناية منك هو ما أدام حياتي خلال العام الماضي.

ملاحظة من المؤلفة

يسرد هذا الكتاب أحداثاً حقيقية - وهي أحداث حصلت لأسرتي وأهلي، وقد ارتأيت تغيير بعض الأسماء والتواريخ والتفاصيل من أجل الوضوح والترتيب ، وكذلك مدعاة لحرمة وسلامة الأشخاص المذكورين. ربما قد يكون هناك من يعلم بتفاصيل ووجهة نظر أخرى لهذه الأحداث، ولكني سردت الأحداث كما شهدتها بنفسي، - وكما أخبراني عنها أمي وأبي فيما بعد.

وهناك ملاحظة أخرى تتعلق باللغة، فقد كُتب هذا الكتاب باللغة الإنكليزية مع أن أغلب الحديث كان قد دار باللغة العربية. وقد حاولت جهدي أن أنقل المعنى وليس الترجمة الحرفية لتلك المحادثات. حيث إن من الصعب ترجمة بعض التعابير العربية وخاصة تلك التي باللهجة العراقية إلى اللغة الإنكليزية.

تمهيد

كنتُ في الرابعة عشرة من عمري عند تولي صدام حسين - الذي كان نائباً للرئيس - رئاسة الجمهورية في العراق عام 1979. ألقى يومها خطاباً متلفزاً أعلن فيه تسلمه الرئاسة وتحدّث عن قضايا متعددة تهمّ الوطن، ثم ختم الخطاب بعبارة مخيفة ومروعة حيث قال: «من يريد أن يأخذ الحكم من أيدينا فسنسلمه العراق أرضاً بدون ناس». بعد انتهاء الخطاب أذكر أن أبي استغرق في بحر من الهم والتفكير العميق، ثم قال: إن الأمور -أي أمور البلد- تسير نحو الأسوأ.

يروي الكتاب الذي بين يديك عن جرائم النظام العراقي قبل أحداث غزو الكويت بمدة طويلة، وقبل حرب الخليج لعام 1991 وحتى قبل حرب الخليج الأولى (الحرب العراقية - الإيرانية). جرت أحداث هذا الكتاب في بغداد في أوائل السبعينات، حيث بدأ حزب البعث[1]

---

(1) يشير مصطلح «البعث» في الكتاب الى الفرع العراقي من حزب البعث الذي هو في الأصل تنظيم سياسي اشتراكي قومي. ولكن من سيطر على العراق في أواسط وأواخر الستينات هم فاشيون وعصابات ومليشيات نشرت الرعب في أوساط الشعب وقد ترأس صدام حسين هذا القسم الفاشي وصعد الى السلطة عبر أجهزة الحزب القمعية ومع أنه كان نائباً للرئيس فقد كان هو الرجل القوي القاسي في العراق منذ أواخر الستينات.

إجرامه الفاشي وأضحى كحيوان شرس يصطاد المواطنين ويمارس الأذى والاضطهاد ضدهم. قام البعث بشتى الجرائم وانتهك حقوق الإنسان لسنوات عديدة كان العراق خلالها صديقاً وحليفاً للعالم الغربي والمجتمع الدولي.

قد لا تكون الآلام التي أسردها هنا أفظع وأبشع مما عاناه الآخرون، فهناك الكثير من الأحداث المرعبة والمعاناة التي تعرض لها العراقيون في الداخل والخارج على أيدي البعث، إلّا أن الذي أسرده هنا هو بداية ما عاناه بعض العراقيين .حيث كان أغلب العراقيين، في بداية ومنتصف السبعينات، راضين نوعاً ما عن الوضع آنذاك منتفعين ببعض المكاسب الاقتصادية من الحكومة، وإن علموا أو اطلعوا على بعض من جرائم البعث التزموا الصمت أو أداروا وجوههم وكأنهم لم يروا شيئاً، وهذا ما فعلته أيضاً الدول الغربية والإقليمية فقد انتفع جميع هؤلاء من حكومة البعث ولذلك غضّوا النظر عن الانتهاكات والجرائم .

إن أحداث هذا الكتاب هي الأولى من نوعها في العراق حيث لم تكن مثل هذه البشاعات قد انتشرت بشكل واسع بعد. إلا أنها جسّدت بداية حقبة من الرعب والقسوة لا مثيل لهما في أي دولة عربية. استطاع النظام البعثي أن ينجو بجرائمه وانتهاكاته منذ البداية فتمادى أكثر، وشجعه ذلك على تصاعد قسوته وتوسع نطاق جرائمه فشمل كل العراق وحتى خارجه.

بدأت جرائم البعث في بغداد على نطاق صغير، حيث نُشر الرعب واعتُديَ على بعض الناس الآمنين هنا وهناك. وفي أواخر

السبعينات وخلال الثمانينات ازدادت تلك الجرائم وشملت الآلاف من العراقيين في الداخل والخارج. كما مارس النظام الإبادة الجماعية التي كانت ولاتزال - خلال كتابة هذا الكتاب - تُمارس بشكل منظَّم وعلى نطاق واسع منذ أحداث حرب الخليج الثانية في أوائل التسعينات وحتى هذا اليوم. وسيأتي اليوم الذي يتمّ فيه الاعتراف بهذه الإبادة وُيدان منفذيها بجرائم ضد الإنسانية، أتمنى أن أرى ذلك اليوم في حياتي.

لم يكن النظام العراقي نظاماً مارقاً بسبب تورطه ـ المزعوم ـ بأحداث 11 أيلول في نيويورك وواشنطن حيث لا يوجد دليل قاطع على ذلك، كذلك لم يكن النظام مارقاً بسبب امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل التي قد يستخدمها ضد دولة أخرى يوماً ما. كلّا؟ بل لأنه اقترف أبشع الجرائم ضد شعبه، وانتهك حقوق الناس منذ تسلمه السلطة في السبعينات، فقد كان هذا النظام مارقاً حين امتلك تلك الأسلحة المدمرة واستخدمها ضد أبناء شعبه العراقيين وقد غضّت دول العالم الطرف عن ذلك. وكان النظام العراقي مارقاً أيضاً قبل أن يصدر قانون تحرير العراق (في أمريكا) عام 1998، بل وكان النظام العراقي إجرامياً وخارجاً عن القانون عندما كان حليفاً للغرب والعالم المتحضر وصديقاً لهم.

لديَّ دافعان لكتابة هذا الكتاب: الأول هو أنني نشأت في خضمّ الأحداث المرعبة التي أسردها هنا وشهدتها بأم عيني، وقد تركتْ هذه الأحداث بصماتها على حياتي وشخصيتي، فقد كنتُ في السابعة من العمر في بدايتها، وكانت جرائم النظام الكثيرة والتي ربما لم تعنِ لهم ـ البعثيون ـ أي شيء ولكنها كانت أحداثاً قاسية

بالنسبة إليّ انتزعتْ السعادة من حياتي وأبعدتني عن أهلي لسنوات عديدة وأثرتْ عليَّ مدى الحياة، وقد آن الأوان ليُكشَف النقاب عن تلك الجرائم. أما الدافع الثاني فهو عهد عزيز عليَّ، فكنت قد وعدت أبي وأمي بأني سأروي على الملأ ما حلَّ بهما فقد كانت أمنيتهما وحلمهما أن تُنشر هذه الأحداث ويعرفها الناس. ويُجسّد هذا الكتاب - بكل تواضع - معاناتهما المريرة، وها أنذا، أخيراً، قد وفيت.

المقدمة

بعد سنوات قليلة فقط على تسلم حزب البعث السلطة في العراق، بدأت حياتنا هناك تسير نحو منعطف آخر: فقد سيطر البعثيون - أعضاء النظام- على كل أمور الحياة ابتداءً من وظائف الدولة حتى شملت الأسواق التجارية، بل وحتى رياض الأطفال وغيرها. كان لسياستهم وتنظيماتهم الأثر الكبير في حياة المواطنين العاديين سواء من الناحية الاجتماعية أو الثقافية، فقد سيطر البعثيون على الصحافة والتلفاز والرياضة والمدارس، وأصبح الإعلام والتلفاز تحت سيطرة الدولة، وأصبح كل ما يعرضه التلفاز هو خطابات وأخبار «الثورة»[1] وإنجازاتها وتمّ منع العديد من الكتب والمجلات وفرضت الرقابة على كافة المطبوعات.

منذ أن فتحت عيني وبدأت أدرك ما حولي في سنوات حكم البعث كانت هناك الممنوعات. فكانت المجلات (العربية والأجنبية) تصل إلى المكتبات بعد نزع صفحات منها، أما المدارس والمعاهد

---

(1) الانقلاب العسكري الذي حصل في تموز 1968 يشير إليه النظام على أنه ثورة شعبية والذي حصل هو سيطرة مجموعة من حزب البعث على السلطة.

الخاصة فتم إقفالها تدريجياً أو «تأميمها». كانت هذه أولى الخطوات للسيطرة والقمع الفكري جعلت العراق يخلو من الصحافة الحرة، أو الاستقلالية في الدراسة الأكاديمية، أو النظام القضائي، كما تمّ تأميم جميع المعاهد أو كانت في طريقها إلى التأميم أي إنها أصبحت في قبضة النظام فبدأ القطاع الخاص يتلاشى مع أنه كان متواجداً في الأيام الأولى لحكم البعث.

منذ السنوات الأولى لحكم البعث بدأت الأزمات في المواد المعاشية الأساسية والحاجيات الضرورية وأصبحت تلك الأزمات أمراً مألوفاً. كان على الناس الوقوف في طوابير طويلة لشراء المواد الغذائية والأدوات المنزلية مثل الخبز والبيض وحتى ورق (الكلينكس). فمن يصّدق وجود مثل هذه الأزمات الاقتصادية في بلد اغتنى سكانه بخيراته منذ فجر الحضارة؟ وفي بلد غني بالنفط والزراعة وبمياه عذبة لنهرين عظيمين: دجلة والفرات؟ بالإضافة الى ذلك وضع الحزب قيوداً مشددة على استيراد الكثير من المواد الأساسية وقطع غيار السيارات وحتى أفلام التصوير الفوتوغرافي. أمّا الحاجيات الكمالية الجميلة مثل الصابون المعطّر والشكولاته فأصبحت موادَ نادرة الوجود لا يمكن الحصول عليها.

لم يكن أي مقيم أو زائر للعراق في أوائل السبعينات إلا وقد رأى في أي مكتب أو مستشفى أو صف دراسي أو موقف باص أو أي مكان عام صوراً للثنائي: أحمد حسن البكر - رئيس الجمهورية آنذاك ونائبه صدام حسين. كما وضعت هذه الصور في المحلات التجارية الخاصة وحتى في بعض البيوت والمخازن والمحلات. كان عامة الناس يضعون هذه الصور على جدران محلاتهم ليتجنّبوا المشاكل والاستجواب حول ولائهم لنظام البعث.

قام البعثيون بإدخال أفكار الحزب بعقول الناس وبذلوا جهوداً جبارة لخلق أساليب غسل الدماغ وجرّبوها على أبناء الشعب. كان جوهر الفكر البعثي هو الاشتراكية والقومية وكانت العديد من أساليبه الوحشية ومخططاته في نشر أفكاره والسيطرة التامة على الناس تشبه الى حدٍ ما النازية الألمانية. ومع أن البعث عارض الشيوعية فقد استعمل البعثيون الكثير من أساليب القمع المُمارسة في دول أوروبا الشرقية الشيوعية.

وهكذا سيطرت الثقافة البعثية على كل قطاعات الحياة في العراق من الفنون الجميلة إلى الرياضة والصحة والتعليم، فمثلاً عندما كنّا صغاراً في المدارس الابتدائية، كان علينا أن نتعلم مبادئ البعث وأن نحفظ أقوال رئيس الجمهورية ونائبه، وكان علينا أن نحفظ إنجازات «ثورة 17 تموز 1968». وما أزال أذكر «لائحة إنجازات الثورة» المكتوبة باللون الأزرق وقد وضعت في إطار وعُلِّقت على جدران الصفوف في مدرستي وكذلك في الدهاليز الداخلية والمدخل الرئيسي المدرسة. أمّا في دروس اللغتين العربية والإنجليزية فكان يجب علينا أن نكتب الإنشاء حول حزب البعث والثورة، وأن نعبّر عن سعادتنا لأننا نعيش في ظل الحزب والقائد رئيس الجمهورية ونائبه. كذلك الحال في دروس الأعمال الفنية حيث كان علينا أن نرسم ونلوّن مختلف اللوحات عن الحزب والثورة، وإذا ما رسم أحدنا لوحة فنية جميلة، ولكن لا علاقة لها بالحزب والثورة، فلن ينال النجاح والتشجيع.

وكلّما ألقى رئيس الجمهورية أو نائبه خطاباً يتم اختبارنا في اليوم التالي حول ما قاله أي منهما والويل لمن لا يجيب، فَسيوبَّخ

ولن ينجح بل وسيصبح موضع الشك والمراقبة والإهانة كونه رجعياً أو معادياً للثورة والحزب. ليس هذا فحسب بل فقد كانت هناك طرق أخرى لتلقيننا بأفكار الحزب، ففي كل صباح عندما يرن جرس المدرسة كان يجب علينا (نحن الأطفال بمختلف الأعمار) أن ننتظم في صفوف وننشد أناشيد البعث في مدح الثورة والرئيس ونائبه ويقوم المفتشون أو من ينوب عنهم بالمراقبة وملاحظة من لا يشارك في التصفيق والغناء، فهذا يعني أن عائلته معادية للحزب والدولة، وسوف تتعرض العائلة للمتاعب والملاحقة. كان يُجمع أيضاً أعداد كبيرة من الأطفال من مدارس متعددة في الساحات العامة، في حرّ الشمس، لكي يتدربوا على تقديم استعراضات فنيّة ورياضية حول مختلف القضايا القومية كتشكيل ألوان العلم العراقي أو تمثيل لأرض عربية أو أفكار بعثية أخرى، فيلبس الأطفال زياً موحداً بألوان تتناسب مع أدوارهم في الاستعراض وتتم هذه الاستعراضات في عدة مناسبات مثل ذكرى تشكيل حزب البعث، أو الذكرى السنوية لثورة تموز 1968، أو حتى عند زيارة شخصيات أجنبية للعراق. كان يجب على الصغار الاشتراك في هذه الاستعراضات وخلاف ذلك سوف تتعرض عائلتهم للشك في ولائها للسلطة وتعاني المتاعب بسبب عدم الولاء وكانت هذه التدريبات والاستعراضات تضيّع أيام الدراسة.

تعرّض الجميع - صغاراً وكباراً - لاضطهاد الحزب أينما كانوا سواء في رياض الأطفال، في المدرسة الثانوية أو الإعدادية أو الجامعة، في أماكن العمل، الأسواق وحتى الحافلات حيث يحاط المرء بشعارات وأدبيات الحزب والثورة. وعلى المرء أن يبرهن على ولائه للثورة وتأييده لها وأن ينتمي لأحد تنظيمات الحزب: الحزب نفسه أو أحد اتحاداته

كالاتحاد النسوي، اتحاد الطلبة، وتنظيمات الشباب. أما أبناء المسؤولين القدامى فيتعرضون للسخرية والاضطهاد كونهم من العهد الملكي البائد أو رجعيين وفقاً لمقاييس حزب البعث العراقي.

أما تعيين المُدرّسين وأساتذة الجامعة وترقيتهم فكان وفقاً لدرجة ولائهم أو عدمه للحزب وقيادته وليس وفقاً لجدارتهم ومؤهلاتهم العلمية. كما أصبح واجباً على الهيئة التعليمية والأساتذة السابقين الانتماء للحزب كي يحافظوا على وظائفهم، وأصبح من واجبهم إدخال جميع شعارات وأفكار الحزب إلى المحاضرات، وتمّ تغيير جميع الكتب المدرسية المعنية الخاصة بالفن والأدب والعلوم الإنسانية واللغات لتظهر بطبعات جديدة محشوة بمفاهيم وشعارات حزب البعث وحُذفت المواضيع الأخرى.

كان الانتماء للحزب يمنح صاحبه الفرصة للوقوف بوجه أي مسؤول حكومي سواء في المدرسة، أو الجامعة، أو المصنع ......الخ، فأن يكون المرء بعثياً رفيع المستوى أو حتى بالمستوى الاعتيادي يحق له بأن يقف بوجه أستاذه أو مديره في المكتب أو المعمل أو من هو أكبر منه سناً أو أفضل كفاءةً. مثلا إذا أراد أحد ترك عمله الرسمي أو دوامه المدرسي لغرض اجتماع حزبي، كان بإمكانه ذلك متى ما يشاء من دون مساءلة وإن كان ذلك سيؤثر على سير العمل أو على عمل الآخرين، ويجب على مسؤوليه أو المشرف أو المدير الموافقة على ذلك. وكان حتى بإمكان ذلك البعثي أن يعاقب المسؤول أو حتى أن يتسبب في طرده من العمل.

* * * * *

كما شنَّ البعثيون حملة لاجتثاث معارضيهم ومن قد يعارضونهم مستقبلاً. في باديء الأمر كان البعثيون القدامى أو المنشقوّن، هم المستهدفون، حيث تمت تصفيتهم وإنهائهم، فبدأ ذلك بنطاق ضيق ثم توسع ليصبح حملة رعب منظم. أرهب البعثيون كل من لم يؤيدهم ولم يدعمهم حتى الناس العاديين الذين لم يدخلوا عالم السياسة. وفي خلال سنوات قليلة أصبح من المستحيل لأي فرد أن يتفوّه بأنه «مستقل» أو أنّه لا ينتمي لأي جهة سياسية. كان يجب على الجميع تأييد النظام بشكل علني وصريح وخلاف ذلك يكون الفرد معادياً للثورة ويجب معاقبته. فإذا كان الفيلسوف أرسطو قد وصف الفضيلة بأنها العمل للصالح العام فقد عرّفها نظام البعث بأنها العمل في خدمته من دون اعتراض والتنكّر لجميع القيم التي يدين بها الفرد لكي يخدم أهداف النظام.

أصدر البعثيون قوانينَ جديدة وألغوا أخرى وفقاً لمصالحهم. فأصبحت الحكومة أداة بيد حزب البعث، واستمر النظام يحقق أهدافه القمعية وسيطرته على كل فرد وإحصاء أنفاس الجميع. فبين أسبوع وآخر كانت تصدر قوانين جائرة وتظهر أساليب جديدة لتزيد القيود في حياة المواطنين. فلم يعد أي قيمة لثقافة أو خبرة الفرد في خدمة البلد، بل أصبحت المواطنة الحقة هي فقط دعم الفرد للنظام والثورة حتى وإن لم يكن لديه من المؤهلات والكفاءة شيء يُذكر فسوف يصل إلى أعلى المراتب بميزته الحزبية فقط. كان على الفرد أن يدعم الحزب وينتمي له، وخلاف ذلك يحارب ويعاقب بشتى العقوبات ويتمّ تهيئة الاتهامات الكاذبة له لتصفيته بصورة لا يتصورها العقل.

هدم البعث القيم الاجتماعية وغيّر الكثير من العادات

والتقاليد وأوجدت أساليب النظام مناخاً من الشكوك بين عامة المواطنين فأصبح كل فرد يظن أن الآخر عميل للبعث ويتجسس عليه، وأصبح أحدنا يخاف أن يتفوّه بأبسط انتقاد للحكومة. تعرض كبار الموظفين (في الخدمة وليس في السن فقط) إلى سخرية واستهزاء عصابات حزب البعث الذين أصبحوا في موقع المسؤولية في دوائر الدولة المختلفة. إضافة إلى ذلك حارب حزب البعث الشعائر الدينية فأصبح من المستحيل أن يمارس الناس شعائرهم حيث منع النظام الكثير منها وأصبحت ممنوعة تجلب الشكوك لمن يمارسها، مثلاً أن يذهب المرء إلى المسجد للصلاة أو يرتدي الزي الديني أو حتى أن يفكر ويناقش أفكاراً دينية أصبح كل ذلك من الأمور التي بدأت تثير الشبهات. وضع الحزب أفكاره كقيم عليا فرضها على الناس بدلاً من الدين والقيم، فأصبحت الثورة والحزب مقدَّمة على آمال وأحلام الفرد.. مقدَّمة على عائلته... أو بلده... حتى أكثر أهمية من الله سبحانه وتعالى.

لو أراد أحد ما أن ينجز عملاً ما فيجب عليه التودد لبعثي يعمل في المكتب أو المؤسسة المعنية، وهذه أفضل طريقة وأحياناً الطريقة الوحيدة لإنجاز ذلك العمل أو المعاملة الرسمية، أما إذا حاول الفرد أن ينجز معاملته وفق القوانين السارية فسوف يستغرق ذلك الأسابيع أو الأشهر الطويلة وقد لا ينجح. والعكس صحيح: فسوف ينجز المعاملة بسرعة قياسية أي في اليوم ذاته إذا استعان بالبعثيين. كان يوجد من يمثّل الحزب في كل منطقة أو مدرسة أو مسجد أو نادٍ أو حتى في الأسواق، ويتمتع هذا بسطوة كبيرة إلى درجة أن بعض الناس يخافهم أكثر من الأهل والأقارب والمدرسين.

يتجسس هؤلاء البعثيون على الناس ويتصيدون الآخرين لتدريبهم على التجسس وإحصاء أنفاس الناس ورفع التقارير لمنظماتهم الحزبية.

هكذا انتشر الفساد البعثي بشكل واسع: مثلاً لو ذهب أي إنسان محترم لقضاء معاملة مثل الحصول على شهادة ولادة طفل أو جواز سفر أو غير ذلك، فسوف يتعرض للسخرية والمعاملة السيئة ويطرد بالميليشيا المسلحة والسبب في ذلك هو أن المسؤول أو الموظف غير موجود أو في اجتماع حزبي، وما أكثر الاجتماعات الحزبية، فيضطر الفرد إلى المراجعة لعدة أيام دون حصوله على الوثيقة المطلوبة، وهكذا انتشرت ظاهرة السلبية وعدم الكفاءة في كل مكان.

ووفقاً للعدل ونقل الحقيقة، عليَّ أن أذكر أن نظام البعث حقّق بعض التقدم في التعليم والرعاية الصحية (ولكن معظم هذه المنجزات في بغداد)[1]، وأصبح العراق وكأنه دولة حديثة وكان هذا في السبعينات والثمانينات مثلاً : التعليم الإجباري للبالغين الأميين والذي حقق نجاحاً جيداً، التطعيم المجاني للأطفال، التعليم لكافة المستويات حتى الجامعية كان مجاناً، إيجاد فرص العمل للخريجين ـ وإن لم يكن العمل من اختيار الشخص ـ ، كما قامت الدولة بتنظيم أجور ركوب الحافلات وسيارات الأجرة وتعبيد الشوارع في بغداد،

---

(1) في الواقع أنا ما ذهبت قط الى المحافظات سابقاً ولم أر الحالة المأساوية المتخلفة هناك، وعندما ذهبت هناك لأول مرة في كانون الأول 2003 أي بعد الاحتلال صُدمت بشدة من الوضع المتخلف هناك ولم أكد أصدق أني في العراق، كانت الصدمة من الوضع المتخلف أكبر بكثير من صدمة أن العراق محتل. الفرق بين بغداد والمحافظات يكاد لا يُصدق. بغداد جميلة وحديثة أما المحافظات فبدت وكأنها في العصور الوسطى.

ولكن كان هذا الاهتمام بمناطق محددة يسكنها كبار مسؤولي الحزب في حين كانت مناطق أخرى تفتقد إلى أبسط متطلبات الحياة الكريمة.

* * * * *

كان أغلب أعضاء حزب البعث من الأوساط الفقيرة والبعض من هؤلاء مجرمون، مثل صدام حسين نفسه، حيث قتل في السابق أحد أقاربه أثناء خلاف عائلي كما استعمله الحزب في مجموعة الهجوم لاغتيال رئيس الوزراء[1]. تمّ إغراء الفقراء والجهلة من الناس بالمال والسلطة فكان أمثال هؤلاء ينتمي للحزب وينفذ الأعمال القذرة من مضايقة واضطهاد العوائل وقتل الأبرياء دون مبالاة بأحد، أصبحت عصابات البعث من الشباب السائب الذي لا علاقة له بالعلم والثقافة والقانون هي التي تدير شؤون الدولة. تمّ إغراء هؤلاء البسطاء بالمال والمراكز والمنافع المادية وهم ممن لم يكن لهم أمل في المستقبل فوجدوا الملاذ في شعارات البعث وظنّوا أنها ستنقذهم واستفادوا فعلاً من برامجه العامة، حيث تهيأت لهم فرص التعليم والعمل والرعاية الصحية والمواصلات التي كانوا يفتقدونها. ولكن مقابل ذلك سلب البعث من هؤلاء إرادتهم فجعلهم يستسلمون له وينفذون جميع أهدافه الشريرة. التحق هؤلاء - طوعاً أو كرهاً - بالجيش الشعبي ومنظمات الحزب الأخرى وقاموا بتنفيذ المهمات الحزبية المختلفة من دون اعتراض أو مناقشة.

---

(1) وهو عبد الكريم القاسم (كان دوره عرقلة المرور في شارع الرشيد لتتوقف سيارة عبد الكريم ويقوم المنفذون عبد الوهاب الغريري وجماعته بالهجوم عليه وذلك في أواخر عام 1959).

انضم البعض إلى حزب البعث لأنه آمن فعلاً بأفكار الحزب ـ الأولى ـ وشعاراته حول القومية والحرية والعدالة الاجتماعية، ولكن سرعان ما أصيب هؤلاء بخيبة أمل عندما رأوا الفساد والفوضى التي انتشرت باسم الحزب. كان البعث - لمن عرفه في البداية - في بدء نشوئه يمثل - نوعاً ما - العروبة والقومية، وكان هناك العديد من الناس ممن يدعم الحس القومي ليس في العراق فحسب بل في دول عربية أخرى، ولكن البعث العراقي أمر مختلف حيث انحرف بعيداً عن أهدافه الأصلية وطموحاته وأصبح بؤرة للفساد والتآمر. كان هناك البعض من البعثيين المثقفين الذين نذروا حياتهم لقضية الحزب ومبادئه، لكن تمّت تصفية هؤلاء الأعضاء تدريجياً منذ بداية السبعينات وغيرهم بعد ذلك[1].

أما العوائل المعروفة فلم تنتم للحزب في بداية الأمر. قاوم بعضها الضغوط وأعطى جاهداً مختلف الأسباب لعدم الانتماء غير أن البعض الآخر أُجبر بالقوة على الانتماء أو دخل الحزب خوفاً من الاضطهاد. لو طلب الحزب الانتماء من أحد ورفض ذلك المرء فإنه يُعتَبر معادياً للحزب والثورة وبالتالي يوسم بالرجعية والخيانة ومن يرفض الانتماء يتعرض لأشد العقوبات وحتى القتل .

كان البعث كموجة عارمة تضرب كل من يقف أمامها وتكتسحه.

---

(1) مثلاً عندما تسلّم صدام رئاسة الجمهورية نفّذ حكم الإعدام بخمسة من الوزراء والعشرات من الكادر المتقدم في الحزب في مجزرة واحدة، شنقاً ورمياً بالرصاص من القياديين في الحزب في حين هرب من استطاع الهرب إلى الدول الأوروبية والعربية.

سيطرت عصابات الحزب على شؤون الدولة كلّها: أمّا الثروة من عائدات النفط فأخذت تَصبُّ في الحسابات الخاصة لأعضاء الحزب في البنوك الغربية في الوقت الذي كان هناك الكثير من العوائل الفقيرة في بغداد وحتى المتسولين في بعض الأحياء. كان أعضاء الحزب وعوائلهم يقودون أحدث السيارات الأمريكية والألمانية وكان يأتي لخدمتهم مصممو الأزياء ومسرِّحو الشعر من فرنسا وأمريكا وأيطاليا وكانوا يحصلون على أفضل الرعاية الطبية في المستشفيات الأجنبية بل وحتى جيء بأفضل الطباخين المشهورين لطهي طعامهم. اعتبر البعثيون أنفسهم بمستوى عائلة مالكة بل أرقى من ذلك مع أنهم لم يكونوا من طبقات المجتمع المرموقة، أما باقي الشعب وعامة الناس فهم عبيد لهم.

سيطر البعثيون على كل مقدرات البلد بلا حق ولا شرع. أصبحت كلمة «بعثي» (لمن شهد العراق في السبعينات والثمانينات) لا تعني سوى الجشع والتسلط والقوة المطلقة، فهم فوق القانون وفوق كل شيء. كنت أرى بأم عيني وأنا طفلة صغيرة، كيف يحصل البعثيون على أفضل معاملة في كل أمور الحياة فهم لا يقفون في طابور ليشتروا حاجيتهم، فبإمكانهم تجاوز أي فرد، وهم لا ينتظرون أسابيع وأشهراً للحصول على وثيقة ما أو إجراء معاملة حكومية كالشهادة المدرسية أو الجامعية أو جواز السفر وما شابه، كل ذلك جاهزاً لهم ومن دون أي جهد. أحياناً كانت تغلق الشوارع الرئيسية لعدة ساعات ويُمنع المواطنون من السير لكي يمرّ أحد المتنفذين أو المسؤولين، أو بسبب زيارة أحد الشخصيات للمنطقة، لم يكن أحد يهتم لمعاناة

المواطن الذي يجب أن يسلك هذا الشارع ليلتحق بعمله اليومي وينجز أموره.

* * * * * *

شنَّ الحزب حرباً شعواء ضد شعب العراق منذ بداية السبعينات. تلك الحرب التي صمتَ عنها المجتمع الدولي مدة طويلة قبل أن ينتبه لجرائم النظام البشعة (خارج العراق). كان شغل البعثيون الشاغل هو إهانة الإنسان العراقي وحرمانه من العيش الكريم بسلام. فقد امتلأت السجون بالأبرياء الذين تمّ اختطافهم من بيوتهم أو مراكز عملهم من دون أي إجراءات قانونية وحجزهم سنوات طويلة وحتى إعدامهم وهكذا تمّ تعذيب وإعدام الكثير من الأبرياء.كما صادر النظام جميع الحريات الشخصية والحقوق الإنسانية وسيطر على الإذاعة والتلفاز أي على كل ما يسمعه أو يراه المواطن ومُنع حتى راديو الموجة القصيرة (shortwave) ووضعت القيود على السفر وُحجِب الناس عن العالم الخارجي كي لا يطّلع أحد على ما يجري في الداخل.

وأتذكر جيداً تلك الأيام التي كان يُمنع فيها كافة الناس من السفر- في حين لا يشمل المنع المتنفذين في حزب البعث - وعند إفساح مجال السفر يستمر بعض المنع ليشمل أفراداً محددين أو دولاً محددة ويمنع السفر أيضاً عن طبقات من الشعب مثل الشباب في السن الجامعي.

كان البعثيون، بسبب خلفيتهم الفقيرة والمتخلفة، يبغضون العوائل المعروفة التي لديها رصيد ثقافي معروف واعتبروا تلك العوائل من الأعداء الذين يجب تصفيتهم، إضافة إلى اجتثاث الأفراد

ذوي الطموحات السياسية عمل البعثيون على تهميش ذوي الإنجازات الثقافية والعلمية من المثقفين أو ذوي المال أو الأسماء المعروفة حتى وإن لم يكن لهؤلاء أهداف سياسية. وهكذا أضحى البعثيون كوحوش جاؤوا الى واحة جميلة، فخرَّبوا ودمَّروا حياة الآلاف من الناس.

أصيب الناس بالذعر والشلل بعد سيطرة القتلة والسفاحين على حياتهم وحرمانهم من أبسط الحريات. أصبح العراق بلداً يُساق فيه المرء إلى المشنقة لأبسط الأمور مثل أن يملك الآلة الطابعة. أصبح العراق بلداً يخاف أهله أن يتفوهوا أمام الجيران بكلمة خوفاً من تجسس البعض على الآخر أو يخاف المرء التحدث أمام الصغار للسبب نفسه حيث يتعرض الأطفال في مدارسهم إلى الاستجواب ـ بدون علم الوالدين ـ حول كلام والديهم في البيت، كما أصبح العراق البلد الوحيد في العالم الذي يُمنع فيه استعمال اسم العائلة (اللقب) في المعاملات الرسمية وأصبح ذلك من الممنوعات التي يحاسب عليها القانون. وهكذا ذاب جميع من في العراق في شعارات الحزب وأفكاره سواء رضوا أم أبوا وأصبح العراق آلة لاستعباد الناس وإرعابهم وحرمانهم من أبسط الحقوق الإنسانية. هكذا كانت أحوال العراق -عراق البعث والثورة - عندما دارت أحداث هذه القصة: قصة والدايَّ: مكي راجي كبة وسعدية نايف الغنام[1].

---

(1) تغيّرت أغلب الأسماء الأخرى في داخل الكتاب. راجع مقدمة الطبعة العربية وملاحظة المؤلفة.

الفصل الأول

بغداد في عام 1971

كان والداي يمثلان قمة من الإخلاص والصدق، متمسكين بالمثل العليا والقوانين، مخلصين لمجتمعهما وبلدهما. كانت حياتهما ستكون سعيدة وآمنة في أي بلد آخر في العالم غير العراق، حيث كانا سُيقدّران لثقافتهما وأصالتهما وخدمتاهما للوطن، كانا سُيكَرّمان لجهودهما في أي بلدٍ آخر ولكن ما عدا «عراق البعث» حيث وضعت الأخلاق والمبادئ والإخلاص تحت التراب من أجل الحزب والثورة.

رفض والداي المشاركة في فساد البعث، وقاوما قسوة النظام ووحشيته لا بالسلاح، بل بالقيم والإخلاص، فكانت النتيجة أن النظام شنّ عليهما حرباً ضارية. مضيا في خضمّ تلك الحوادث الرهيبة من دون أن يستسلما للبعثيين بل تمسكا بالمبادىء. كانا كمثل جوهرتين غاليتين فاخرتين بيد جاهل لا يدرك قيمتهما، صمدا على طول الطريق بوجه المدّ البعثي فحطمتهما موجة البعث الوحشية العارمة.

* * * * *

والآن تأخذني الذكريات إلى بغداد في أوائل السبعينات حيث كانت حياتنا السعيدة الهادئة. فأتذكر أيام الطفولة في بيت أهلي في

المنصور، منطقة بغداد المعروفة والراقية. فقد ظلّت بغداد تلك المدينة الجميلة بالرغم من تدهور الوضع السياسي. كانت شوارع بغداد المضيئة المزدحمة بالمشاة والسيارات تبعث السرور والمرح. كانت بغداد مدينة عريقة وحديثة في نفس الوقت. فهي تزخر بالمحلات والأسواق القديمة (الشعبية) إلى جانب المحلات والأسواق الحديثة. وكان التسّوق في شارع النهر (سوق معروف في بغداد)، مثلاً، رحلة ممتعة ومثيرة جداً. شارع النهر، ذلك الزقاق الطويل حيث تنتظم على جانبيه محلات الملابس والبضائع المختلفة، لم تكن تلك المحلات والمتاجر الجميلة قد تأثرت بعد حينئذٍ بالضجة الحزبية التأميمية.

وعندما يسير المرء في شوارع بغداد وأزقتها المختلفة يذهل بذلك الميراث التاريخي العظيم والمواقع الأثرية التاريخية، فهناك الضريح الكيلاني الأنيق والقبب اللامعة في صحن الكاظمين (ع)، المدرسة المستنصرية ودار الحكمة وغيرها من الآثار والمواقع التاريخية في أطراف بغداد، وهذا لا يمثل سوى القليل من معالم المدينة، إنها تنبض بالتاريخ والحضارة.

وفي بغداد كنت تجد الأطعمة التقليدية مثل السمك المشوي على النار (المسكوف) خاصة في شارع أبي النواس المحاذي لنهر دجلة. وكان هناك أيضاً المطاعم الفاخرة في الفنادق الراقية. كان يمكن للمرء أن يسير مشياً، أو يرتاد أي حافلة عمومية، أو سيارة أجرة، أو سيارته الخاصة ويزور العديد من الحدائق والمنتزهات المزدحمة بالناس. كُنّا نمشي للنزهة، ونتوقف لتناول المرطبات - آيس كريم - ونشتري ما يعجبنا من الأشياء الصغيرة في المحلات التي كانت لا تزال تستورد أنواعاً من الشوكلاتة الإنكليزية وتبيعها

بأسعار غالية، كنا ندفع ما يقرب من دولار ونصف (أي 500 فلس من العملة العراقية آنذاك في السبعينات) لقطعة صغيرة من الشوكولاته.

ما أجمل ليالي بغداد في الصيف. كانت ليالي أخّاذة. فلم أجد في أي مكان عرفته أجمل من أمسيات الصيف في بغداد. حيث تنخفض درجة الحرارة ويهبّ النسيم البارد في الحدائق المزدهرة بالأشجار في وقت المغرب. كان الناس يستأنسون بهذه الأمسيات الساحرة حيث يزور بعضهم البعض ويجلس الجميع في الحدائق وسط الأشجار والأزهار، وبالأخص الفل (الرازقي) ذو الرائحة العطرة، لتبادل الأحاديث وشرب الشاي أو تناول الشمام الأحمر (الركي) أو الأصفر (البطيخ) أو العنب أو فواكه الصيف الأخرى.

كانت البيوت والمنازل في أحياء وضواحي بغداد جميلة حيث يحب العراقيون - عموماً - أن تكون بيوتهم ذات تصاميم خلّابة (وهذا خلافاً لتصاميم البيوت الغربية حيث الكفاءة والناحية العملية تأخذان الأولوية قبل الشكل والديكور في تصميم البيوت). فكانت البيوت العراقية تبدو وكأنها قطع فنية ومعمارية، ويصرف البعض الأموال الطائلة لبناء بيوتهم بفرادة إبداعية. قد يكون سبب ذلك أن البيوت هي نوعاً من الاستثمار المالي حيث كان الناس لا يستثمرون أموالهم في مؤسسات حكومية لعدم ثقتهم بالنظام.

أمّا المباني الحكومية مثل الوزارات وبيوت المسؤولين فكانت ضخمة ذات تصاميم مدهشة وصخور مرمرية برّاقة، وكان يحيط بها رجال الحماية ونقاط التفتيش، وكانت مزودة بكاميرات تصوير للمراقبة المستمرة من جميع الجوانب، وكانت الشوارع بين هذه البيوت والمؤدية لها مبلّطة وصقيلة ونظيفة دائماً حيث الاهتمام بها

مستمر. ومع أن بعض البيوت البغدادية، بما فيها بيتنا، كانت جميلة ولكن بيوت هؤلاء المسؤولين كانت مميزة بشكل واضح بأحجارها الجميلة المستوردة من إيطاليا وأزهارها المستوردة من باريس والإسراف في زينتها وديكوراتها، كانت زهيّة دائماً بإضاءة عالية وأزهار ونباتات فريدة لم تكن توجد في العراق وتحتاج إلى رعاية خاصة ورطوبة معتدلة وأجهزة لتهيئة أجواء النمو لها، وهذا يتوفر في بيوت رجال النظام فقط. كان هذا الإسراف في زينة البيوت وكأنه لا يختلف عن مكياج امرأة أفرطت باستعمال مواد التجميل ولبس المجوهرات. كما كانت الطرق المؤدية إلى تلك البيوت خاصة مغلقة أمام المواطنين حيث لا يستطيع الناس المرور بها إلا من كان مجاوراً لها فهناك الحرس الذين سيوقفون أي إنسان ليستجوبوه أو يلقوا القبض عليه وإذا لم يتوقف الفرد فقد يتمّ رميه بالرصاص.

ومع أن معظم البيوت العراقية مبنية وفقاً لتصميم يختاره أصحابها وأكثر الناس كانوا يحبون التصميمات المميّزة نوعاً ما، كان هناك أيضاً مشاريع سكنية يتمّ فيها بناء مجمعات سكنية وفقاً لتصميم واحد أي متشابهة. على كل حال: هذا ما شاهدته آنذاك علماً أنني لم أرَ المناطق الشعبية والحارات الفقيرة المزدحمة بالسكان، وبالطبع كانت موجودة في بغداد (ولا تزال) غير أنني لم أصل إلى تلك المناطق. ذكرياتي عن بغداد أنها جميلة جداً وفيها الكثير من الأماكن المدهشة.

* * * * *

كان بيتنا جميلاً وقضيت فيه حياةً سعيدةً - وإن كانت لبضع سنوات فقط- كان البيت ضخماً ـ بنظري كبنت صغيرة ـ يحيط به سياج مرتفع وهذا أمرٌ عادي في بيوت بغداد (والشرق الأوسط بصورة عامة)

والسياج يعزل خصوصيات البيت عن الشارع ويضفي بعض الأمان. كان يحيط بالسياج من الخارج الأشجار والشجيرات التي تجعل صورة البيت أجمل في الخارج وتضفي عليه خلوة أو عزلة في الداخل .

هناك حديقتان كبيرتان وممرات مبلطة ومسقفة («طارمات» باللهجة العراقية). أتذكر الحديقتين وأتذكر أننا كنا نلعب كرة القدم مع إخوتي وأبناء خالتي حيث نشكل فريق البنات مقابل فريق الصبيان، وكنا نلعب ونهاجم بعضنا بالمياه في وقت الظهيرة في صيف بغداد الحار فتبتل ملابسنا، وكان ذلك مسلياً ومثيراً. وكان يحيط البيت ممشى ضيق، يفصل البيت عن الشارع ويوحي بالأمن والعزلة ويعطي ظلالاً هادئةً، كان وكأنه سياجاً داخلياً من الشجر والزهور، كنت أعشق هذا الممشى أكثر من أي شيء آخر في بيتنا وأعتدتُ أن أمشي مع أبي حول البيت في هذا الممر الضيق المملوء بالصخور والأشجار والأزهار بأنواع مختلفة .

تمتع أبي بذوق مرهف، وكان يقضي أوقاتاً جميلة ماشياً حول البيت، سعيداً بالأشجار والأزهار التي يتابع رعايتها بالرغم من وجود الفلاح المختص بعنايتها. كان يأخذ زوارنا وأقاربنا المولعين بالحدائق الجميلة ليروا الأشجار والأزهار. كان يقوم بسقي هذه الأشجار بنفسه وينبّه الفلاح إلى رعايتها. وقد زرع أشجاراً مزهرة حيث كانت تلك الأزهار أكبر وأكثف من الأزهار الاعتيادية ومعظمها بلون وردي وأحياناً تكون حمراء، كما توجد أشجار أخرى بأزهار ذات ألوان زاهية وأشجار حمضية بأزهار بيضاء تملأ الأجواء بالرائحة العطرة.

في الطارمة الأمامية توجد واحة صغيرة تحوي أزهاراً ونباتات

مختلفة، منها نباتات الصبار الكثيف المتشعب بأشكال مثيرة. وعلى طول الممر توجد سنادين الفخار بأنواع غريبة من الصبار والأشجار ذات الأزهار الحمراء مما لا أتذكر أسماءها الآن. وفي الحديقة الرئيسية وعلى الجانبين توجد الأزهار بألوان وأشكال مختلفة مثل زهرة الخزامى وعباد الشمس والأقحوان والقرنفل بألوانه الفاتحة والداكنة والمدهشة مثل الوردي السلموني والوردي الغامق، وبخطوط وردية وبيضاء والبعض منها أبيض. كانت زهرتي المفضلة في طفولتي هي زهرة البنفسج، حيث هي مدهشة بثنائية وثلاثية ألوانها المتداخلة ومظهرها المخملي، كنت أحتار كيف يمكن أن تكون هذه الأزهار بنية وحمراء داكنة وزرقاء بلون البحر بجانب اللون الأصفر، أحببت تلك الأزهار الصغيرة كثيراً.

اعتادت طالبات المدرسة ومن بينهن أنا وشقيقتيَّ أن يقطفن ثلاث أو أربع زهرات ويقدمنها لمدرّساتهن المفضّلات، كان يحصل هذا عادةً في فصل الربيع حيث تتفتح الأزهار ويصبح الطقس رائعاً في بغداد. كنا نقطف الأزهار الجميلة من الحديقة كل صباح ثم نذهب ونفتش عن مُدرِّساتنا لنقدم لهنَّ تلك الأزهار، هذا ما كنا نفعله أنا وشقيقتي وصديقاتي. فكانت المعلمات تحملن هذه الورود طوال اليوم من حصة الى أخرى فرحات بحُبنا لهن وتقديرنا لجهودهن. كانت أمي مُدرِّسة في الثانوية، وكانت تأتي بمثل هذه الأزهار وتقول إن طالباتها قدمنها لها. كانت الأزهار لا تدوم سوى ساعات قليلة لأنها حُرمت من الماء طوال النهار. كانت مدارس البنات منفصلة عن مدارس البنين وكانت والدتي تدرس في مدارس البنات ونحن أيضاً ندرس في مدارس خاصة للبنات.

في الأول من آذار وهو يوم مميّز بالسنة يكون الاحتفال بعيد المعلم، نقدم للمدرِّسات أجمل باقات الورود. وعموماً كان المعلمون والمعلمات في العراق يحظون باحترام كبير، كنا نحن الطالبات نحترم مدرِّساتنا ونلبي كل ما يطلبنه لإرضائهن، كنا نحتفل بهذا العيد ونعبّر عن محبتنا لهن. في ذاك اليوم تُلغى الدراسة في النصف الأول من النهار وأحياناً طيلة الدوام الرسمي. وكان يُسمح لنا بهذا اليوم أن نرتدي ملابسنا المفضلة الملونة وليس زي المدرسة الرسمي، ويتم توزيع الحلويات على الجميع. كُنّا نقدم باقات الورد لمدرِّساتنا لنعبر لهن عن احترامنا وحبنا. كانت هذه الباقات الجميلة تُهيّىء في محلات الزهور في بغداد. وتباع في هذه المحلات الراقية أنواع الورد المستورد- الذي لا يُزرع في العراق- فنجد الأزهار البصلية مثل التوليب والسوسن الأزرق وأنواع القرنفل الكبير ومعظم هذه الأزهار مستوردة. كانت الطالبات تجمع النقود استعداداً لعيد المعلم ولشراء باقات الورد من محلات بيع الزهور ويتم تنسيق أزهار السوسن والخزامى والقرنفل في باقات يتمّ ربطها بورق السيلوفان وتبدو جذابة جداً. كانت أمي تجلب إلى البيت مثل هذه الباقات في عيد المعلم وكان ذلك اليوم مملوءاً بالمحبة والعواطف الرقيقة.

* * * * *

كان تصميم بيتنا جميلاً ومميّزاً من دون إسراف، تزيّنه بعض الأقواس (قناطر) الداخلية والخارجية الجميلة، كان أبي يحب تلك القناطر لأنها تشبه التصاميم الأندلسية. وفي وسط البيت باحة مفتوحة بوسطها حوض ماء وبعض الشجيرات والأشجار الطويلة. كانت تشبه حديقة البيت ولكنها في وسطه حيث الشمس تلقي بظلال الأشجار

الطويلة داخل تلك الواحة الصغيرة التي تعطي منظراً جميلاً يُهدِّىء المشاعر وتدخل الشمس والهواء النقي إلى الغرف المحيطة بهذه الواحة الجميلة، كان أبي يحب هذا التصميم المعروف في البيوت الشرقية القديمة.

كانت شجرة الكرم (وتسمى القمرية باللهجة العراقية) تغطي الموقف الخاص للسيارة، وهذا أمر مألوف في بغداد حيث هذه الأشجار تعطي ظلاً جميلاً وفيها ألوانٌ مختلفة من العنب الأسود والأخضر والحامض والحلو. كنا نجمع عناقيد العنب ونعصرها ونشرب العصير الطازج حالاً قبل أن يتخمر. وكان هناك أنواع من الصخر والمرمر وأشجار الجهنمية (باللهجة العراقية) الباسقة ذات الألوان القوية الصارخة تتسلق الجدران الصخرية بين موقف السيارة والممرات، كانت ألوان تلك الأشجار جميلة وخلابة ولا زلت أحبها حتى اليوم.

أما داخل البيت فكان واسعاً فيه قسم خاص بنا نحن البنات وقسم خاص بإخوتنا وقسم خاص بوالدينا وقسم كبير للضيوف وغرفة الطعام المطلّة على الممر الجميل المحيط بالبيت (سبق ذكره). وبالطبع كان للضيوف مدخلٌ خاص، وكان هناك غرفة على الطراز الشرقي نجلس فيها أحياناً للمطالعة. وهناك زوايا وأماكن خفية في الداخل والخارج. كنّا نلعب مع أولاد خالاتنا في الحديقة الرئيسية ساعات طويلة، وكنت أحياناً أجلس أُحضر الواجب المدرسي أو أحفظ الشعر في حديقة البيت أو الطارمة الداخلية أو في مكان ما معزول. كان المشي حول البيت أو الجلوس تحت القنطرة وسط جمال الطبيعة يثير المشاعر ويحفِّز العقل وينشطه ويبدو لي ذلك الآن

كالحلم أو الخيال، وفي تلك الأجواء الشاعرية الهادئة ربما ينسى المرء نفسه أحياناً ويستغرق في أحلامه وأفكاره ويخيل له أنه في الجنة وليس في العراق وفي قبضة حزب البعث.

* * * * *

كانا والداي مثاليين إلى أبعد الحدود، وقد يكون هذا خطأهم الوحيد، فقد مضيا في هذه الحياة وكأنها جزيرة رومانسية خالية من السوء. كانا مستمتعين بحياتهما العائلية وبالسفر ومساعدة الآخرين. كان يحيط بهما الأحبة من الأقرباء والأصدقاء فيزيد من سعادة الجميع. كانا ذوا مبادئ وقيم إلى أبعد الحدود، وخيّل لهما أن الآخرين هم كذلك أيضاً أصحاب مبادئ وقيم رفيعة. ورغم أنهما لم يدخلا في عالم السياسة، كان لهما موقف صارم من النظام الجديد فرفضا الفساد والتخريب وسوء الإدارة وعدم الكفاءة البعثية، ولم يسكتا عن ذلك بل وقفا موقفاً معارضاً للنظام برفضهما الانتماء لمؤسسات الحزب والاستسلام للمطالب البعثية. ظن والداي - وبالطبع كان ظنهما خاطئاً - أن الكل سيرفض النظام الجائر ويحتقر البعث الحاكم، فالإخلاص والرحمة لا ولن يتسايرا مع إجرام ووحشية نظام البعث. وبالطبع كانا ساذجين نوعاً ما بذلك الاعتقاد.

كان والداي يحلمان بحياة حرّة كريمة وأن يعيشا سعيدين وسط الأهل والأحبة وفي خدمة الوطن بصورة مثالية. كان أبي يتغنى بأبيات شعرية عن المثالية والكمال للشاعر جبران خليل جبران بعنوان (المواكب) وهي أبيات تعكس الرؤية المثالية البسيطة للحياة كما يلي :

أعطني الناي وغنِّ.......

فالغنا سر الوجود

وأنين الناي يبقى

بعد أن يفنى الوجود

هل جلست العصر مثلي

بين جفنات العنب

والعناقيد تدلَّت

كثريات الذهب

* * * * *

كان والداي معاً مبهرين خلّابين كلاهما على درجة عالية من الثقافة. فقد حصل والدي على تعليمه الجامعي في المملكة المتحدة في الأربعينات، وكان أول مهندس كهربائي عراقي يتخرج من جامعة ليفربول في بريطانيا أيام الحرب العالمية الثانية، وكان يتحدث الإنكليزية بطلاقة. بعد سنوات قليلة من عودته إلى العراق في أوائل الخمسينات أصبح رئيساً للمهندسين، ثم بعدها وكيل الوزير في وزارة المواصلات حيث وضع خبرته وعلمه في خدمة المؤسسة والبلد مما جعله شخصية مهمة في مجال عمله، فمثَّل العراق في مؤتمرات دولية وندوات عالمية كثيرة وحقّق نجاحاً باهراً في الخمسينات والستينات، وكان أيضاً يدير أعماله الاستشارية الخاصة بنجاح. كان أبي رؤوفاً يحترمه الجميع وخاصة زملاءه الذين يقدرون عمله وإخلاصه وأسلوبه في العمل، حيث تميّز بشخصية لطيفة ومحبوبة واجتماعية إضافة إلى مظهره الأنيق والجذّاب.

بعد تسلط حزب البعث على الحكم، تغيّرت أوضاع العمل بشكل كبير، وتقريباً أُممت معظم القطاعات. ولكن هذا التأميم لم يكن يعني خدمة المصالح الاقتصادية للبلاد كما قد يظن البعض، بل كان يعني التسييس والسيطرة البعثية التامة على جميع مرافق العمل، أي أصبح البعثيون في موقع المسؤولية العليا وإن كانوا عديمي الكفاءة والمؤهلات العلمية. فصدرت قوانين وتعليمات جديدة حددت مجال الأعمال الخاصة مما جعل أبي ينهي عمله الخاص ليتجنب الاحتكاك مع الحكومة الجديدة، غير أنه احتفظ بمركزه الحكومي حيث لم يجد النظام آنذاك من يمكن أن يحلّ محله من حيث الكفاءة.

كان أبي صادقاً ومخلصاً، وكان جدياً فالأمور عنده حقاً أو باطلاً، فعندما رأى الفساد البعثي في أمور عديدة في العمل وقف موقفاً حازماً ضدها، فكان رجلاً ذا مبادئ وقيم في تعامله مع عصابات البعث ولم يستسلم لطلباتهم وتخريبهم، وحتى كانوا أحياناً يزّورون إمضاءه في بعض الأمور الحكومية لكي يحصلوا على مكاسب مادية، كان أبي مستقيماً في سلوكه وصارماً مع هؤلاء، فوبَّخهم وقرّر تقديمهم للتحقيق بتهمة تزوير توقيعه وانتهاك حرمة مكتبه والعبث بالملفات الرسمية والتصرف باسمه من دون علمه.

في إحدى المرّات كان والدي مسافراً خارج العراق لعدة أسابيع في مؤتمر أو ندوة دولية، بعد عودته من السفر ذهب للعمل في مكتبه كعادته، وحاول فتح الباب بالمفتاح غير أنه وجد القفل محطماً والباب غير مقفل. عادة يغلق الموظفون وكبار المسؤولين غرفهم الرسمية عند غيابهم للحفاظ على الأوراق والملفات المهمة. وجد أبي أن مكتبه قد تمّ اقتحامه وعُبِث بمحتويات الأدراج والملفات،

ووجد بعض الأوراق في غير مكانها. غضب أبي للفوضى التي وجدها في المكتب وكان ذلك الاقتحام سابقة لم يعهد مثلها. استدعى مساعده وحرس الدائرة وسألهم إن كان أحدهم قد شاهد أو علم بما حصل في مكتبه. لم يكن أحد على علم بذلك، كانت الدائرة تحت حراسة مشدّدة ومراقبة جيدة لكل من يدخل ويخرج. كان هناك مسؤول يراقب الأمور بشكل عام ولا يدخل أي شخص من دون موافقته. لم يشاهد الحرس أحداً يقتحم المكتب واكتشف أبي بعد ذلك ومساعدوه أن من فعل ذلك هو أحد مسؤولي المؤسسة نفسها ومن يملك الجرأة أن يدخل متى يشاء. كان ذلك اعتداءً خطيراً وانتهاكاً للقوانين، فقد كان أبي هو رئيس تلك الدائرة والمسؤول الثاني أو الثالث في الوزارة، ولم يكن لأحد حق الدخول والخروج متى يشاء سوى البعثيين ولا يمكن لأحد إيقافهم حيث إنهم يخالفون جميع التعليمات التي يلتزم بها المواطنون الآخرون. أمر والدي بإجراء تحقيق وفحص بصمات الأصابع لمعرفة من اقترف تلك الجريمة، أمضى بقية اليوم بترتيب مكتبه ووضع الأشياء في أماكنها وأمر بتصليح الباب ووضع قفل جديد. لم يتابع أحد ما حصل وتمّ غلق التحقيق من قبل الجهات العليا.

تصدّى أبي لممارسات الفساد البعثي في عمله، ولم يتساهل مع أحد أيٍّ كان بشأن ذلك. وأرقه وضع البلد كان أحياناً يعبّر عن رأيه أمام الآخرين وفي معظم الأحيان كان حذراً ورغم كل الضغوط لم يغيّر في إخلاصه وأسلوبه الصادق في العمل.

إضافة إلى عمله وتخصصه الهندسي، أحبَّ أبي الشعر والموسيقى العراقية القديمة ومعالم بغداد التاريخية، كان غالباً ما

يأخذنا إلى المتحف العراقي كي نتعرف على ذلك الإرث العظيم ونقدّره، كان يأخذنا إلى المتاحف والأماكن الجميلة ويحدثنا عن ماضي بغداد والحي الذي نشأ فيه وكذلك عن حياته في المملكة المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية حيث شحّ الماء أثناء الحرب وخطر الغارات الجوية وتأثير الحرب على الناس والبيوت والمساكن التي تحوّلت إلى أنقاض.

كان أبي يحبنا ويشجعنا ويهتم بمواهب كلٍّ منّا، مثلًا امتلكت شقيقتي داليا وزينة[1] موهبة الرسم والفن، فكان يمتدح أعمالهما ويهتم بهما ويشتري لهما جميع الاحتياجات من أدوات الرسم والتلوين ويبدي إعجابه بموهبتهما، وكان إخوتي الصبيان في صغرهم يحبون الأمور العلمية فهيأ لهم والدي غرفة في أعلى البيت لتكون مختبراً، حيث كانوا يقضون معظم الوقت هناك في فوضى بعيداً عن البيت، وجلب لهم جميع أنواع الألعاب العلمية واللوازم المخبرية. كان يؤكد على أن يكون لكل منا مجموعة كتبه، فكان لي ولإخواني وأخواتي الكثير من الكتب حسب عمرنا، وكان لوالدي نفسه مكتبته الخاصة في البيت وإن لم تكن ضخمة غير أنها احتوت على كتب متنوعة في الفن والتاريخ والشعر والكثير من الكتب والمجلات الهندسية، كنت أقضي معه وقتاً طويلاً في المكتبة أتصفح المجلات والكتب المختلفة وأتأمل مجموعته الجميلة من الأقلام.

لم يكن أبي ممن يعلم شيئاً عن الأمور المنزلية كأن يدخل المطبخ أو يهيئ طبقاً من الطعام، غير أنه كان يهتم بأمورنا الصحية

---

(1) تغيّرت معظم أسماء العائلة والأقارب.

فمثلاً كانت أختي داليا نحيفة جداً فكان كثير الاهتمام بها وقلقاً على صحتها. كان يجلس معها كل يوم لتشرب الحليب ويهيئ لها الهدايا لكي تشربه. أما أنا فلم أحظ بمثل ذلك الاهتمام لأنني لم أكن نحيفة مثلها.

اعتاد أبي اصطحابنا إلى المكتبات لشراء الحاجيات الصغيرة مثل الأقلام والأوراق الملونة وغير ذلك، وكنا نفرح بذلك كثيراً وكان أبي صبوراً معنا يعطينا النقود وينتظرنا حتى ننتهي من شراء ما نريد، كان يعلم كم نحب هذه الكتب الملونة والأشياء الصغيرة الأخرى التي تشغل عقل الصغار، وفي أحيان كثيرة كان يفاجئنا بتقديم هذه الهدايا عند عودته من العمل،حين أسترجع هذه الذكريات، أدرك مدى حبّه لنا وحنانه وهو يكرّس كل ذلك الوقت لإسعادنا. وقد عاملنا -نحن الأولاد والبنات- باحترام ولا أذكر أبداً أنه صرخ يوماً في وجهي ربما لأنني كنت بنتاً وديعة، وكنت الصغرى بين الأولاد والبنات، إضافة إلى أنه كان في الأربعينيات من عمره حين وُلدت أو بالأحرى لأنني لم أمض معه الا سنوات قليلة فقط.

* * * * *

كم أتمنى أنني فعلاً، كما يقال لي، أشبه أمي بجمالها، بل حتى أيضاً بصفاتها الأخرى: حبها للناس، شجاعتها وتكريم ضيوفها. فقد كانت فعلاً امرأة نادرة بتلك الصفات الجميلة، صورتها المشرقة دوماً في ذهني بابتسامتها المرحبة وحبها وحنانها للجميع - ليس لنا أولادها فحسب - بل لإخوانها وأخواتها وكل من يزورها من العوائل الصديقة. كانت هي محور عائلتنا وعائلتها وأقربائنا فهي كبرى أخواتها، مهتمة بجميع شؤونهم وتساعد في حلّ مشاكلهم، كانت

وكأنها الأم الحنون للجميع بالرغم من وجود والدتها (جدتي) على قيد الحياة، كانت تجد حلولاً خلّاقة لمشاكل العائلة، كانت كريمة، متأهبة دوماً لتقديم العون للعوائل الفقيرة.

وكانت أيضاً سخية مع ضيوفها، تهيئ أحلى المآدب والحفلات حيث كانت تزورنا في البيت العوائل الدبلوماسية أو المسؤولون السابقون في الدولة أو الأقارب. كانت تلك أمسيات بهيجة حيث تسطع الأنوار المتلألئة في كل أنحاء البيت ونحن نلبس أجمل ملابسنا، وتهيئ أمي العشاء المنسق بكل ذوق وأناقة. كنت أساعدها في ترتيب مائدة الطعام فأضع الأشرطة المزركشة والمحارم الملونة والمعالق والشوك الفضية والصحون الجميلة ومن ثَمّ نضيء الشموع الملونة. كان كل ذلك ممتعاً ومثيراً - على الأقل بالنسبة لي حيث كنت بنتاً صغيرة آنذاك.

جمعت والدتي مجموعة خلابة من القطع الفنية الثمينة من مختلف دول العالم، حيث كانت تصاحب والدي في الكثير من سفراته. وكانت قد وضعت تلك القطع الجميلة في مختلف أركان البيت وزوايا الغرف في فترينات، فكان البيت مليئاً بقطع فنية من شتى الدول مثل تماثيل الكريستال الصغيرة، دمى مختلفة، أقمشة وهدايا من الهند والصين والسويد ومصر وأستراليا وأمريكا وغيرها. كانت هذه الأشياء الجميلة والراقية من حولي أينما نظرت منذ الصغر. كان من بينها سجاد جميل وصحن بنقوش مذهّبة من القرن التاسع عشر، وقطع ذهبية منذ العهد العثماني، وقطع خشبية منحوتة من الهند، وفخاريات عراقية فولكلورية. وكانت هناك نسخة مميزة جداً من المصحف الشريف قد خُطّت بحروف مذهبة مدهشة وأنيقة. كان

المصحف هدية لوالدي من شاه إيران حين استضاف مؤتمراً دولياً وأعطى مختلف الهدايا لأعضاء الوفود من كل بلد. هذه الأشياء الجميلة من حولنا جعلتنا وكأننا نعيش داخل متحف فنيّ. كانت والدتي تتذكر قصة كل من هذه التحف الجميلة، من أي بلد جاءت بها، أو من الذي أهداها لها أو لوالدي. كنت أقف أمام هذه التحف أوقات طويلة أتأمل جمالها بكل إعجاب وأتخيل قصة لكل دمية ولكل صورة ولكل البيوت المجسمة. كانت هذه الأشياء تنمي الذوق وتوحي بثقافة وفن الشعوب.

وفي الجامعة تخصّصت والدتي بدراسة التاريخ والاجتماعيات في كلية الملكة عالية في بغداد، وكانت مولعة بثقافات الشعوب المختلفة. وبعدها بدأت تعمل كمديرة مدرسة ومدرّسة في الثانوية، وكانت تحب العلوم الإنسانية وقضايا القومية العربية. كانت جريئة في الكلام تدافع عن مبادئها، فقد شاركت في أيام الجامعة في مظاهرات الاستنكار للمجازر التي حصلت في فلسطين عام 1948 والمظاهرات الرافضة لمعاهدة «بورتسموث» واتفاقية 1948 مع الحكومة البريطانية التي حافظت على مصالح بريطانيا والسيطرة على العراق والحكومة الملكية آنذاك. عمّت المظاهرات الطلابية في بغداد آنذاك وسببت الاضطراب وأثارت المشاعر الوطنية، وكان الطلبة الشباب متحمسين للقضايا العربية وعمَّت الاضطرابات حينها فتمّ اعتقالها واستجوابها عن دورها في تلك المظاهرات وإلقائها الشعارات. أنذرتها إدارة الجامعة وبسبب نشاطها السياسي وضعتها تحت المراقبة، وبعد ذلك سمحت لها بالعودة إلى الكلية بعد تعهدات مالية كبيرة تقرب من 1000 دينار(وكان المبلغ كبيراً جداً آنذاك حيث كان الدينار العراقي

ذا قيمة عالية في زمن الأربعينات) وأن لا تشارك بأي نشاط سياسي. تعهد جدي بدفع مبلغ الكفالة ودافع عن ابنته قائلاً إنها كانت تعارض السيطرة الأجنبية لبلادها وهذا أمر يُحمد.

أحبت والدتي عملها في التدريس وأحبت طالباتها، كانت في البداية مديرة مدرسة وفي أواخر الستينات - حيث سيطر البعث- شهدت أمي فساد النظام واستغلال السلطة، ولخبرتها في إدارة المدرسة والتعليم كانت تحترم الجميع وتعاملهم على قدم المساواة، ولا تفرق بين المدرسات أو تفضل إحداهن على الأخرى لانتمائها لحزب البعث أو لأنها قريبة أحد مسؤولي النظام، ولذلك اصطدمت مباشرة مع الحزبيات في المدرسة اللواتي أردن معاملة مفضلة عن الأخريات لكونهن من أقارب المسؤولين. كانت أمي ترفض طلبات تلك الحزبيات وكانت تغضب كثيراً لتجاوزات البعثيين حيث شملت وتفشت حتى في الوسط المهني التعليمي وفي المعاهد والمدارس كافة، وبسبب تلك الصراحة والجرأة فقدت مركزها (مديرة مدرسة) غير أنها بقيت في ملاك التدريس وكانت تحب عملها كثيراً. وفي بعض السنوات أقامت دورات لمناقشة قضايا القومية العربية، وكانت تتحدث في مناسبات مختلفة وكان يحضر تلك المناسبات زميلاتها المدرسات وطالباتها وبعض منتسبي وزارة التربية، كانت تعلّم طالباتها الإخلاص والصدق، وكان العديد منهن يحبها ويقتدي بها.

كانت أمي سعيدة أيضاً بدورها كأم وزوجة، وكانت متفانية مع أولادها وزوجها وبيتها. وكان البيت دائماً جاهزاً ومفتوحاً لاستقبال الضيوف. بحبها وحنانها جعلتنا نحب الجو العائلي في البيت. كانت سعادتنا وراحتنا جميعاً أولى أولوياتها. كانت تداري أمورنا كلها

بعناية فائقة ودوماً تريدنا في الأمام في دراستنا. كما زيّنت أمي جدران البيت بالصور العائلية وصور الأجداد والأقارب، وصور لوالدي في مؤتمرات دولية. وعندما كنت طفلة في روضة الأطفال زار روضتنا يوماً وزير التربية وبعض المسؤولين والمساعدين له، واختارتني إدارة المدرسة لأرحّب بالزوار وأقدم الحلوى لكل واحد منهم. هيأت لي والدتي ثوباً أحمر جميلاً لبسته في تلك المناسبة، وهناك صورة لي في تلك المناسبة حاملة طبق الحلوى (شوكولاته). ما كنت لأتذكر تلك المناسبة اللطيفة لولا الصورة الكبيرة المعلقة على جدار الغرفة. كذلك عندما كنت في الصف السادس الابتدائي شاركت في مسرحية في المدرسة وطلبت مني المعلمة أن أهيئ فستاناً أبيضَ لدوري فيها، هيأت لي أمي فستاناً جميلاً بشرائط الدانتيل واللؤلؤ والأزهار وحتى هيأت لي شريطاً لشعري يتناسق مع الفستان فكان رائعاً.

* * * * *

سارت حياة والديَّ مسيرة هادئة وكأنها رواية رومانسية جميلة. وكانا محط إعجاب الزملاء والزميلات، وكان لقاؤهما الأول قصة ساحرة ومرحة في آن واحد خاصة إذا علمنا أنها كانت في أوائل الخمسينات. كانا يقصان علينا تلك الأحداث مرة بعد مرة، وكنا نتلهف لسماعها في صغرنا. التقيا ببعضهما عندما كانت أمي في السنة الثالثة في الجامعة، وكان أبي قد عاد لتوه من بريطانيا حيث أنهى دراسته هناك وتمّ تعينه أستاذاً جديداً في كلية الملكة عالية.

كانت تُقام- في بدء كل عام دراسي جديد- حفلة تعارف بين الطالبات القدامى والجدد في الكلية، وحيث يتعرف البعض على الآخر ويقضي الجميع وقتاً طيباً في المرح والغناء. كانت والدتي تجلس بين

صديقاتها عندما شاهدها والدي في تلك الحفلة أعجب بجمالها وتحفظها وشخصيتها اللطيفة فأحبها. كان ذلك الحب من أول نظرة ـ كما هو القول المعروف ـ من جانبه على الأقل. كان جريئاً وأخذ يريد التحدث اليها في الأيام التالية لدرجة أزعجتها فطلبت منه أن يكفّ عن ذلك وأن يتركها وشأنها. كانت تلك جرأة شديدة من أبي خصوصاً ونحن نتكلم عن أوائل الخمسينات وفي مجتمعنا المحافظ. لكن أبي أصرّ على رؤيتها فكان يذهب إلى الفصل الدراسي ويجلس في الفصل. كان زملاؤه الأساتذة يشجعونه ويسمحون له في الجلوس في حصصهم لكي يراها. (تختلف جامعات العراق في ذلك عن الجامعات الغربية حيث - في الغرب- يسمح المحاضر لغير طلبته في الحضور إذا أراد). لذا كان حضور والدي أمراً غريباً آنذاك. وكان أحياناً يتحدث إليها بكلمة أو كلمتين وكان يذهب إلى القسم الداخلي حيث يقيم الطلبة -من غير أهالي بغداد- وينتظر هناك ليراها عند الذهاب والإياب وأخيراً في أحد الأيام طلب يدها.

كان الأمر مفاجئاً جداً لوالدتي، حيث إن التقاليد في العراق ـ آنذاك وحتى يومنا هذا ـ لا تسمح أن يتقدم الرجل لطلب يد الفتاة مباشرة - كما هو أمر اعتيادي في الغرب- بل يتم ذلك عبر طرف ثالث مثلاً صديق أو أحد أفراد العائلة، والمعروف أن يتقدم والد الرجل لطلب يد الفتاة من والدها، ولا تكون الفتاة أول من يتلقّى الطلب. ولكن لم يعلم أبي تلك الأمور والتقاليد حيث إنه عاش خارج البلد معظم سنوات شبابه. فقد توفيت والدته -جدتي- بعد ولادته بفترة قصيرة، وتوفي والده وهو في السادسة أو السابعة، ثم عاش مع جدته عدة سنوات ثم رحلت هي الأخرى فعاش مع أخيه الأكبر حتى

السابعة عشرة ثم غادر العراق إلى بريطانيا للدراسة فلم يكن خبيراً بتقاليد الخطوبة.

فوجئت والدتي بطلبه وصرخت لجرأته وطلبت منه أن يكلّم أهلها بالموضوع. وبالفعل ذهب أبي الى مدينة الموصل وتقدّم لخطبتها. أراد والدها (جدّي) أيضاً أن يتعرف ويتحرى عن الخاطب. فسافر جدي إلى بغداد ليسأل معارفه وأصدقاءه، وبعد عدة أيام اتفق الجميع على إقامة حفلة بسيطة لإعلان الموافقة على الزواج وعقد القران. كانت والدتي في السنة الأخيرة لدراستها الجامعية فتزوجا بعد تخرجها. كانت حفلة الزفاف بسيطة أيضاً (حسب ما قالت أمي) غير أن صورتهما في تلك المناسبة كانت جميلة ورائعة.

ينتمي والدي إلى عائلة عريقة في بغداد وذات مكانة سياسية ودبلوماسية ومراكز حكومية عليا. فعندما أعلن عن قراره الزواج من فتاة ليست من نفس العائلة وليست من بغداد، ثارت الدهشة والانتقادات في وسط أقربائه، وبالطبع هم كانوا حريصين على والدي وأرادوا أن يزوِّجوه وفق اختيارهم وموافقتهم، وكانوا يحبونه ويحيطونه بالاهتمام لأنه فقد والديه منذ صغره فكانوا يريدون له اختياراً مناسباً ولكن من نفس العائلة ووفق تقاليدها. فتقاليد الزواج في العراق آنذاك اقتضت ألا يكون الذوق والحب والإعجاب هو الدافع الأساس للاختيار بل اسم العائلة وموقعها، أي إن هناك بعض العوائل في بغداد التي كان بإمكانه أن يصاهرها وطبعاً فإن أمي وأهلها لم يكونوا من بغداد فلم يعرفهم الناس هناك. وعموماً فإن الزواج في العراق - حتى اليوم- يتم بإشراف الأهل وموافقتهم وبالأخص والديّ العروس والعريس. (وهنا أختلف أنا بشدة مع الرأي

الخاطىء والسائد في الغرب أن العرب والمسلمين يزوجون أبناءهم بالقوة وبدون موافقتهم، هذه خرافة وسوء فهم لدى الغربيين حيث يعتقدون أن جميع الزيجات تتم هكذا أي أن تُرغم الفتاة أو الفتى بالزواج ممن تختاره العائلة) مثل هذه الزيجات نادرة في بلادنا على الأقل أنا لم أرَ شيئاً مثل هذا - وهي موجودة أكثر عند شعوب جنوب وشرق آسيا.

وعلى كل حال كان أبي لطيفاً ومثقفاً، ومحبوباً من جميع أقاربه ويريدونه أن يتزوج من إحدى بنات العائلة، أي إحدى قريباته، ومع أن الزواج بابن أو بنت العم أو الخال أمر اعتيادي في بلادنا لكن أبي لم يكن يؤيد ذلك أبداً ولم يفكر به مطلقاً، وكان هناك أيضاً العديد من العوائل المعروفة ذات القرابة البعيدة وكان ممكناً أن يتزوج منهم.

تنتمي أمي إلى عائلة بسيطة محترمة ومتماسكة جداً فيما بينها من أهالي الموصل في شمال العراق، ولم يكونوا معروفين في بغداد مثل أهل أبي. وبصورة عامة فإن البنات في شمال العراق معروفات بجمالهن وملامحهن الرقيقة وقد يكون ذلك بسبب التصاهر- عبر الأجيال- بين العرب والأكراد والأرمن والتركمان في تلك المناطق. ومع أن والدتي وأهلها كانوا معروفين بأصولهم الطيبة وكرمهم في وسطهم الاجتماعي وبيئتهم الصغيرة فإنهم لم يكونوا معروفين في بغداد، لذلك فوجئ أهل أبي وأقاربه بقراره الزواج بوالدتي وظلوا يتساءلون عن الفتاة التي سيتزوجها، ولماذا لم يختر بنتاً من عائلة بغدادية معروفة.

ولا شك فإن أهل بغداد عموماً يتعالون على سكان المدن

الأخرى والمحافظات (وهذا يشابه شعور سكان المدن الكبرى الأخرى في دول العالم المختلفة) يتصور البغداديون -آنذاك وحتى اليوم- بأنهم أفضل وأكثر تقدماً من غيرهم من العراقيين، وكأن بغداد هي رمزاً لرقيهم. ومع كل هذه التفاصيل بدا واضحاً لأبي أن زواجه لن يلاقي ترحيباً من الجميع، بل وكان مندهشاً لتلك الضجة التي أُثيرت حول زواجه ولكنه أصرّ على موقفه وأخبر الجميع أنه يحب والدتي ولن يتزوج غيرها فهي الآن تجسّد كل حياته وإنه لن يغيّر رأيه، وكان ذلك في حينه موقفاً شجاعاً. وفي بادىء الأمر- حسبما أظن- لم يلق والدي ترحيباً من أحد لزواجه من أمي غير أن الأمور تغيّرت فيما بعد حيث أعجب الجميع بأمي وأحبوها فكانت طيبة ومتمسكة بالتقاليد والأصول.

الحقيقة كان لكل من أبويّ شخصية مختلفة بل ومتناقضة مع الآخر تماماً. كانت أمي سريعة الانفعال عاطفية حادة الطبع ومندفعة لا تتمالك نفسها مطلقاً في ساعة الغضب فتقول رأيها بصراحة في كل الحالات، فإذا ما أزعجها أو أغاظها أو أساء إليها أحد كانت ترد عليه بقوة وبصورة مباشرة. وعلى العكس كان أبي هادئاً متمالكاً لأعصابه في معظم الأحوال يتفحص الأمور ببصيرة وبعد نظر، كان يحلِّل الأمور ويفكر بنتائجها ويخطط للأشياء بشكل منتظم، لم يكن ينفعل بسرعة عند حصول أمر ما مثل أمي فمثلاً كان يقول لها: لا تبالي أبداً بكلام الآخرين. كما كانت والدتي شفيقة وحنونة الى أقصى حدّ فمثلاً احتفظت بأشيائنا الصغيرة (كذكريات عن ولادة كل واحد منا) ولديها حقائب وصناديق مملوءة بهذه الأشياء، مثلاً هناك الفرشة التي تدثر فيها أخي الأكبر عند ولادته والمناشف التي استعملها عند

استحمامه، هناك الفستان الذي لبسته في أول عيد ميلاد لي كما سجلت والدتي التواريخ التي نطقنا بها لأول مرة . . . . الخ. كانت أمي تحب أمور الأمومة هذه ويسعدها التحدث عنها وهو أمر غريب أن تكون متعلقة هكذا بهذه الأشياء الصغيرة، وكان أبي يمزح معها أحياناً حول ذلك. وعلى العكس، كان أبي عملياً أكثر يحتفظ بجميع الأوراق الوثائقية في ملفات مرتبة بشكل دقيق. هذا التضاد في الشخصيتين جعل أحدهما يكمل الآخر بأجمل الصور في الأمور الحياتية اليومية، وكانا خفيفين وفاتنين خاصة عندما يستعدان لحضور حفلة أو دعوة ما، وكنت ككل البنات أراقب أمي وهي ترتِّب ملابسها ومجوهراتها وأبدي إعجابي بها.

كان والداي دوماً على سفر وقد استمتعا بذلك ولديهما مجموعة كبيرة من الصور والأفلام الخاصة بتلك السفرات. لم تكن آلة تصوير الفيديو موجودة آنذاك، ولكن بدلاً عن ذلك كان هناك نوع من آلة التصوير السينمائية التي تسجل الأحداث ومن ثم يجب إرسال الفيلم إلى الخارج -دولة أوروبية - لتحميضه في مختبرات كوداك ثم يرسل إلينا. كنا نشاهد الفيلم في آلة عرض خاصة (projector) كنا نجلس معاً لنشاهد هذه الأفلام ونصغي لقصص سفرات والديّ، منذ صغري وأنا أستمع عن الأماكن الجميلة في العالم التي سافرا إليها، حدّثانا عن سور الصين العظيم وعن شلالات نياغارا وعن تاج محل والبوابة الذهبية في سان فرانسيسكو وبرج إيفل والأهرامات وساعة بيغ بن في لندن ومدينة البندقية ولقد رأيت صوراً وأفلاماً عن هذه الأماكن العجيبة في العالم واشتقت دائماً للسفر إلى هناك.

كان والداي كأصحاب العمر بذل كل منهما ما بوسعه لإسعاد

رفيقه بأجمل الأساليب المحببة وكانا سعيدين برفقة بعضهما كنا نحتفل بعيد زواجهما وخطوبتهما واحتفلنا بذكرى زواجهما الـ 25 حيث قدّم أبي لأمي صحناً فضياً نُقش عليه اسماهما ولدينا الكثير من الصور في ذكرى سنوات زواجهما الأخرى. ومع أنني على يقين أنهما كانا يختلفان أحياناً- كما هو الحال في معظم الزيجات وكما يحدث في جميع البيوت في العالم- ولكنّي لم أعهد ذلك بنفسي فربما كانا يختلفان ولكن ليس أمام الأبناء. بالعكس كان الاحترام هو السائد ولا أذكر أبداً أن أحدهما أهان الآخر أمام الناس أو في البيت. إن هذا الحب والأخلاص هيّآ لنا بيتاً سعيداً آمناً فتحت عينيَّ فيه وتعلمت منه أن أشكر الله على كل لحظة في حياتي وأن أقدّر قيمة التماسك العائلي وحرمة البيت والزواج وانا أعتبر هذا الأساس التربوي القوي هو عامل مهم في نجاح حياتي الزوجية.

لم تدم تلك السعادة الحالمة الّا سنوات قليلة قضيتها مع أهلي. انتهى ذلك الحلم فجأة وبسرعة خلال سنوات معدودة، جرت أحداث مخيفة ورهيبة الواحدة تلو الأخرى أزاحت تلك السعادة وحطّمت أحلام الطفولة. دخلنا عالم الروع والاضطهاد على أيدي نظام البعث، وذقنا أولى اعتداءات الحزب الحاقد على العوائل المعروفة والمحترمة في العراق، وبأول مراحل الرعب والظلم في بداية السبعينات. أصبحت الحياة في العراق مرعبة وساءت الأمور بمرور الأيام.

الفصل الثاني

اللّغز

تعرضت خالتي ناجية وأسرتها لحادث سيارة في إحدى الليالي عند عودتهم من مطار بغداد. كانت الأمطار غزيرة في ذلك الشتاء والشوارع زلقة، لم يكن دولاب السيارة مهيأً لهذه الأمطار فانقلبت السيارة على رأسها واستقرت في الجزيرة الترابية التي تفصل بين شارعي الذهاب والإياب. خرج الجميع من شباك السيارة الخلفي ولم تكن إصابتهم بليغة، أما خالتي فقد كانت إصابتها بالغة الخطورة. لم يضع أحداً آنذاك حزام الأمان - المعروف في السيارات هذه الأيام - ولا أذكر حتى إن كانت سيارتهم المرسيدس مزودة بتلك الأحزمة. وفجأة أحست خالتي أنها مرمية تحت مقدمة السيارة الثقيلة التي أخذت تغوص في الأرض الطينية الهشة مع استمرار هطول المطر الغزير وغابت عن الوعي. كانت نجاتها أعجوبة وهبة من الله سبحانه وتعالى، ولكنها أصيبت بعدة كسور في الحوض، ولم يكن باستطاعتها المشي أو حتى الجلوس. قضت خالتي عدة أسابيع في مستشفى الراهبات وهي مستشفى أهلي - خاص - لراهبات الكاثوليك وذات كادر طبي وتمريضي ممتاز، وهي من أفضل المستشفيات في بغداد، وربما واحدة من المؤسسات القليلة التي لم

تصلها بعد آنذاك لعنة التأميم البعثي، فكان للمستشفى سمعة ممتازة وكانت جميلة في تصميمها الداخلي.

علمنا بخبر الحادث عندما اتصلت ابنة خالتي وهي تبكي وأخبرتنا بالحادث، كان حادثاً مؤلماً لنا جميعنا وصُدمنا لما حصل لخالتي، هناك قول متداول في العراق أن من ينجو من حادث رهيب كهذا يكتب الله سبحانه وتعالى له عمراً جديداً. كنا نردد ذلك لخالتي ونعبِّر عن سعادتنا لبقائها على قيد الحياة، لكنّا كنّا نعلم أن شفاءها سوف يستغرق وقتاً طويلاً. كانت خالتي ناجية جميلة وأنيقة تتابع الموضة وتهتم كثيراً بمظهرها وثيابها، وكان محزناً أن نراها حبيسة الفراش بضمادات لعدة أسابيع لم تكن تستطيع حتى الجلوس إلا بصعوبة.

اهتمت أمي بأختها بكل حب وحنان، فكانت تقضي معها أياماً في المستشفى، ونحن أيضاً كنا نهتم بأولادها ونحاول إدخال السرور إلى نفوسهم في الوقت الذي كانت والدتهم في المستشفى. كنا نريد أن يشعروا بالطمأنينة فكانوا يأتون لبيتنا ونجلس معاً للغداء أو العشاء، كنا نهيئ واجباتنا المدرسية مع بعضنا حيث كنا في نفس مستوى الصف المدرسي. كنا جميعاً نقضي الأمسيات في المستشفى عند خالتي لإدخال السرور إلى قلبها، وفرحنا كثيراً عندما تحسّنت واستطاعت الجلوس، واستطاعت أن تخطو تدريجياً خطوات قليلة بعد عدة أسابيع. كان وجودنا مجتمعين في المستشفى قرب خالتي في تلك الأمسيات يسعدنا جميعاً ويسعدها، كنا نجعلها تضحك وتبتسم لنخفف عنها وطأة الأيام الثقيلة في المستشفى.

في إحدى تلك الأمسيات، غادرنا المستشفى عند انتهاء

ساعات الزيارة، توجّهنا نحو سيارتنا خارج المستشفى فطلبت والدتي من شقيقتي زينة مرافقة خالتي منى لكي لا تكون بمفردها مع ابنتها في سيارتها. ثم طلبت أمي من خالتي منى أن تتَّجه معنا إلى البيت وأن تسير السيارتان مع بعضهما. كانت المستشفى بعيدة قليلاً عن البيت، وكنا نسير في الشوارع الفرعية المعتمة. اتفقنا أن نتوجه الى بيتنا أولاً ثم تعود خالتي إلى بيتها حيث لم يكن بعيداً عن بيتنا. لشدّ ما كانت أمي حريصة وحنونة على الجميع فلم ترض أن تكون خالتي لوحدها بسيارتها في ذلك الليل حيث لم تكن أبداً الأوضاع طبيعية في بغداد حينها، بل كانت تلك أيام جرائم «أبي طبر» في أوجها، كان «أبو طبر» قد هزّ الناس بجرائمه ومجرد ذكر اسمه يجلب لنا الرهبة والروع.

«أبو طبر» (مصطلح باللهجة العراقية معناه الرجل الذي يحمل الطبر و«الطبر» هو مصطلح عراقي لفأس كبير وحاد) كانت هي كنية لقاتل محترف وغامض اقترف سلسلة من الجرائم البشعة في بغداد في أوائل السبعينات. كان يقطّع أوصال الضحايا لعوائل بكامل أفرادها بواسطة الطبر، وكان يلطخ جدران الغرف بدم هؤلاء الضحايا الأبرياء، كان شريراً متوحشاً كحيوان مفترس، كان يقطع رؤوس الضحايا ويرميها في الغرف والممرات، كان مكان الجريمة بشعاً، هكذا شيع آنذاك.

لم يسبق أن رأى البغداديون مثل هذه الجرائم، وفي الواقع كانت بغداد آمنة إلى حدّ ما ولم يسبق أن تحصل مثل هذه الجرائم. ربما كانت هناك بعض الجرائم بدافع السرقة أو حوادث اغتصاب غير أنها كانت على نطاق صغير ونادرة الوقوع ولم تكن بمثل هذه

الوحشية مثل جرائم «أبي طبر». ارتعب الناس واشمأزّوا من جرائم هذا الرجل الذي قتل بحقد وكره لعوائل بكاملها صابّاً حقده حتى على الأطفال والنساء.

أصيب أهل بغداد بالفزع من جراء تلك الجرائم المرعبة، وظلّوا في قلق يتساءلون متى ستقع الجريمة التالية؟ وأين؟ ومن سيكون الضحية؟ بدأ الناس يسيرون في الشوارع كجماعات مع بعضهم وتجمعت العوائل مع بعضها وتناوب الرجال الحراسة ليلاً ونهاراً. أصيبت بغداد بالشلل، وخيّم الرعب على الجميع، وأزيحت الأشجار والنباتات من حول البيوت كي لا تكون أماكن للاختفاء، وأضاف الناس المزيد من الإنارة في حدائقهم وتركوها مضاءة طوال الليل للأمان. لم يعد أحد يخرج من بيته بمفرده وخصوصاً في ساعات الليل. كان الجميع يعودون إلى بيوتهم حال انتهاء أعمالهم ويغلقون الأبواب بأقفال متينة. أما السلطة فأظهرت عجزها عن الإمساك بهذا المجرم، وأصبح القاتل حديث الناس، وأصيب الجميع بالهلع.

كانت جرائم أبي طبر تبدأ باتصال هاتفي غامض منه أو من أحد مساعديه، وكان يختار الوقت الذي تكون العائلة أو أفرادها لوحدهم، وقد يتحدث معهم بكلام فارغ ثم يهددهم ويشتمهم، ثم فجأة يسمع أهل البيت طرقاً على الباب وقد يفتح الضحية أو أحد الصغار الباب فيجد «أبا طبر» مقنعاً (أو أحياناً شخصاً معروفاً يرحب به) ثم يبدأ «أبو طبر» بتخدير أفراد العائلة ثم يعتدي على النساء، ويبدأ بتقطيع أوصال جميع الضحايا ويرميها في الغرف والممرات، وكان يكتب بدم الضحايا عبارات الانتقام والحقد، كان يقتل

الضحايا أحياناً ويدفنهم في أماكن بعيدة، هكذا سمعنا وهكذا تحدّث الناس.

كانت تلك الأيام حقبة مرعبة للجميع، أما أنا فتخيلته رجلاً مرعباً يحمل فأساً ويطارد الضحايا، وأصبحت بغداد كما في حالة إنذار قصوى، كانت السلطة تفتش البيوت والسيارات بشكل عشوائي وأحياناً تفرض منع التجول للسيطرة على المنطقة، والجميع يتحدثون عن هذه الجرائم.

كان هذا المجرم يقتل بحقد وانتقام، ولكنّه لم يكن لصاً يسرق وإن كان أحياناً يعبث بمحتويات البيوت بعد أن يقضي على الضحايا. كثرت الأحاديث بأنه قد يكون مجنوناً أو متخلفاً عقلياً، وكان التلفاز يقدم عدة برامج عنه ويقدم صوراً بملامح يعطيها البعض ممن يظن أنه رآه، وكانت التقارير تذكر أوصافه هل كان ملتحياً ؟ أو من دون ذلك؟ وأي الملابس يرتدي؟ كانت البرامج تعطي التعليمات عن الاتصال بشرطة النجدة وتقديم المعلومات حال رؤيته، كما خصصت الشرطة خطوطاً هاتفية وضعتها في خدمة المواطنين للإدلاء بأي معلومات حول ذلك. عموماً ارتعد جميع الناس من هذا الوحش وأخذوا كافة الاحتياطات لحماية أنفسهم، فلم يمشِ أحد بمفرده، ولم يخرج أحد بسيارته بمفرده، لذلك أصرّت والدتي في تلك الأمسية على أن لا تذهب خالتي بمفردها عندما غادرنا المستشفى.

كنتُ في تلك الليلة مع والديّ في سيارتنا، وكنّا في البداية نسير في الشوارع الفرعية وكنت أرى ظلال الأشجار الشامخة في الشوارع شبه المظلمة، وأتخّيل أن أبا طبر سوف يخرج من هناك

ويقطّعنا بفأسه. عندما وصلنا إلى الشارع الرئيسي بعيداً عن المستشفى حيث الإضاءة القوية والسيارات كثيرة شعرتُ أخيراً بارتياح كبير. كانت خالتي منى تتبعنا في بداية الطريق، وكنت أتابعها من مكاني في السيارة، ثم أسرعت هي وتجاوزتنا بعد أن سرنا نصف الطريق إلى البيت فوصلتْ هي الأول. حين وصلنا البيت حوالي الساعة الثامنة مساءً رأينا الفوضى قرب باب البيت فأصابنا الذعر والقلق، فربما كان قد حصل مكروه لخالتي أو شقيقتي. ثم رأينا خالتي منى وهي تتحدث بغضب مع رجل ما وكان هناك سيارة أجرة (تاكسي) تقف أمام دارنا. (كانت سيارات الأجرة عادةً بألوان تميّزها وتدل على أنها مجازة ولن تتقاضى أكثر من الأجرة المحددة). كان جيراننا خارج الدار وقد وقف بعض المارة أيضاً. هرع أبي وأمي من السيارة وهما قلقان أن يكون قد أصيب أحد بأذى.

صاحت أمي: زينة....منى هل أنتما بخير؟

قالت خالتي: عندما وصلنا وجدتُ سائق التاكسي هنا كما ترين أمام البيت، فطلبتُ من زينة وسارة أن تظلا داخل السيارة وذهبتُ إليه وسألته: ماذا تفعل هنا؟ فقال: أنا أنتظر رجل يدعى «حامد»، جاء ليأخذ الحاجّة إلى الطبيب وهو في الداخل.

كانت خالتي قد ذهبتْ إلى بيت جارنا السيد ناصر وأخبرته بأن رجلاً غريباً في البيت وطلبتْ منه أن يتصل بشرطة النجدة، وكانت الشرطة على وشك الوصول وأكملتْ قائلة: لننتظر هنا، لن ندخل البيت حتى تأتي الشرطة.

سار أبي نحو السائق وسأله: من أنت؟ وما اسمك؟ أجاب

الرجل متلعثماً: سيدي أنا لا أعرف شيء، أنا سائق التاكسي ثم أضاف متلعثماً : ركب رجل معي من منطقة الكرادة وأنا لا أعرفه. طلب مني أولاً أن أتوقف عند صيدلية ليشتري دواءً فانتظرته، ثم عاد وطلب مني أن أوصله إلى هذه الدار ودخل البيت من الباب الرئيسي وقال إن الحاجّة مريضة في الداخل ولقد مضت ساعة أو أكثر على ذلك. وأضاف أنا عليَّ أن أغادر، أرجوك يجب أن تجده ليعطيني أجرتي.

لم يجب أبي بشيء وانتظر مجيء الشرطة. ظل يفكّر بكل ذلك وكيف يمكن أن يكون؟ فالبيت محكم الإغلاق والجيران من الطبقة الراقية، ولم يسبق مثل هذا الحادث في مثل هذه المنطقة. عجباً هل كان سائق التاكسي صادقاً أم كان يكذب؟ لا أحد يدري ولكن الباب الخارجي كان مفتوحاً مما يدل على أن أحداً ما قد دخل. أغلب البيوت في العراق، كما أشرت سابقاً، لها باب خارجي وسياج وذلك للأمان وللعزلة عن الشارع، والباب الرئيسي يكون عادةً عالياً وبتصميم معيّن ومشبكات معدنية. كنا ونحن صغار نلعب داخل السياج ولا نخرج إلى الشارع كي لا نصاب بأذى.

انتظرنا في تلك الليلة في الشارع حتى مجيء الشرطة حيث قاموا باستجواب سائق السيارة وأخذوه إلى أقرب مركز للشرطة. أخبر جارنا - السيد ناصر- الشرطة أنه كان قد رأى رجلاً يراقب بيتنا عصراً في ذلك اليوم وأنه كان يتفحص الدار لمدة طويلة وكان يقف قرب الباب الخارجي ولكنّه لم يدخل. أثار سلوك الرجل الشكّ لدى السيد ناصر فخرج إليه وسأله عما يريد. جفل الرجل وأجاب: كلا. لا شيء... شكراً أظن أني أخطأت العنوان ثم

سار، ولكنه لم يذهب بعيداً حيث رآه جارنا يتحدث مع الحارس الموجود قرب بيتنا.

كان بجوار بيتنا بيتان صغيران، كان البيتان جديدين وكنّا قد عرضناهما للإيجار. كان أحدهما قرب إحدى حدائق بيتنا غير أنه منفصل عنها بسور. وكان لكل من البيتين مدخله الخاص وحديقة خلفية صغيرة، وكان يعيش قربهما هناك حارس اتفق والدي معه للحراسة لحين تأجيرهما وهو يعرض الدارين لمن يريد رؤيتهما.

كان الحارس طيباً ومحباً، وكان يعتني بالبيتين ويحترم والديّ، تحدثت الشرطة معه عن احتمال تسلل أحد الأشخاص إلى البيت وأنهم يحققون بذلك الأمر. أصاب الحارس الهلع لرؤية الشرطة وصاح : ماذا حصل؟ هل أصاب عائلة الأستاذ مكي أي مكروه؟ سألت الشرطة الحارس إنْ كان قد جاء من يرغب في رؤية البيتين في ذلك المساء.

قال الحارس : نعم! جاء رجل وقال إنه يريد استئجار أحد الدارين فأدخلته ليراهما، ومشيت معه ليرى جميع الغرف ولكنه أراد أن يبقى بمفرده فتركته وانصرفتْ لأهيئ الشاي، ثم انتبهت أنه تأخر كثيراً فذهبت أفتش عنه ولم أجده في الغرف بل وجدت باب سطح الدار مفتوحاً.

توجد في أغلب البيوت العراقية سطوح - كطابق آخر في البيت- تشابه الطارمات غير المسقفة في أعلى الدار، وهذه التصاميم شائعة في البيوت الشرقية عموماً وخاصة في العراق. ينام الناس على السطوح في فصل الصيف حيث تهبّ الأنسام الباردة في ليالي

الصيف، وهذا أفضل من النوم داخل الغرف، لكل من هذه السطوح أيضاً سياجاً عالياً وكأنها أماكن شبه منعزلة، كذلك أحياناً يضع الناس حبال الغسيل لتجفيف الملابس في الشمس، وهذه طريقة مألوفة أكثر من محلات التجفيف بالبخار والأجهزة المنشفة الكهربائية.

استرسل الحارس وقال: ثم وجدت الرجل فوق السطح في مواجهة منزل السيد مكي (كان السطح فعلاً يطل على الحديقة وكامل الجهة الغربية من البيت) وأضاف الحارس: وسألته ماذا تريد؟ ظننتك تنظر الى البيت والغرف! ولكنه لم يجب على سؤالي ونزل مسرعاً وخرج، صحت به ألم يعجبك أحد البيتين؟ لكنه كان قد غادر الدار واختفى في الشارع.

بعد ذلك دخلت الشرطة بيتنا وأمضت وقتاً طويلاً، فقد كان البيت كبيراً وهناك الكثير من أماكن الاختفاء في الحديقة والممرات والسطح، وقد تاه البعض من رجال الشرطة في مسالك الدار حيث الغرف متصلة مع بعضها بشكل دائري كما أن الجزء العلوي متصل بالبيت بواسطة ممر صغير، وكان الأمر محيراً لمن لم يدخل الدار من قبل، فكانوا يدخلون مكاناً ويغادرونه إلى آخر ليجدوا أنفسهم بعد دقائق في نفس المكان، لذلك سار أبي معهم ليوضِّح لهم الطريق.

بالطبع ظننّا جميعنا أن الرجل مختفٍ داخل البيت حيث كانت هناك غرف كثيرة ومخازن متداخلة. بقينا نحن ننتظر في مدخل البيت. كان الجو بارداً وكان علينا أن ننتظر للتأكد من أمان البيت وخلّوه من غريب. أما أنا، فكنت خائفة جداً وكنت أفكر أن أحداً قد اختبأ في الداخل وسوف يؤذينا جميعاً. بعد فترة بدت طويلة خرجت الشرطة

لتقول إنها لم تجد أحداً ولم يجدوا ذلك الرجل الذي اسمه حامد أو غيره. بقيت الشرطة معنا أكثر من ساعتين، وطلبوا منا أن نتفقد حاجياتنا لنتأكد من عدم وجود سرقة أو أضرار أخرى، فتشنا كثيراً وطبعاً كان البيت يبدو ضخماً في نظري كطفلة، كنت خائفة من الذهاب إلى أي مكان في البيت بمفردي، فتشنا ولم نجد أي شيء سُرق أو أي أضرار أخرى. أضاء أبي الأنوار في جميع غرف الدار كي نشعر بالأمان أكثر وبقيت الشرطة في حراستنا خارج الدار طوال الليل وغادرت عند الصباح الباكر.

كان صباح اليوم التالي هو الجمعة وهو الإجازة الأسبوعية - في معظم الدول العربية والإسلامية- لذا كنا نحب هذا اليوم حيث عطلتنا من المدرسة فنظل في فراش النوم صباحاً قدر ما نشاء، ونمرح كما نريد، ونشاهد بعض برامج التلفاز التي نحبها، وننسى المدرسة وعند المساء نسارع إلى تحضير الواجبات المدرسية ونهيئ حقائبنا ليوم السبت بداية أسبوع مدرسي جديد.

ومع أننا كنا مضطربين من أحداث الليلة السابقة فقد استيقظتْ والدتي باكراً لتهيئ لنا الفطور وتقوم ببعض الأعمال الاعتيادية. لم يكن لدينا خادمة في البيت في تلك الفترة، أمّا قبل ذلك فقد اعتدنا أن يكون عندنا خادمة أو مربية تسكن معنا دائماً في البيت. وفي الواقع لا أذكر هؤلاء العاملين في بيتنا (بحكم عمري الصغير حينئذٍ) إلا واحدة فأتذكّرها جيداً. كانت سيدة كبيرة السن اسمها «أم مصطفى»، كانت تحيطني بالحنان والحب وكنت أشعر بالقرب منها بالرغم من فارق السن الشاسع بيننا، ولكنها مرضت فجأة وذهبتْ إلى بيتها، ثم بعد أسبوعين جاء ولدها وأخبرنا بوفاتها.

كانت تلك أول مرة في حياتي أفقد فيها شخصاً أحبه وأهتم به، كانت هذه المرأة عطوفة وحنونة وكانت تقضي معي وقتاً طويلاً فتعلقتُ بها وحزنتُ كثيراً لموتها وبكيت بشدة، وبقيت حزينة لموتها فترة طويلة، فقد افتقدتها وكان موتها محزناً لكل العائلة أيضاً وقد كانت صدفة غريبة أن تزامنَ موتها مع بداية الأحداث السيئة التي حلّت بنا. على كلٍ لم يكن عندنا خادمة لعدة شهور، وفي هذه الفترة كانت والدتي تقوم بأعباء المنزل تساعدها أختي الكبرى زينة.

في ذلك الصباح نهضت والدتي كعادتها لتهيئة الإفطار، وكنا لا نزال نائمين، سمعتْ والدتي الباب الأمامي قرب المطبخ يُفتَح، ثم سمعتْ وقع خطوات فظنّت أن أحد إخوتي قد نهض وخرج إلى الحديقة صاحت: صباح الخير.. من هنا؟ هل هذا أنت يا عامر؟ لم تسمع جواباً، وتعجبت لماذا لم يرّد عليها، خرجتْ لترى من يكون فرأتْ صبياً يركض نحو الباب الخارجي.

تفاجئتْ أمي وصرختْ بالصبي ليتوقف غير أنه خرج راكضاً ولم تستطع أن تركض خلفه فقد كانت تعاني ألماً بركبتيها، والمسافة بين البابين كبيرة بعض الشيء، عادت مسرعة إلى الداخل ورأت أخويّ حيدر وسامر ينزلان من السلالم فأخبرتهما أن الصبي كان داخل المنزل وأنه قد هرب لتوه. أسرع أخوايَ إلى السيارة وانطلقا وراء الصبي، كانت هناك امرأة تسير في الشارع سألها أخي إن كانت قد رأت صبياً يغادر منزلنا، فقالت: نعم رأيته يركض وقد سار في ذلك الاتجاه، تتبعا الطريق غير أنهما فقدا كل أثر له، إذ ربما اختفى في إحدى الدور القريبة.

عاد أخوايَ دون أن يمسكا به، كان أبي قد اتصل بالشرطة وأخبرهم بما حصل وجاؤوا مرة أخرى وفتشوا ثانية وتأسفوا لأنهم لم يعثروا على الصبي في تلك الليلة، كان الأمر واضحاً، فقد قضى الصبي الليلة داخل البيت كانت آثار قدميه المبتلتين قد أشارت أنه قضى الليل في إحدى غرف الحمّام. (وكان هذا حمام شرقي على الطراز القديم حيث يتمّ تسخين الأرض وهناك خزان للماء الحار مثبت في الزاوية، لم نكن نستعمل هذا الحمام فهو نوع من الديكور) أما الغرفة نفسها، فكانت تستعمل للغسيل حيث فيها ماكينة الغسيل وملحقاتها. فكان الصبي مختفياً في خزان المياه شبه الفارغ لذا تبللت قدماه وملابسه قليلاً، بقي طوال الليل وهرب في الصباح. اعتذرت الشرطة مرة أخرى لأنهم لم يخطر لهم تفتيش ذلك الخزان الذي قد لا يتسع لرجل ولكنه يتسع لصبي صغير الحجم.

تحدث رجال الشرطة مع أبي وأخبروه أنهم ما زالوا يتحققون من كلام سائق التاكسي، وأنهم ذهبوا إلى الصيدلية التي ذكرها وأكّد لهم صاحب الصيدلية فعلاً مجيء ذلك الرجل وطلبه لنوع غريب من الأدوية (نوع من المخدر) وقد أخبره الصيدلي بعدم وجود تلك المادة وقد اتصل الرجل هاتفياً بشخص آخر وأخبره بذلك وكان الرجل حائراً.

كانت هذه الأحداث تثير الشكوك والاستغراب: محاولة التسلل إلى الدار، ثم الصيدلي والصبي، سيارة الأجرة ثم إضافة إلى ذلك استمرار الأحداث المرعبة في البلد مثل اختفاء عوائل أو ذبحهم بيد أبي طبر، كل ذلك زادنا خوفاً وإرهاقاً من التفكير في هذه الأمور. كان الكبار دوماً يتناقشون في ذلك فيما بينهم، أما نحن الأطفال فقد

كنا خائفين نتساءل من كان الرجل الذي حاول دخول بيتنا قبل يوم، ربما أراد أن يسممنا أو يضع المخدر في مياه الشرب، وربما كان هذا دور الصبي أو «حامد» الذي ذكره سائق التاكسي وربما حاول الدخول بمساعدة الصبي، وربما كانوا على علاقة مع بعضهم جميعاً. . . . ربما كانوا يعملون مع أبي طبر . . . . . لا أحد يدري. سيطرت علينا كل الأفكار السوداء غير أننا حمدنا الله سبحانه وتعالى وشكرناه لأنه لم يصب أحد منّا بأذى وحاولنا أن نقضي بقية اليوم بشكل اعتيادي.

كان اليوم التالي يوم السبت أي يوم الدوام الرسمي، ذهبنا جميعاً إلى مدارسنا وذهب والداي إلى عملهما. جاء أحد كبار البعثيين في مكتب أبي واسمه أمجد جباري، هاجم أبي صائحاً بغضب: أستاذ مكي لقد أوقفتَ (التوقيف عند الشرطة) سائق التاكسي ذلك الرجل المسكين؟ كيف لك أن تفعل ذلك؟

أجاب والدي: «نعم؟ ماذا تقصد بالضبط؟ . . . وما شأنك به؟».

قال جباري: «السائق الذي أوقفته الخميس مساءً . . . . . ألا تدري من نحن؟ هذا الرجل من أهلنا في بعقوبة (مدينة صغيرة شمال بغداد) يجب أن تتنازل عن الشكوى ضده».

تسارعت الأفكار في رأس أبي، وعاد يسأله: «وما علاقتك بالحادث يا أستاذ أمجد؟ وكيف عرفت بالموضوع وما حصل كان قبل الأمس فقط؟ كانت محاولة اقتحام مسكني وقد تولت الشرطة القضية، هل تعرف شيئاً عن الموضوع؟ أرجوك أخبرني بالأمر فالشرطة لم تتوصل إلى أي نتيجة». لم يجب السيد جباري وغادر المكان.

كان مثل ذلك الأمر يحصل في السنوات الأولى لحزب البعث وتسلطه على الحكم، ومع أنه كان بإمكانهم إطلاق سراح الرجل وعرقلة القانون غير أن شرورهم لم تكن كلها ظاهرة علناً بعد في ذلك الحين. ففي السنوات الأولى حاول البعثيون تغطية جرائمهم وفسادهم وتدخلهم في الشؤون الاعتيادية للدولة. مثلاً حادثة بيتنا هذه كانت بأيدي الشرطة المحلية التابعة لمديرية الشرطة، ولم يكن البعث قد سيطر عليها سيطرة تامة في ذلك الحين. ربما لم تتمّ العملية المخطط لها كما أرادوا فحاولوا التخلص من ذلك المأزق.

رجع والدي إلى البيت وأخبر أمي حول الموضوع وبدأنا نقلق أكثر حول ما يجري من أحداث: لم نكن ندري إن كان سائق التاكسي أحد أقرباء أمجد جباري أم إنه فقط على معرفة به، كانت الشكوك كثيرة خاصة بوجود القاتل أبي طبر وجرائمه التي تحصل بين حين وآخر. فالشكوى عند من؟ هل يمكن أن نثق بشرطة المنطقة؟ ثارت شكوكنا حول الشرطة بعد أن فشلوا في العثور على الصبي الذي اختبأ في بيتنا، ربما رأوه وتركوه هناك لأمر ما، كان الأمر محيِّراً للجميع.

كان لزوج خالتي العم سعدي صلات وارتباطات مع موظفي الدولة ورجال السلطة، فحاول جاهداً معرفة ما وراء الأحداث. كان العم سعدي رجلاً طيباً ومتمسكاً بقيمه ومثله، وكان الجميع يحبه كما كان هو يحبنا، كان نشطاً وظريفاً، يأخذ زمام الأمور ويحّل المشكلات العائلية، ويساعد جميع الأهل والأقارب. كان يشغل منصباً عسكرياً في الدولة من قبل وعندما علم بالحادث أراد أن يساعدنا عن طريق معارفه فتحدث مع شخصية بعثية مرموقة حردان

التكريتي الذي كان على علاقة بشرطة بغداد - وآخرون أيضاً ـ، قال حردان لعمّي سعدي يجب على والديْ أن يتنازل عن الشكوى وينسى الموضوع، كما أضاف أن الرجل الموقوف قد أطلق سراحه. لم يتمكن العم سعدي من معرفة أي تفاصيل أخرى وحزن لأنه لم يستطع مساعدتنا في هذه القضية، ولم يكن تدخله مجدياً خاصة وأنه كان يحب أن يساعد الأهل ويحلّ جميع المشكلات. أخبر والدي بما قاله المسؤول الحزبي، دهش والدي لذلك فالقضية واضحة ولكن ثَمَّة من يريد تغطيتها وإخفائها.

قال العم سعدي لأمي وأبي: «لا فائدة من المضي في الشكوى، حيث لم تحدث أي أضرار أو سرقة وأرجوكما ألا تسألاني المزيد حول هذا الأمر». غضبت والدتي وصاحت: «ماذا تعني يا سعدي؟» قال: «صدقيني ليس بمقدوري شيء آخر، حتى أنا لم أحصل على تفاصيل أكثر».

قالت أمي: «قل لي بصراحة، ماذا قالوا لك؟ هل يريدون قتلنا؟ وما الذي تعرفه ولا تريد أن تقوله ؟».

غضب زوج خالتي وقال: «أنتِ تعرفين جيداً أني مستعد لأي شيء من أجلكم ولكن الأمر فوق إرادتي. أنت تعرفين جيداً أني على استعداد أن أموت قبل أن يصيبكم أي أذى، إن ما أقوله لك هو الحقيقة، ليس بيدي أي شيء وليس لدي ما أضيفه، هذه القضية أكبر منّا جميعاً.

ثم التفت إلى والدي وقال: «أنت تعلم قصدي، عليك أن تتنازل عن الدعوى وتنسى كل شيء من أجل سلامة الجميع ما دام

أحد لم يصب بأذى ولم يُسرق شيء من البيت، إذا أصررت على الشكوى ستخلق مشكلات أكبر».

بعد جدل طويل وافق أبي على سحب الشكوى حيث لم يعد هناك أي فائدة في المطالبة بالتحقيق، حزن والداي وأصيبا بخيبة أمل مع أنه كان لعمّي سعدي صلات قوية في الحكومة غير أنه لم يستطع مساعدتنا، وهكذا مرّت الأسابيع والأشهر.

* * * * *

قضت خالتي ناجية وقتاً طويلاً في المستشفى، تعافت خلالها ثم عادت إلى البيت باحتفال كبير. كان العم سعدي فرحاً جداً لعودتها سالمة، ومع دخولها الدار كان قد هيأ مبالغ من النقود الورقية (من فئات دينار ونصف دينار وربع دينار وخمس وعشر دنانير) وأخذ ينثرها فوق رأسها عند دخولها البيت. كان للدينار آنذاك قيمة كبيرة حيث كان يعادل 3.30 دولاراً، كانت هذه المبالغ كثيرة - بالنسبة لنا الأطفال- تسابقنا لنجمع ما نستطيع من الأوراق النقدية المرمية على الأرض. وكان هناك فرقة للغناء (كما هو DJ في حفلات الغرب) تقوم الفرقة عادة بالهتاف وإعلان النبأ السار بعودة خالتي إلى البيت كما تقوم الفرقة بالغناء بما يناسب الحدث، كان أولاد خالتي يوزعون الحلوى والشوكولاته. كانت كل هذه المباهج تُقام - في العراق- في المناسبات السعيدة عادة مثلاً عند سلامة شخص مريض أو حفلات الزواج أو التخرج من جامعة. كنا جميعاً فرحين لرجوع خالتي الى البيت- وإن لم تكن قد شُفيت تماماً - وأخذنا بالتهليل عندما خطت بعض خطوات داخل بيتها وقدمنا لها الهدايا فرحاً بعودتها إلى بيتها. ولكن كان عليها أن تبدأ علاج المساج والتدليك بسبب القرحة

السريرية التي حصلت نتيجة بقائها مدة طويلة مستلقية على ظهرها، فكانت الممرضة تزورها بين يوم وآخر للمعالجة.

بدأت أمي الذهاب عند خالتي في بيتها من حين لآخر وتمكث هناك عند مجيء الممرضة لتراقب أي تقصير في رعايتها لخالتي. لشّد ما كانت أمي حنونة مهتمة لشأن أختها المريضة، وكانت خالتي تفرح كثيراً بزيارتها. في صباح أحد أيام الجمعة، كانت أمي تستعد للذهاب لبيت خالتي، كان ذلك الصباح جميلاً ومشمساً لكنه بارد. كان أبي وأخي عامر يسيران في الممر الخارجي حول البيت يشاهدان الأشجار والنباتات التي قد زُرعت مؤخراً. كانا فرحين ومعجبين بتلك الأشجار والأزهار المتنوعة، يقفان عند كل شجرة أو نبتة ليسقيانها بالماء. وكان يمكن - لمن في داخل البيت في هذه الممرات - رؤية المارة في الشارع من دون أن يتمكن المارة مِنْ رؤية مَنْ في الداخل بسبب الزرع والأشجار. سمع أبي وأخي صوت الباب الخارجي يُفتح وتعجبا حيث لم نتوقع زيارة أحد في ذلك الصباح - وعادة لا يفتح الزائرون الباب الخارجي بل ينتظرون أهل البيت-، ثم رأيا رجلاً يفتح الباب الذي لم يكن عادة مقفلاً أثناء النهار، ويمكن فتحه يدوياً بسهولة، دخل الرجل ومشى عدة خطوات في الطارمة وكان يتلفت حوله وينظر خلال الشباك.

صاح به والدي: «من أنت وماذا تريد؟».

التفت الرجل ورأى أبي وأخي فجفل وركض خارجاً عبر الباب الذي فتحه وهرب. في تلك اللحظة كان أخي يستعد لتوصيل والدتي إلى بيت خالتي فطلب منه والدي بسرعة أن يلحق بالرجل الذي خرج

لتوّه من الباب الآخر، ثم اتصل أبي بالشرطة وأخبرهم بالحادث. خرجت عدة سيارات شرطة للتفتيش عن الرجل في المنطقة، وسارت السيارات في عدة اتجاهات. يوجد شارعان رئيسان في منطقتنا يتقاطعان كما حرف T، وهناك شوارع فرعية عديدة تربطهما من الجوانب. تمكنت الشرطة من الإمساك بالرجل حيث شخصّاه أبي وأخي في مركز الشرطة حيث وقف المتهم في صفٍ بين عدة رجال موقوفين في المركز وتمت معرفته من بينهم. بقي الرجل في مركز الشرطة للتحقيق، وكان هو نفس الشخص الذي كان قد وصفه سابقاً حارس البيتين وجارنا السيد ناصر أثناء الأحداث السابقة. وأخيراً تمّ القبض على «حامد» - الذي ذكر سائق التاكسي اسمه من قبل. رفض «حامد» أن يتكلم وبقي في التوقيف. قضينا ذلك اليوم بقلق كبير بسبب هذا الرجل الذي حاول التسلل إلى بيتنا في وضح النهار.

في اليوم التالي وفي مكتب أبي كان أمجد جباري ثائراً وغاضباً، ودخل المكتب مع بعض البعثيين المسلحين وقال لأبي مهدداً: «أستاذ مكي .... ألا تفهم ما قلت لك؟ لقد أوقفتَ أحد رجالنا مرة ثانية، هل تعلم ذلك؟ يجب أن تطلق سراحه وأنا أحذرك، عليك أن تسحب الشكوى وكل الاتهامات لقد سبق وأن حذرتك من قبل».

غضب أبي ولم يستطع السكوت قال: «وماذا تقصد؟ ؟ وما دخلك بذلك؟ هل تعرف هؤلاء اللصوص؟ إن هذه القضية بيد الشرطة وفق القانون ... ما تبقى منه في البلد ..... لقد أُفرج سابقاً عن سائق التاكسي بسبب تدخلك... قل لي من هذا الرجل الذي تريد حمايته؟».

صاح جباري: «أستاذ مكي، أنت ضد الحزب والثورة، قلت لك يجب عليك أن تسحب الشكوى أو ستدفع الثمن غالياً».

خرج جباري وعصابته من مكتب أبي، وفي نفس الوقت كانت الشرطة قد أطلقت سراح «حامد» الموقوف عندها. كانت الأوامر تأتي من الجهات العليا ولا يستطيع مدير الشرطة مخالفتها، حتى ذلك المدير تعجب للتجاوزات التي تحصل ومخالفة القوانين.

بعد هذه الأحداث أخذنا مزيداً من الحذر، أصبحنا نقفل الأبواب الخارجية حتى أثناء النهار، اتخذنا الاحتياطات لكي لا يدخل علينا أحد، كما أخبرنا الجيران بما حصل فكان هؤلاء أيضاً يراقبون البيت معنا.

مرت عدة أيام بهدوء، وفي أحد الأيام كان أخي عامر عائداً من المدرسة، في طريقه الى البيت عبر الشارع الرئيسي ثم الفرعي المؤدي إلى دارنا. كان عامر يدخل عادةً من باب الضيوف ثم يستدير ويمشي حول البيت إلى المدخل الرئيسي أي الذي نستعمله يومياً - في العراق لبعض البيوت أكثر من باب خارجي واحد إما لأن البيت واسعاً جداً، أو لأنه تقسّم إلى أقسام - كان لبيتنا ثلاثة مداخل نستعمل أحدها يومياً والآخر للضيوف، والثالث يستعمل في حالات خاصة، ولأن البيت كبير كانت المداخل الثلاثة بعيدة عن بعضها، وفي الأيام الاعتيادية نغلق الأبواب الخارجية غير أننا لا نستعمل الأقفال خلال النهار أما في الليل فكان والدي يقفل هذه الأبواب ثم يفتحها في الصباح.

في ذلك اليوم وبينما كان عامر عائداً إلى البيت، رأى امرأة

تضرب الجرس في مدخل باب الضيوف ثم تفتحه وتدخل، وظنّ بأنها ضيفة عندنا أو صديقة لأمي، فدخل هو من الباب الآخر الذي نستعمله يومياً فوجد والدتي في المطبخ وبملابس البيت فسلم عليها وسأل عن حالها.

أجابت: «مرحباً عامر، أنا بخير، تهيأ للغداء».

فقال: «أليس عندكِ ضيوف؟ لماذا أنتِ بملابس البيت؟».

أجابته: «لا ضيوف عندنا اليوم».

قال أخي: «ولكني رأيت امرأة تدخل إلى البيت وظننتها جاءت لزيارتك!

ذهبت أمي مع عامر لترى إن كانت المرأة لا تزال تنتظر لكنهما لم يجداها وكان الباب مفتوحاً. تعجبّا من تكون وظنّا أنها قد تعود بعد قليل غير أنها لم تعد.

بعد أيام قليلة وحين كانت أختي زينة عائدة مشياً من محل قريب، رأت سيارة أجرة تقف أمام باب منزلنا - بوابة الضيوف- وتنزل منها امرأة تضرب الجرس وتدخل، ظنّت زينة أنها ضيفة، مشت زينة لتدخل من الباب الاعتيادي غير أنها وجدت تلك المرأة تغادر بيتنا من ذلك الباب، تعجبت زينة لماذا غادرت المرأة بهذه السرعة ورجحت أنها-المرأة- جاءت فقط لتأخذ شيئاً ما من والدتي أو للسلام للحظات فقط ما دامت مارّة قريبة من البيت - بالطبع الطريق خارج البيت أي الشارع حول البيت هو أطول من الممر داخله لذا خرجت المرأة قبل أن تصل زينة إلى الباب.

جاءت زينة مسرعة وسألت والدتي عن ضيفتها لكنها وجدت أمي مستلقية على الأريكة وبملابس البيت، ولم تكن مستعدة لمقابلة ضيوف، قالت زينة: «من هي الضيفة التي دخلت بيتنا وخرجت بسرعة؟» قامت والدتي جالسة وسألتها: «أي امرأة رأيتِ؟» أخبرتها زينة بما رأت. أصابنا الذعر مرة أخرى وجاء والدي وحدّثته زينة عن المرأة التي رأتها. قالت والدتي: «إنها المرة الثانية التي يحصل ذلك، تدخل امرأة من باب وتخرج من الآخر دون أن نعلم من عساها تكون؟ ربما جرس الباب معطل، أرجوك أن تتفحصه».

تفحص أبي جرس الدار ووجده يعمل بشكل طبيعي ولو كانت المرأة قد ضربت الجرس فعلاً لكنا سمعنا صوته، يبدو أنها كانت تتظاهر بأنها تضرب الجرس، ثم تدخل البيت لكي لا تثير الشكوك في الشارع عند المارة مثلاً. لم يرغب والدي بإخبار الشرطة، وخشي أن تكون هذه مصيدة أخرى هُيئت لنا. وبعد أيام قليلة كان عامر راجعاً إلى البيت، وعند اقترابه من الشارع المؤدي إلى بيتنا في نهاية الشارع وجد المرأة نفسها تغادر البيت وتمشي مبتعدة، سار خلفها ووجدها تركب سيارة أجرة. حاول تتبعها غير أنه فقد أثرها في الشارع المزدحم، عاد وأخبرنا بما رأى وكيف أن تلك المرأة دخلت بيتنا وخرجت منه مرة أخرى من دون علمنا.

وفي صباح أحد الأيام كانت أمي وزينة لوحدهما في البيت، وكانت زينة تساعد أمي في ترتيب غرفة الضيوف، كانت الشبابيك مفتوحة وكذلك الستائر بسبب التنظيف والترتيب ويمكن مشاهدة الشارع عبر النافذة حيث الستائر مفتوحة. توقفت سيارة أجرة أمام بيتنا ونزلت امرأة تظاهرت أنها تضرب جرس البيت، عندما رأت زينة ذلك

أسرعت لتخبر والدتي، خرجت أمي مسرعة ووقفت أمام المرأة وأمسكت بها، أما زينة فوقفت خائفة وراء الباب.

كانت المرأة تضع نظارات شمسية، طلبت منها والدتي أن تخلع النظارات، كانت سمراء اللون وبدت في أواخر العشرينات من عمرها. صاحت بها والدتي: «من أنت؟ ولماذا تدخلين بيتنا وتغادرين من الباب الآخر؟ من أين والى أين يأخذك سائق التاكسي؟ تكلمي حالاً وإلا سوف أفضحك في الشارع».

بدأت المرأة تبكي وتتوسل وتطلب من والدتي أن تتركها لتغادر المكان. قالت أمي: «أخبريني ما الذي يجيء بك الى هنا؟» أجابت إنها تأتي إلى المنطقة لرؤية زوجها السابق لأنها لا تزال تحبه، وقد أجبرت على تركه بسبب المشكلات بين أهلها وأهله فكانت تأتي من دون علم أهلها. كانت قصتها هذه غريبة سألتها أمي عن اسمها وعن عنوانها فأعطت اسماً وعنواناً ما. سألتها أمي لماذا لا تذهب مباشرة إلى زوجها فأخذت تبكي وتتوسل. كانت أمي شفوقة ورقيقة فتركتها تذهب لحالها وحذرتها من أن تأتي قرب بيتنا مرة أخرى.

أتعبتنا هذه الحوادث المتتالية وانشغلنا لعدة أسابيع ولم نجد حلاً لذلك اللغز: من كانت تلك المرأة؟ كيف لفّقت تلك القصة؟ من هو حامد؟ لماذا حاول التسلل إلى بيتنا؟ من كان الصبي؟ وكيف دخل إلى البيت من دون أن يكسر الباب أو الشباك؟ وما هو المخدر الذي أراد حامد شراءه من الصيدلية؟ هل كانوا يريدون تسميمنا ووضع تلك المادة في طعامنا أو الماء الذي نشربه؟ أي مؤامرة كانت تُحاك ضدنا؟ هل كانت الشرطة صادقة في تحقيقها؟ لماذا لا نجد إجابة

على كل هذه الأسئلة؟ لا ندري ولا أحد يدري ولا أحد يتكلم. لا شك أن تلك الحوادث مرتبطة بحكومة البعث، فمن يجرؤ على كل ذلك غيرهم. كان من الواضح أنهم يدبرون مكيدة لنا أو يريدون الإساءة إلى سمعتنا. أحس أبي أن البعثيين في عمله يكيدون له ويحاولون الإيقاع به، غير أن مؤامراتهم حتى ذلك الحين باءت بالفشل، فنحن لم نزل بخير ولم نُصَب بأذى، ولكن علينا أن نكون حذرين ومتيقظين من أبي طبر ومحاولات التسلل إلى بيتنا وعلاقة بعض البعثيين بذلك. لم يمكن أبداً الاعتماد على التحقيق والقوانين القضائية لمساعدتنا، بل بالعكس عمل البعثيون على إخفاء تلك الحوادث وغلق التحقيق فيها.

بعد أيام عديدة جاء رجل وزوجته لاستئجار أحد البيتين الصغيرين، كان لهما ولدان وبدا لنا أنهم أناس طيبون. ذكر الرجل أنه معلم وقالت زوجته إنها ممرضة. تمّ الاتفاق معهما على الاستئجار وبسرعة استلم الزوجان البيت وتمّ تهيئة عقد الإيجار في أحد مكاتب العقارات شبه الرسمية، يكون العقد عادة قانونياً بإمضاء الطرفين وبشهادة مكتب التأجير أو ما يعرف بالدلال - ويختلف ذلك عن إجراءات الاستئجار في الغرب- وهكذا اتفق والداي مع العائلة على مقدار الإيجار الشهري، وتمّ تصديق سند الإيجار في دائرة كاتب العدل. وعموماً فإن قوانين الإيجار في العراق تحمي المستأجر بشكل كامل، فله كامل الحقوق ضد صاحب الملك، ويصعب للمالك أن يطلب من المستأجر مغادرة المنزل بعد انتهاء مدة العقد السنوي لأن المستأجر لا يملك داراً .

على كل حال بعد أيام قليلة علمنا عن طريق بعض الأصدقاء أن

المستأجر الجديد واسمه «خالص» كان مسؤولاً حزبياً في المنطقة، وأنه من «شرطة الأمن»، ففي كل منطقة في العراق يوجد مسؤول من «الأمن» لمراقبة المنطقة ونشاطات الأهالي: من يزورهم وأين يذهبون وعمَّ يتحدثون ورفع التقارير عن كل ذلك إلى الحزب. كان ذلك صدمة قاسية عندما علمنا أن هذا المستأجر كان كاذباً حول حقيقة عمله، ومع أنه كان معلماً فعلاً إلا أنه أخفى مركزه الحزبي ولم يكن بإمكاننا إخراجه من الدار خوفاً من ذلك، فلم نستطع أن نقول إنه يكذب علينا وإنه يعمل في الأمن، إضافة إلى ذلك كان قانون الإيجار بجانبه. وقد باءت جميع محاولات الإخلاء ـ وهي إجراءات معقدة ومطوّلة ـ باءت بالفشل، فكانت معركة خاسرة استمرت شهوراً طويلة حيث بقي بالدار بالرغم من انتهاء مدة العقد سواء رضينا أم أبينا، وعلى كلٍ حاولنا قدر الإمكان أن نتحاشاهم كي لا تحصل مشاكل أخرى.

* * * * *

في إحدى الليالي رنَّ جرس الباب - وفي العراق كما نعلم- يأتي الزوار عادةً متى يشاؤون ويجب استقبالهم من الباب الخاص بالضيوف - ذهب عامر ليرى من في الباب وقبل ذلك فتح الشباك ليتأكد من يكون الزائر. كان هذا من باب الحذر حيث لم نعد نفتح الباب إلا بعد التأكد من معرفة الضيف بسبب كل الأحداث (وكما أشرت يأتي الضيوف من دون موعد وهذه التقاليد تختلف عن تقاليد الغرب حيث يتم تحديد موعد للزيارة) وكما ذكرت سابقاً أيضاً فللضيوف غرفة استقبال خاصة تكون دائماً جاهزة لاستقبالهم متى ما جاؤوا وليس من اللائق أن يقول أحد إنه مشغول ولا يمكنه استقبال الضيف.

في تلك الليلة فتح عامر الشباك وسأل من الطارق فلم يسمع

جواباً، فسأل مرة ثانية ولم يسمع جواباً أيضاً، ثم سمع صوتاً قرب النافذة وفجأة رشقه شيء بارد في وجهه! ابتعد عامر عن النافذة وأخذ يصرخ: أبو طبر ... أبو طبر... ساعدوني... تعالوا... وفيما هو يركض ابتعاداً سقط على الأرض. في تلك الأيام كنا جميعاً في حالة قلق واستنفار وظننا طبعاً أن الرجل نفسه الذي حاول دخول منزلنا قبل عدة أسابيع قد عاد. استمر عامر يصرخ ظناً منه أن بعض السموم رُشِقتْ في وجهه وعندما سمعتْ أمي صراخه ورأته مرمياً على الأرض وهو يصرخ أصابها الهلع.

بقي جرس الدار يضرب، ارتعبت والدتي وهرعت إلى الهاتف تطلب مساعدة العم سعدي وقالت له أرجوك سعدي تعال حالاً، لم يفهم العم سعدي ما الذي حصل لكنه عرف صوت والدتي وفهم الموقف وأنها كانت تطلب المساعدة، فهرع إلى سيارته وجاء مسرعاً. كان بيته على بعد مسافة قريبة من بيتنا. عندما وصل نزل من سيارته وأخذ يطلق الرصاص من سلاحه. كان يسكن قرب بيتنا أحد المسؤولين الكبار في حزب البعث وعلى بعد أربعة أو خمسة بيوت عنا، ويحيط بداره العديد من رجال الحماية والحرس الشخصي فعندما سمعوا صوت الرصاص هرعوا إلى بيتنا وقد هيّؤوا هم أيضاً أسلحتهم للرمي .

كان أبي هو الشخص الوحيد الذي بقي هادئاً ومتماسكاً في ذلك الموقف وكأنه يحاول تهدئة العم سعدي الذي كان يدور حول البيت مع الحرس الذين جاؤوا من بيت المسؤول، قال أبي: انتظر يا سعدي ليس هناك من مشكلة... كل شيء بخير إن ابني سامر هو الطارق.

في وسط تلك الضجة انتبه أبي الى سامر يصيح : أنا سامر افتحوا لي الباب ... توقفوا عن الصراخ ... أنا سامر ففتح أبي الباب ودخل سامر.

كان أخي سامر يمزح مع عامر بتلك الطريقة التي أخافته. فدخل عبر الباب الخارجي حيث يوجد طارمة وحديقة صغيرة ورشق الماء في وجه عامر عندما فتح الشباك وهذا ما جعل عامر يصرخ ويعتقد أن شيئاً ساماً أُلقيَ في وجهه. غضبت والدتي كثيراً مما فعله سامر وأنّبته على فعلته، أما هو فاعتذر كثيراً لأنه سبّب لنا الرعب والفوضى. جلس أخي هادئاً بعد أن اتضح أن سامر ألقى الماء عليه وليس السموم كما ظنَّ ذلك وأنه لم يُصب بأذى. كان الأمر كله مزحة طفولية سخيفة اعتذر منها سامر عدة مرات وجلسنا نضحك أحياناً ونلومه على ذلك أحياناً.

استمر الخوف من أبي طبر لعدة أشهر كان الناس فيها مرتعبون ويتوقعون أنه يريد تصيّدهم لقتلهم.

الفصل الثالث

اختفاء والدي[1]

---

(1) كما عرّبته المترجمة مشكورة، تغير اسم هذا الفصل عن اللغة الإنكليزية «اعتقال والدي» حيث لم يكن اعتقالاً لأنه أخذ من الدائرة من دون أمر توقيف رسمي.

بعد ذلك الحادث المروّع الذي حصل لخالتي والأحداث المذكورة، أخذنا أبي في فصل الصيف إلى بيروت. كانت تلك المرة الأولى التي أسافر فيها بالطائرة. أثارت تلك الرحلة الجوية -الأولى في حياتي- مشاعر الفرح والترقب فقد كنا سافرنا قبل تلك الرحلة سفرات كثيرة إلى مصايف الشمال -أي شمال العراق- ولكن كانت سفراتنا كلها بالطريق البري أي السيارة، أما الآن فهذه سفرة جوية ممتعة. في بيروت اشترينا الكثير من الملابس الجميلة والشوكولاته الطيبة، وزرنا أماكن مدهشة، أذكر منها شارع الحمراء بمحلاته المضيئة ودور السينما ومطاعمه الراقية إنه يشبه الشانزليزيه في باريس. كان مثيراً للغاية بمكتباته ومخازنه ومزدحماً ومدهشاً أكثر من شوارع بغداد الرئيسية. كما زرنا الموقع السياحي المدهش: مغارة جعيتا، تلك المغارة بأشكالها الكلسية البديعة (الستالكتايت والستالكمايت) ونهرها الهادئ في جوف الجبل والبرودة المحببة في فصل الصيف، وكانت المغارة رطبة ومعتمة بإضاءة خافتة على طول الممر المائي. كان منظراً طبيعياً رائعاً وبالأخص لطفلة بعمري آنذاك، فكان وكأنه

مكان سحري. وعموماً كانت رحلتنا إلى لبنان بديعة، وقضينا هناك أسبوعين ورأيت البحر الأبيض المتوسط لأول مرة وسبحت فيه أيضاً.

كنا في عصر أحد أيام تلك السفرة جالسين في أحد مقاهي جبل لبنان المطلة على بيروت، وكانت الشمس لطيفة والنسيم عليلاً. كان منظر المدينة جميلاً حقاً غير أني كنت متوعكة بسبب الدوار والغثيان الذي أصابني في رحلتنا الجبلية عبر طريق متعرج نحو القمة. عند وصولنا المقهى كنت متعبة ووضعت رأسي في حضن أمي، كنت شاحبة ولا أستطيع الوقوف ومنزعجة من رائحة الطعام، ولكن بعد دقائق شعرت بتحسن واعتدلت بجلستي.

أثناء ذلك كانت هناك امرأة تنظر إلينا وتديم النظر بشيء من الفضول وخاصة أنها كانت تنظر إليّ وتبتسم بين الحين والآخر، ثم فجأة قامت واتجهت نحو مائدتنا وعرّفت عن نفسها. كانت المرأة جميلة وجذابة وأنيقة بملابسها وسرعان ما أبدت إعجابها بي- وربما أنها تظاهرت بذلك - مدعية أني أشبه ابنتها التي تعيش في بيت مدرسي (السكن الداخلي) بسويسرا. ادعت أن اسمها «سمر» وأنها ممثلة. فرح والدي كثيراً بإعجابها بي وبالطبع فهما أيضاً يرياني جميلة. استمرت هذه المرأة تردد «ما أجمل ابنتكم. . ». كانت تتحدث العربية بلهجة مصرية. فرحنا أنا وأختاي لأننا التقينا بممثلة سينمائية، كنا ننظر إليها ونحن معجبات بها وبمكياجها وملابسها الأنيقة ولكن لم نعرف من هي من بين الممثلات.

تناولنا عشاءنا معها في تلك الأمسية وتحدثنا بأمور شتى، واستمرت تُظهر إعجابها بنا، ثم قالت: «أنا قادمة إلى بغداد قريباً

وأرغب في زيارتكم» وطبعاً كان من اللياقة أن يرحّب بها والداي فيما لو جاءت إلى بغداد. فكتب لها أبي العنوان ورقم الهاتف. غادرنا المقهى ونحن مندهشون لتلك الصدفة الجميلة التي جمعتنا مع ممثلة، فلم يسبق لأي منا أن تعرّف عليها في فيلم سينمائي أو في مسرحية، وظننا أنها ربما كانت ممثلة جديدة وقد نراها في أفلام المستقبل. عدنا إلى الفندق وبعد أيام عدنا إلى بغداد ونحن نحمل أجمل الذكريات عن بيروت.

بعد رجوعنا بأسابيع، اتصلت «سمر» وقالت إنها في بغداد وتريد زيارتنا حالاً، لم نستغرب إصرارها على الزيارة حيث تقاليدنا العراقية والعربية هي الترحيب بالضيوف متى ما جاؤوا، وها هي قد اتصلت هاتفياً لتعلمنا بزيارتها لنا (وهذا نادراً ما يحصل أن يتصل الضيوف قبل الزيارة).

كان أخي حيدر متديناً لا يحب الأفلام السينمائية ولا مشاهير النجوم. عندما سمع والديّ يتحدثان عن زيارة الممثلة لبيتنا غضب وأثار عاصفة من الاحتجاج، فلم تعجبه قصة تلك المرأة منذ البداية وقال لأمي: لا يمكن أن تسمحي لهذه المرأة أن تأتي عندنا في البيت فماذا تعرفين عنها؟».

أجابت والدتي: «اهدأ يا حيدر، ستأتي لساعة أو أقل ثم تغادر، إنها ضيفتنا ويجب أن نرحّب بها».

قال حيدر: «أنتما تعرفتما بها صدفة ولا تدريان من تكون هي، أنا لن أسمح لها بدخول بيتنا، أنتِ تعلمين أني لا أحب الممثلات وسلوكهن المعروف، سأقف في الباب وأمنعها من الدخول».

قال أبي: «دعك يا حيدر، ليس من الضروري أن تراها أنت ولم يجبرك أحد على استقبالها، سنجلس معها قليلاً ثم ستغادر البيت».

أصّر حيدر على موقفه وأنه لن يسمح لها بالدخول إلى بيتنا وظلّ يلحّ أنها ربما تكون ممن يتعاطين الخمور أو المخدرات أو قد تكون جاسوسة ونحن لا نعرف عنها أي شيء، لذلك لا يمكن لمثلها أن تزورنا وتدخل بيتنا.

كان ما قاله أخي يبين طبيعة مجتمعنا المحافظ على التقاليد الرافض للممثلات - آنذاك. فلم يكن أمراً مقبولاً أو محبباً أو مفخرة أن تعمل المرأة ممثلة كما هو في الغرب، بل بالعكس فهو يدلّ على أن المرء لم ينجح في حياته الدراسية أو العلمية ولا خبرة لديه في العمل إضافة إلى ذلك فإن «النجومية» كانت عملاً مشبوهاً ومرتبطاً، نوعاً ما عند عامة الناس، بالانحلال الخلقي والتسيّب (وقد يكون ذلك صحيحاً في بعض الحالات غير أنه لا ينطبق على الجميع). وفي الواقع بعد مجيء البعث إلى السلطة أعطت الحكومة بعض الاهتمام لمهنة التمثيل فأنشأت معاهد للتمثيل والمسرح فتحسنت سمعة المهنة قليلاً غير أنها بقيت مرفوضة بصورة عامة.

استسلم والداي لمراد أخي واتصلت والدتي بـ «سمر» وأخبرتْها أن الظروف غير ملائمة لاستقبالها في البيت وأننا سوف نزورها في الفندق ونأخذها معنا في جولة لرؤية معالم المدينة. وافقت سمر على ذلك وهكذا ذهبنا إلى الفندق الذي نزلت فيه وهو من الفنادق الراقية في شارع السعدون. كان فندقاً فخماً بديكور جميل وسجاد نظيف ونوافذ مطلة على الشارع، وكان كادر الفندق بملابس أنيقة وبكامل

الاستعداد للخدمة. سألنا عن سمر فأخبرنا أحدهم أنها هناك قرب «البار» في انتظارنا. ذهبنا إلى حيث كانت وبخلاف صالة الانتظار، كان البار في زاوية منعزلة وبإضاءة خافتة فلم تعجبنا تلك الأجواء ولم نرغب أن نكون هناك فالمكان لم يكن يلائم وجودنا كصغار. وكانت سمر برفقة عدد من الرجال بملابس عربية (العقال والعباءة) وبدا وكأنهم يحتسون الخمر وكانوا يتحدثون العربية بلهجة غير عراقية.

دهشنا لرؤية كل هؤلاء معها ولم نتوقع ذلك همست والدتي لأبي: «لنخرج بسرعة ربما هذه مصيدة لنا». كانت آنذاك- أي علاقة بشخص أجنبي مهما كانت بسيطة تضع المرء موضع شك واتهام بالتجسس والتآمر ضد الحكومة، حتى وإن كانت تلك العلاقة اجتماعية كالصداقة، فإنها تسبب الكثير من المتاعب .

غادرنا المكان بعد كلمات قليلة مع تلك المرأة، أما هي فقد ادعت أنها على وشك الزواج بأحد هؤلاء الرجال وأنها ترغب وتصرّ على زيارتنا في البيت. كان سلوكها يختلف تماماً عما رأيناه في بيروت، وأصابتنا الحيرة لذلك السلوك وكما ذكرت غادرنا المكان بسرعة والشكوك تسيطر علينا جميعاً، خاصة بعد تعرضنا لكل الحوادث السابقة مع شتى الغرباء، والآن هذه المرأة تصرّ على زيارتنا وبهذا الشكل الغريب. مضت بعض الأيام بهدوء ولم نر سمر أو غيرها.

* * * * *

في إحدى الليالي الباردة من ذلك الخريف، كنا مجتمعين في بيتنا مع الأهل والأقارب. وكانت أوضاع البلد المروعة تجعل تلك

الليالي الباردة المظلمة تبدو أكثر وحشة ورهبة، أما قضية أبي طبر فقد قرّبت العوائل من بعضها، فكان الناس يمكثون في البيوت مع أقاربهم وأصدقائهم ولا يقضون الأمسيات في أماكن عامة خارج البيت. وكذلك كان حالنا نحن أيضاً في تلك الليلة، فكانت جدتي وخالاتي في زيارتنا، وكانت أمسية صاخبة في بيتنا: الكبار يتكلمون ونحن الصغار نلعب مع أولاد خالاتنا، واجتمع أغلبنا في الصالة لنشعر بالدفء ونشرب الشاي بعد العشاء وعادةً في الليالي الباردة كنّا نشوي «الكستناء» اللذيذة ونستمتع بأكلها ومتعة الضيافة.

كان يُؤتى بالكستناء من شمال العراق حيث لم تُزرع هنا في بغداد وتكون ناضجة بقشرة بنية داكنة، نشويها على مدفأة نفطية وهذا نوع خاص من المدافئ - موجودة في العراق آنذاك - نملؤها بالنفط ونشعل الفتيلة وهذه المدافىء مناسبة جداً للبيوت العراقية الواسعة حيث لا يوجد في البيوت تدفئة مركزية - كما هو الحال في المجمّعات السكنية الغربية- لذا هناك في كل غرفة مدفأة خاصة كهربائية أو نفطية. وعادة نضع على هذه المدفأة إناءً معدنياً ونضع حبات الكستناء عليه ونقلبها عدة مرات حتى يتفطر قشرها. لهذه الكستناء المشوية رائحة طيبة تملأ غرف البيت وتشعرنا بالدفء. كنّا أنا وبنات خالتي نلعب بالغرفة المجاورة والجميع يتحدث بصوت عالٍ وكانت أمسية ممتعة لنا.

رنّ جرس الهاتف فأجابت والدتي، كان النداء لأبي وكان المتحدث يبدو مضطرباً وقال إن الأمر هام واعتذر من أمي لأنه يتصل في ذلك الوقت على البيت. أصاب والدتي القلق من نبرته وتعجب أبي لاتصال أحد موظفيه في هذه الساعة المتأخرة من مساء يوم

الجمعة. ذهب أبي إلى الغرفة المجاورة ليتحدث. بدا المتحدث خائفاً مرتعباً وبصوت مرتجف طلب المساعدة من أبي فقال: «أستاذ مكي ... أستاذ مكي ... رجاءً. . .الله يخلّيك ساعدنا. . .رجاءً. . . ساعدنا . . .أنقذنا. . ».

قال أبي: «ماذا حصل؟ من المتكلم؟»

قال الرجل: «أنا كامل[1] من بدالة المأمون، أستاذ مكي أرجوك ساعدنا. .. لقد انتهينا».

كان الرجل يعمل في شعبة خاصة ببدالة المأمون للخدمات الهاتفية، والشعبة مرتبطة بوحدة مكافحة الإجرام، وكانت الشعبة تهيئ خدمات هاتفية لقطاع كبير من العاصمة وتحت إشراف المديرية التي يرأسها أبي. وكانت الشعبة تقدم خدمات خاصة - خلال أحداث أبي طبر- لمن يطلب مراقبة خطه الهاتفي. كان واجبهم تتبع مصدر أي نداء مشبوه وتشخيص هوية المتصل وتبعاً للحالات المختلفة إما أن يُقطع الخط أو يُعطل ويبقى معطلاً لحين التحقيق.

قال أبي: «ما الذي حصل؟ أخبرني بهدوء، أنا أصغي إليك».

قال الرجل: «وصلنا طلب من امرأة قالت إنها تلقت تهديداً من أبي طبر بواسطة التلفون، لذلك وضعنا خطها الهاتفي تحت المراقبة. وفي هذا المساء وصلتها مكالمة تهديد فسجلنا المكالمة وحظرنا الخط. .. و. . .. يا لطيف. .. يا ربي. . .. لا يمكن أن أصدق ما حصل. . ».. سكت الرجل لحظات وبدا وكأنه يلتقط أنفاسه.

---

(1) اسم ما مستعار.

قال أبي: «اهدأ يا ابني... أرجوك ...لا تخف».

قال كامل: «اتبعنا خط المتصل ... وقطعناه ... ويا للمصيبة.. حيث لم ندر حينها أنه تابع للقصر الجمهوري... أستاذ مكي.... أقسم بالله لم ندر حينها... وبعد دقائق جاءت سيارة القصر وهجم علينا الرجال بأسلحتهم...دخلوا علينا حيث لم يتمكن الحارس من منعهم... دفعه أحدهم على الأرض وضربه على رأسه بحافة سلاحه... ثم أخذوا الشريط الذي سجلنا عليه التهديد ومزقوه وهددونا وشتمونا لأننا أوقفنا اتصالاً من القصر الجمهوري...يا لطيف.... أستاذ مكي لن تصدق ما حدث... لن تصدق أي فوضى وضجيج كان هنا منذ دقائق».

سكت كامل للحظات ليستعيد نَفَسه ثم أضاف نحن خائفون مما سيحصل لنا بعد هذا... أما الحارس قد أصيب في رأسه وسوف نأخذه الآن إلى الطبيب. أرجوك أرشدني .. ماذا نفعل يا ربي لا أدري ما سنصنع؟».

تفاجأ أبي وُصدم من كل ذلك وغضب لهذا الاعتداء على عمال يقومون بواجبهم. شحب لونه وهو يستمع لكل ما جرى ثم قال: «لا عليك يا كامل اهدأ... أرجوك اهدأ وأصغِ إليّ ... وماذا عن النسخة الثانية من التسجيل؟ هل أخذوها أيضاً؟ هل ما زالت لديكم؟».

قال كامل: «كلا، لم يأخذوها فهم لم يدروا بوجودها أصلاً».

قال أبي: «الحمد لله ... الحمد لله ... حسناً... استمع جيداً ... لقد قمتم أنتَ والآخرون بواجبكم ولم تفعلوا أي جرم، بل

بالعكس أنتَ قصدت إنقاذ عائلة بريئة. ثم أكمل بصوت حازم: «لا تخفْ. . .تعالوا كلكم عندي غداً إلى المكتب في الصباح واجلب معك الشريط الثاني وكل من شهد الحادث. سأفتح تحقيقاً في الحادث، نحن لا نعيش في الغاب، لا يزال عندنا قوانين سائدة في هذا البلد.

كان أبي مصدوماً وغاضباً بعد المكالمة وهمس لوالدتي بما حصلٍ. كل هذا الخوف والهلع الذي أبداه الرجل لم يكن من المجرم أبي طبر بل كان من العقوبة القادمة على رأسه من رجال السلطة، وهذا هو الخوف الذي زرعه النظام في نفوس الناس. ليس غريب أبداً أن يهلع هؤلاء الرجال العاملون في بدالة المأمون لهذه الدرجة، فلم يجرؤ أحد على تحدي أو حتى مخالفة البعثيين في تلك الأيام. لو كانوا عمّال البدالة قد علموا مسبقاً أن القضية متعلقة بالقصر الجمهوري لما كانوا تورطوا بذلك. كان حزب البعث فوق الجميع ولا يمكن لأحد التصدي له.

أمضى أبي الليل مهموماً بسبب هذه الحادثة ولم يستطع النوم في تلك الليلة وتلاطمت الأفكار في رأسه: هل يُعقل أن للحكومة علاقة بالقاتل أبي طبر؟ إن كان كذلك فهذا الأمر خطير! ربما كان القاتل من الحكومة نفسها للتخلص من معارضيها بواسطته. ولكن أراد أبي التأكد من القضية فقد تتظاهر مجموعة ما أنها من القصر. ولكن من يجرؤ بالهجوم على مؤسسة رسمية؟ الخدمات الهاتفية بكاملها تعود للقطاع الحكومي ولا توجد شركات خاصة لخدمة الهاتف. ثم من يملك الأسلحة سوى البعثيين؟ ماذا سيحصل في العراق إذا كانت الحكومة ذاتها تمارس الجرائم؟

كانت هناك بعض المؤشرات التي تؤيد ذلك، وتشير إلى أن أبا طبر هو مجرد مشروع لنشر الرعب بين الناس ليكون هناك سبب لتفتيش البيوت والسيارات ومراقبة الناس، والأهم من ذلك التخلص من المعارضين السياسيين، فلا عجب أن يكون جميع الضحايا من معارضي نظام البعث أو المتذمرين من الحكومة ومن عوائل معروفة وشخصيات سياسية وليس من الناس العاديين ولم تكن الجرائم بدافع السرقة.

بدأت الأمور تتضح لوالدي وتكوّن صورة قاتمة له فبما أنه علم بتورط الحكومة في تلك الجرائم المرعبة التي استهدفت سلامة الناس لعدة أشهر فسوف يكون هو أيضاً مستهدفاً وجاءه إحساس أن هناك المزيد من الأحداث ستأتي وما حصل حتى الآن كان البداية فقط، وكأنما فُتِحَ «صندوق باندورة»[1]. لم يدر أبي ماذا سيفعل؟ فقد وعد الرجل بالتحقيق! كان محتاراً، فمن سيستمع إليه؟ وماذا بإمكانه أن يعمل وهو لوحده أمام حكومة البعث المتوحشة؟ كل هذه الأفكار سبَّبت له الأرق في تلك الليلة وأثارت المشاعر المختلفة فلم ينم، وفكر بأن الأيام القادمة ستكون صعبة وما حصل كان البداية فقط لما هو أفظع ولكنه لن يهمل استغاثة ذلك الرجل وقرر أن يجري التحقيق وكان يعلم أنه بذلك سوف يدخل منطقة الخطر مع الحكومة.

كان بعض الضحايا - لجرائم أبي طبر- من الناس العاديين ولا أحد يدري ما خصومتهم مع النظام، والبعض الآخر من عوائل الحكومات السابقة أو كانوا أعضاء في حزب البعث المنقسم الموالي لسوريا، أو أنهم عقبة في طريق تنفيذ مخططات النظام. وهكذا حصل

---

(1) أسطورة يونانية تقول إن جميع الشرور انطلقت من ذلك الصندوق.

اغتيال لعوائل كثيرة ولأسباب مختلفة[1]. كان الناس يتهامسون حول أسباب تلك الجرائم ولا أحد يجرؤ على التحدث علناً.

ذهب أبي في اليوم التالي الى مكتبه وهو محمّل بالهموم وكان يعرف أن الوقوف في وجه النظام لن يكون سهلاً ولكن ضميره حتّم عليه أن لا يتراجع، جاء الرجال من مراكز بدالة المأمون وكانوا أربعة. رحَّب بهم وهنأهم لإخلاصهم في العمل وطلب لهم الشاي. وأخذ يسأل كل واحد منهم عن تفاصيل الحادث، أما الحارس فلم يحضر لأنه كان مصاباً بجروح وتمّ تسجيل إفادة هؤلاء الرجال وكانت النسخة الثانية من التسجيل الدليل على الاعتداء. استمع أبي إلى الشريط وكان مقززاً. كان مثل التهديدات التي تصل الناس عبر الهاتف، عبارة عن شتائم ولعنات وتهديدات بالموت، وكان الرجال يصفون ما حصل بذعر.

وبينما كان أبي منشغلاً بذلك الحادث طوال الفترة المبكرة من الصباح وصله نداء من القصر الجمهوري، وكان المتحدث هو منذر المطلك (نسيب أو صهر أحمد حسن البكر وقد قتله صدام فيما بعد) وكان من الرجال الأقوياء في الحكومة آنذاك.

تحدث إلى أبي قائلاً: «أستاذ مكي، سمعت أنك تجري تحقيقاً في حادث بدالة المأمون أمس؟».

---

(1) كانت إحدى الضحايا عائلة الحمامي، وكانت تسكن في منزل مقابل نادي الصيد في المنصور، وهو مركز تجمع مسؤولي النظام ونشاطاتهم وحفلاتهم الماجنة، فكانت هي تتحدث بين زميلاتها ومعارضي النظام عن ذلك مما جعلها تكون من أول الضحايا. أما عائلة الدكتور آرتست (عائلة أرمينة) فكانت تعيش في مسكن قريب من القصر الجمهوري ومطل على نهر دجلة وقد رفضت العائلة بيع مسكنها للنظام مما عرضها للاغتيال.

قال أبي: «نعم، هذا صحيح، كيف علمت؟ أنا لم أنته بعد من التحقيق».

لم يجب المطلك للحظات، ويبدو أنه قد وصلته المعلومات حول التحقيق من البعثيين في دائرة أبي.

تحدث منذر المطلك بلهجة التهديد والاتهامات اللعينة قائلاً: «يجب أن تغلق هذا التحقيق، لا حاجة إلى توثيق الحادث ويجب أن تنسى الحادث برمّته».

صاح أبي: «ماذا تعني يا أستاذ منذر؟ وما معنى ذلك؟ هذا واجبي وأنا مسؤول عن هذه المؤسسة ويجب أن أحقِّق في الحادث. هذه جريمة وحياة الناس في خطر، أنا أطبق القانون والسلطة تريد أن تمسك أبا طبر وتحاسبه أليس هذا من واجبنا؟».

قال المطلك: «قلت لك يجب إغلاق القضية، ألم تسمع ما قلت؟».

غضب أبي وصاح: «أتمنعني من أداء واجبي؟ أليس هناك قوانين في هذا البلد؟ لقد أصيب رجل بالأمس وهو الآن في المستشفى، كما تضررت ممتلكات الدولة، هل يمكن السكوت على ذلك؟».

قاطع الرجل والدي بخشونة: «أستاذ مكي، ألا تعرف من أنا؟ عليك بإغلاق التحقيق». قال ذلك وأغلق سماعة الهاتف.

صُدِمَ أبي ولم يستطع أن يتحرك من مكانه، فقد أغضبته وأزعجته هذه المكالمة. كان أبي محباً لمبادئه ومتمسكاً بالقوانين وكان الجميع يحترمه، لم يسبق أن تعرض لمثل هذه المكالمة الخشنة

واشمأز من تلك الوقاحة والتهديدات التي سمعها من رجل السلطة المتنفذ. بقي صدى التهديدات يدوِّي في أذنه، وتذكر حادث التسلل إلى بيتنا، وعرف أن وقوفه أمام هذا الطغيان مثل الوقوف أمام جدار ضخم يريد تحطيمه بيديه.

جلس أبي لدقائق بمفرده يفكر في كيفية معالجة الموقف، ثم ذهب إلى حيث الرجال الأربعة مجتمعين، قال لهم: «إنني آسف جداً، فقد صدرت الأوامر من القصر الجمهوري بغلق التحقيق وهذا عكس ما أريده، فهم لا يسمحون لي القيام بواجبي، ربما هناك أمل يوماً ما. وثقّ أبي الحدث الذي حقق فيه وأكّد أن غلق التحقيق جاء بناء على أوامر القصر الجمهوري بواسطة الهاتف من منذر المطلك. وضع الملف في أحد الأدراج وأغلق الموضوع وقال مرة أخرى: «إنني آسف جداً، الأمر خارج إرادتي وأكبر مما أستطيع القيام به»، أصيب الجميع بخيبة أمل وغادروا الدائرة وبقي أبي متألماً طوال اليوم.

مرّت أيام محبطة يسودها القلق بصورة عامة. وفي أحد هذه الأيام دقّ جرس الهاتف في الساعة2,30 بعد الظهر فأجابت والدتي وكان المتحدث السيد عبد الفتاح مدير شرطة مكافحة الإجرام في بغداد، وأراد أن يتحدث مع أبي لأمر مستعجل. لم يكن والدي قد وصل إلى البيت بعد وأخبرته والدتي أنه على وشك الوصول، طلب السيد عبد الفتاح منها أن ترسله حالاً إلى وزارة الداخلية لسبب مهم وأنهم بحاجة قصوى إليه. أكدت له والدتي أنها سوف تفعل ثم أخبرت الخادمة أن تقف قرب الباب وتطلب من أبي عدم إرجاع السائق حيث هناك أمر مستعجل وعليه الذهاب إلى وزارة الداخلية.

ذهب أبي إلى الداخلية وبقي هناك حتى السابعة مساءً وعندما رجع كان متعباً جداً. كان المساء مظلماً ووالدتي قلقة بسبب تعبه فجلست معه ليتناول عشاءه.

قالت أمي: «تبدو متعباً، هل أنت على ما يرام؟ يجب أن تتناول شيئاً من الطعام».

قال أبي: «شكراً، نعم سوف آكل فالطعام شهي، هل تناولت عشاءكِ أنتِ؟».

قالت: «كلا، انتظرت عودتك».

أحست أمي بقلقه وتعبه فكانت تساعده ليشعر بالراحة، أعطته كأس الماء وجلس الاثنان يأكلان. بعد العشاء سألته: « هل هناك أمر ما؟ لقد تأخرت كثيراً وقلقت عليك، إنك تبدو لا تزال متعباً».

أجاب والدي: «لن تصدقي ما سأقوله ..... إنه أمر خطير..... كانت شكوى من وحدة مكافحة الإجرام، مديريتهم تقع في وزارة الداخلية، تعرفين مهمة هذه الوحدة ملاحقة المجرم أبي طبر وغيره من القتلة. أما الآن هم أنفسهم (مكافحة الإجرام) عندهم مشكلة في الاتصالات، هناك تداخل خطر في هذه المديرية في خط الطوارئ الفوري الذي وضع لخدمة الناس بخصوص تهديدات المجرم. السيد عبد الفتاح هو المسؤول عن هذه الخدمة لا بد أنكِ رأيتهِ على التلفاز».

قالت والدتي: «أجل لقد شاهدته، ماذا حصل له؟ أهو الذي اتصل هذا اليوم بعد الظهر؟».

قال أبي: «نعم هو نفسه. . . . . وهو رجل طيب ويحب عمله وهو أيضاً كفء وأنا واثق به فهو يحاول جهده حماية المواطنين. . . . . هو وموظفوه يحاولون بكل جهدهم حماية الناس».

سألت أمي: «ما هي المشكلة إذن؟».

قال أبي: «إنه محبط والناس تشكو وتشتم الشرطة لأنهم عندما يتصلون ويسجلون الشكوى لا تأتي الشرطة لنجدتهم. المشكلة أنهم لا يتلقون نداءات الشكاوى هذه. . . . .فطلبوا مني تفحص مسار خطوطهم الهاتفية لمعرفة سبب عدم وصول تلك النداءات المستغيثة الى الشرطة».

صاحت والدتي: «يا لطيف ما معنى هذا؟».

قال أبي: «لن تصدقي ما يحصل! لقد تتبعت خطوط الطوارئ في المديرية العامة في وزارة الداخلية ورأيت أن النداءات تتحول إلى دائرة المخابرات. عندما يطلب أحد الناس شرطة النجدة فيجب أن تأتي للمساعدة وبسرعة، وبالطبع لا تأتي شرطة النجدة ولا يأتي أحد لمساعدة صاحب الشكوى لأن الشرطة لا تستلم النداء. لم نصدق أن المخابرات وراء كل ذلك أصابنا الهلع نحن الاثنان فكيف يمكن أن يحصل هذا؟ حاولتُ إصلاح نظام الاتصال ولكن أعتقد أن التداخل سيرجع فيما بعد وهذا أمر ينذر بسوء. . . . . تذكرين ما حصل مع منذر المطلك؟ إن القضية بكاملها تعود للبعثيين أنفسهم . . . . . أنا الآن لدي الدليل القاطع على إجرامهم. . . . . لقد زالت جميع شكوكي حول أبي طبر. . . . .لا يوجد أبو طبر. . . . إنه من البعثيين أنفسهم ومن الحكومة نفسها. . . . . فهم يقتلون الأبرياء من الناس

وينشرون الرعب بين المواطنين ويتلاعبون بمشاعر الناس. . . . . الشرطة لا تعلم بذلك . . . . . القضية سرية للغاية. . . . . بغداد بكاملها قد اهتزت لهذه الجرائم التي ليست إلا من صنع الحكومة . . . . . إنهم يدمرون بلدنا الجميلة لا أدري ما الذي ستأتي به الأيام القادمة. . . . . ستكون أسوأ وأشّد سوءاً».

كانت أمي تصغي لذلك كله وأحست بقشعريرة تسري في جسدها ولم تنطق بكلمة. نظرت إلى أبي بقلق وخوف مما ستأتي به الأيام وخيّم عليها الحزن. جلس الاثنان صامتين طيلة ذلك المساء. أحست والدتي بما ينذر بسوء في هذه الأخبار وأخافها ما قد سيحصل في الأيام المقبلة لوالدي ما دام قد كشف ذلك الدليل القاطع على إجرام حزب البعث في التخلص من معارضيه، الآن تأكد أبي من صدق كل ما كان يسمعه حول جرائم النظام وأن حكومة البعث هي خلف جرائم أبي طبر المتلاحقة.

مرت الليلة بخوف وكأن كابوساً مخيفاً بدأ يتسلل ليحلّ محل حلم جميل. أحست أمي أن أبي في خطر لا محالة ولكن كيف يمكنها حمايته؟ فهو الآن كمن قد وضع في زاوية يحيطه أعداء حاقدون، جلست أمي تفكر في الأيام الجميلة التي عشناها وتستعيد ذكريات الأفراح والسفر والأحلام الجميلة التي لا تزال أمامها، وفجأة انتبهت وصحت من الذكريات وبدأت ترى أن حياتهم السعيدة أصبحت في خطر أكيد، وأن المتاعب في طريقها إلينا فلم يعد العراق ذلك البلد الآمن الذي اعتاد الناس العيش فيه، وأصبح الخوف والقلق مما ستفعله الحكومة في الأيام المقبلة يسودان علينا، وبدت الحياة صعبة تسير نحو الأسوأ.

ظلت أمي تدعو من الله تعالى أن ينقذنا من هذه الأحداث كانت تشعر بقوة الإيمان مع أنها كانت قلقة. لم تكن أمي متدينة ظاهرياً بالشكل التقليدي ولكن لديها إيماناً قوياً وثقة بالله سبحانه وتعالى وأنه سيرعانا في كل المصاعب الآتية، فتمسكت بدعائها ورحمته الواسعة، وكانت تأمل كل خير منه تعالى. أظن أن والدي كانا مضطربين بسبب تلك الأحداث، غير أنهما لم يخافا البعث بسبب ثقتهما العالية واستقامتهما، لم يخافا من أحد لأنهما لم يرتكبا أي جرم فلمَ الخوف؟ كان الصدق رائدهما وكانت «المثالية» هي المنظار الذي يرون به الأمور ولكنها أخفت واقع الأمور. ظن أبي بأن الحق سيقف في وجه باطل البعث ولم يُقدّر مدى الجشع والحقد البعثي والرغبة في السيطرة، لم ير أن قتل النظام للأبرياء ونشر الرعب هو أهون شيء عند البعثيين، وإذا ما وقف أحد ما في طريق الحزب فيمكن للبعث تدمير أي كائن كان وبسهولة وطمس الحقائق بأساليب مختلفة لتحقيق أهداف النظام الحاكم. إنهم يدبرون المكائد للجميع والأيام تشير إلى المزيد من جرائمهم والقلق والترقب يسيطر على الناس.

* * * * *

الخامس عشر من كانون الأول عام 1973 يوم لا يزال ماثلاً أمامي حتى الآن. كان عصر ذلك اليوم بارداً ومظلماً، فالغيوم الداكنة في السماء قد حجبت أشعة الشمس المائلة للمغيب وزادت من حدة الجو المتوتر في البيت. لا يمكن أن أنسى تلك الرهبة في ذلك اليوم حتى وبعد مرور ما يقارب الثمانية وعشرين عاماً. لا يمكنني أبداً أن أنسى عصر ذلك اليوم. ربما كان ذلك اليوم يوماً عادياً من أيام الشتاء

لكثير من الناس، لكن بالنسبة لنا فقد كان يوم رعب وخوف وترقب. إن عبرات الأسى والمصاب في ذلك اليوم كانت وكأنها ما يحسه المرء بفقد عزيز أحبه، بل ربما أسوأ من ذلك، بل كانت كمثل من يعاني سكرات الموت أو من يختنق ويفقد أنفاسه. أحسست بضعف شديد وكأني لا طاقة لي على الوقوف. كانت كل دقيقة تمضي تزيد في معاناتنا وحزننا. كان عصر ذلك اليوم المائل إلى المغرب يمضي بطيئاً وكأن الزمن قد توقف عن الحركة وكل دقيقة تؤكد من حتمية الأمر. أحسست مثل شخص تاه في صحراء وقد انقطع العالم عنه لا يدري أين يذهب.

كنت جالسة في الحديقة وسط البيت، وكان العصر يميل الى المغرب فكان يميل إلى الظلام وإن لم تغرب الشمس بعد. كنت أرى جيداً ما يجري داخل الصالة من خلال زجاج النافذة لأن الصالة في الداخل كانت مضاءة ولكن لم أسمع من مكاني ما كان يقال. فمن مكاني الذي يميل للظلام في الحديقة كنت أرى داخل البيت جواً كئيباً ومرتبكاً وكنت أرى تعابير القلق والهلع على وجه أمي وكان أخي حيدر وأخي سامر يجلسان معها يحاولان طمأنتها مع أنهما أيضاً قلقان، يركض أحدهما نحو الهاتف ثم يعود إليها، وأتذكر أخي عامر وهو يخرج إلى الشارع ويعود مرات عديدة منتظراً ومترقباً. كان الجميع في ارتباك وتوتر وإن لم ينطق بذلك أحد. وحتى أنا أصغر من في البيت - في عمر ثماني سنوات- أيقنت حينها أن شيئاً ما فظيعاً قد وقع.

أشارت الساعة إلى حوالي السادسة مساءً ولم يعد أبي إلى البيت من عمله بعد. وكان هذا أمراً غير معهود فلم يحدث أن تأخر

أبي عن موعد عودته من دون أن يتصل بأمي ليخبرها بذلك لكي لا تقلق. كان الدوام الرسمي عادة يبدأ في الثامنة صباحاً وينتهي في الثانية والنصف ظهراً في جميع أيام الأسبوع والعطلة الرسمية هي يوم الجمعة. اتصلنا بمكتبه فلم يرد أي أحد لأن وقت الدوام الرسمي كان قد انتهى. لم يكن الهاتف النقّال مستخدماً آنذاك.

خيّمَ الهلع على الجميع وخاصة أمي التي قالت: «قد أصاب والدكم سوء، فلماذا لم يتصل بنا؟ هو متمسّك دائماً بمواعيده بالضبط ...... من المؤكد أن شيئاً قد حصل له... فلماذا لم يتصل؟»، حاول إخواني طمأنتها بأنه قد يصل الآن في أية لحظة فربما توقف لشراء شيء ما أو ربما ذهب إلى دائرة البريد أو أي مكان آخر. كانت أمي تُخمن الأسوأ وقد علِمتْ ربما بالحدس أن أمراً رهيباً قد حصل، كنا جميعاً نشعر بذلك مع أننا كنا نحاول إنكار ذلك لنطمئن أنفسنا. إنها طبيعة البشر لا يريد أن يقر بوقوع المصائب ويحاول دوماً أن يهون من هولها. ولكن أمي كانت تعبّر عن مشاعرها ومخاوفها منذ اللحظة الأولى فهي عديمة الصبر، لا تخفي قلقها، كانت في هذه الحادثة وغيرها صادقة الحدس وما هو إلّا وقت قصير حتى سيطر الهلع على الجميع أيضاً.

علمتني تلك الساعات المعدودة والصعبة عن قلة حيلة البشر وكيف تأتينا الحياة بالمفاجآت. خيلَ لي في تلك اللحظات أن كل شيء أعرفه قد انهار، كلنا يظن- وخاصة في طفولتنا - بأننا دوماً بخير ولن يحصل لنا مكروه ولا يمكن لأحد التغلب علينا، ونظن بالأخص أن أهلنا هم رمز القوة ومفتاح الأمان، ونعتقد- نحن الأطفال- أن أبوينا سيعيشان إلى الأبد ويتحملان كل شيء وهما دوماً

معنا، ولكن في تلك اللحظات وفي غياب والدي وقلق وهلع والدتي شعرت بأن كل شيء قد سُلب مني ولم يعد لي أي مصدر للحياة.

استمر الخوف وتفاقم التوتر في البيت. كان اختفاء أي شخص- في تلك الأيام- يعني أنه قد وقع بيد القاتل المجهول: أبي طبر أو إنه في عداد المختفين لعدة أيام ثم تكتشف جثثهم مقطعة وفي أكياس مرمية عند عتبة البيت أو على قارعة الطريق. فإن حزب البعث يسحق من دون رحمة كل من يقف في طريقه أو كل من يكرهه أو يعتبره عدواً له. وهكذا تمّ تصفية الكثير من الشخصيات المعروفة بهذا الأسلوب، العشرات بل المئات، كانت بغداد آنذاك تعيش الخوف والرعب والقلق.

خرج أخي عامر إلى الشارع العام لعله يرى أي أثر لسيارة أبي أو السائق الذي يوصله عادة إلى عمله ويعود به إلى البيت أو إلى أي اجتماع يتعلق بعمله. ولكن أخي شاهد عدداً كبيراً من السيارات تحوم بشكل غير طبيعي حول بيتنا والبعض يقف قريباً للمراقبة. عاد عامر وأخبرنا بذلك وعلمنا أنهم من المخابرات حيث يتميز هؤلاء بزيهم الخاص ويضعون على أعينهم نظارات شمسية داكنة وملابس مدنية، ويحملون السلاح وأجهزة الاتصالات المتنقلة وحتى ماركة سياراتهم معروفة.

أحسسْنا بالذعر عند معرفة وجود هؤلاء قرب بيتنا، فوجودهم لا يبشر بخير بل هو نذير شؤم، كنا في قلق وخوف حول مصير أبي ونخشى سؤال هؤلاء الرجال عن سبب وجودهم حول بيتنا، فعادة يتجنب الناس الحديث مع هؤلاء ولم يكن مألوفاً وجودهم قرب بيوت الناس إلا عند وجود أمر ما. توقعنا دخولهم إلى بيتنا في أي لحظة

من مسكن خالص (مستأجر الدار الصغيرة) هذا الرجل المرتبط بالمخابرات والأمن وبالتأكيد يتعاون معهم .

ذهب إخواني إلى جميع مستشفيات الطوارىء للتأكد من عدم حصول حادث سيارة له، ذهبوا إلى مستشفيات الطوارئ ومراكز الشرطة ولم يجدوا أي أثر له، عاد الجميع متعباً ومغموماً في ذلك المساء.

ذهب أخي سامر إلى مسكن خالتي منى وأخبرها بأن أبي لم يعد حتى حين. هرعت مع خالتي الأخرى وداد وابنة خالتي سارة إلى بيتنا[1] وبعدها جاءت جدتي عندنا بعد أن اتصلت بها خالتي وأخبرتها الخبر المؤلم، استطاعت جدتي أن تهدئ أمي بالدعاء والصلاة والإيمان بالله تعالى ورحمته الواسعة .

وفي تلك الساعات كان أخي حيدر قد عاد مرة أخرى إلى المكتب وطلب من الحارس أن يعطيه عنوان السائق ليذهب إلى بيته، تعجب السائق عندما علم عن اختفاء أبي حتى تلك الساعة وقال: «لقد طلبوا مني هذا اليوم أن أذهب بإجازة وقالوا إن سائقاً آخر سوف يوصل والدك إلى البيت. لم أفهم لماذا أرسلوا سائقاً آخر بدلاً عني.

---

(1) كانت خالتي منى على معرفة جيدة بزوجة وزير المواصلات رشيد الرفاعي حيث كانت خالتي مدرّستها في متوسطة المسيب للبنات. ذهبت خالتي منى برفقة العم مزهر إلى مسكن الوزير وتحدثت إلى زوجته حيث لم يكن هو موجوداً في البيت، اتصلت الزوجة بزوجها الذي أكّد لها أن لا مشكلة أبداً لديه مع أبي في العمل، وأنه قد كان بصحبته اليوم في اجتماع حتى الساعة الواحدة والنصف ولا علم له عن أي سبب لعدم عودته للبيت، غير أنه وعد بأن يتحقق من الموضوع ويعطينا الجواب فيما بعد.

يا لطيف . . . . . لماذا لم أبق معه؟ إنها غلطتي، سوف أصلي وأدعو الله ألا يصيبه مكروه». شكر أخي السائق وعاد إلى البيت وكنا جميعاً في انتظار أي خبر، أخبرنا أخي عدم معرفة السائق لأي شيء لأنهم قد صرفوه في ذلك اليوم من العمل.

في فجر اليوم التالي اتصل الوزير وأخبر والدتي أن أبي موجود «عند الجماعة» (مصطلح يعني مخابرات النظام) وأنهم يريدون استجوابه، أسئلة معدودة فقط وسيعود فيما بعد. أرادت والدتي التأكد من الوزير مرة أخرى فسألته إن كان هناك أي قضية تخصّ أبي وسمع هو بها، فأكّد لها أن ملفّه الوظيفي ممتاز وخدمته جيدة جداً حتى أنه قدم له تكريماً اعترافاً بإنجازه الرائع في مجال عمله والمشاريع التي حققها. وأضاف أنه سوف يتابع الموضوع ويحاول جهده لمعرفة سبب اعتقاله. حتى الوزير المسؤول المباشر عن أبي كان يجهل سبب اعتقال أبي وكيف يؤخذ من مكان عمله من دون علمه، غير أنه لا يستطيع الاعتراض أو حتى الاستفسار. كان رشيد الرفاعي مسؤولاً بعثياً غير أنه كان يعامل أبي باحترام وتقدير لمعرفته وخبرته وكان يتبادل معه المعلومات المتعلقة بعمله وكانت علاقتهما قائمة على الاحترام المتبادل[1].

---

(1) وهناك محاولات أخرى للتحري مثلاً كانت خالتي منى تعرف بعض المسؤولين آنذاك. ذهبت بصحبة خالتي الأخرى لتلتقي بجعفر قاسم حمودي وتستفسر منه عما حصل. التقت خالتي منى بجعفر قاسم حمودي الذي رحّب بها وعندما عرضت عليه موضوع أبي لم ينطق بكلمة وكأنه يخشى أن يخطئ بالحديث ثم قال: «اكتبي عريضة حول الموضوع وسوف أوصلها للمسؤولين».

ظلت أمي تردد: «ماذا؟ مكي موقوف عند المخابرات؟ كيف؟ ولماذا أوقفوه؟ يا ربي هل يمكن أن يحصل هذا؟» أخذت أمي تبكي وتتوجع وسقطت مغشياً عليها. وحتى بعد أن استعادت وعيها كانت تبكي وتقول: «لا يمكن أن أعيش بعد اليوم، دعوني أموت، يا إلهي خذ روحي الآن وخلصني من هذه الحياة، لقد فقدت مكي... المخابرات .... سيقتلوه». كان حالنا محزناً وكئيباً، كنا جميعاً نبكي بصمت. حاول إخوتي وزينة تهدئة روع أمي جلسوا معها يحاولون تهدئتها. كان رجال المخابرات خلال هذا الوقت يتابعوننا في كل هذه التحركات ويراقبون من يدخل ومن يخرج من البيت وأينما نذهب حتى عند ذهابنا إلى المدرسة.

كانت المخابرات الجهاز الرسمي المرعب الذي شكّله حزب البعث وهو من أبشع مؤسسات الحزب السرية بعملياته القذرة. من تخطفه المخابرات لا يعود فإن رجال هذه المؤسسة معروفون بقسوتهم ووحشيتهم وتعذيب للناس واغتصاب الفتيات وتهيئة أدلة مزورة للإدانة والتجسس بجميع الأساليب على عموم الناس. كل من يعمل في هذه المؤسسة هو من القتلة والسفّاحين بل هم أبشع من ذلك. كان هؤلاء يُدربون على القتل والتعذيب حتى لأقرب الناس لهم وهم يستمتعون بصراخ ضحاياهم. كان الكل يعلم أنهم قد تدرّبوا على أساليب التعذيب في دول مثل ألمانيا (خاصة الشرقية) وقد جاؤوا بأجهزة تعذيب كهربائية متطورة من دول الشرق والغرب، وكان رجال هذه المؤسسة يقومون بسفرات مفاجئة إلى دول أوروبا في وقت كان السفر خارج العراق ممنوعاً. لم تكن تلك السفرات للراحة والاستجمام بل لمزيد من التدريب على التجسس وتعذيب الضحايا وأخذ الاعترافات.

صعد البعض إلى مستوى السلطة والثراء وكثرت مظاهر الثراء الفاحش على العاملين بهذا الجهاز، وإن كان معظم هؤلاء يفتقر إلى الثقافة والتعليم قبل تسلط الحزب على الحكم ويكتفي بأعمال بسيطة، وبعد ذلك أصبح كياناً يرهب الناس .

وبسبب هؤلاء الأشرار تلاشى الآلاف من أبناء الشعب العراقي، فقد كان لهذه المؤسسة سلطة وصلاحيات كثيرة ازدادت يوماً بعد يوم وتركزت بأيدي العصابة التكريتية (صدام حسين وإخوانه وأولاد خاله وبقية أقاربه) وكان بإمكان هؤلاء تجاوز أي مسؤول في الدولة وكما ذكرت فإن وزير المواصلات المسؤول المباشر عن أبي لم يعرف أي سبب لاختطافه من دائرته وتوقيفه حيث تمّ ذلك من دون علمه ومن دون مذكرة توقيف .

* * * * *

علمت أمي بقرارة نفسها أن المخابرات اختطفوا أبي لأنه اكتشف علاقتهم المباشرة بالمجرم المجهول - أبي طبر- وكذلك بسبب موقفه المتصلب ضد تخريب وفساد البعثيين في العمل، فهو لم يقبل أساليبهم الملتوية في إفساد العمل، ولم يقبل أي منّة يمنّون بها عليه. بالعكس فقد وبَّخ وعاقب البعثيين في عمله لأنهم زوّروا توقيعه لإمرار صفقات مالية من دون موافقته. كان أبي دوماً بالمرصاد يحقق في أكاذيبهم ويكشف مؤامراتهم وكأنه جدار ضخم أمامهم ويجب أن يحطموا ذلك الجدار. في كل هذا الوقت كانت أمي تبكي بكاءً مراً ولا تستطيع إيقاف دموعها، وكانت جدتي وخالاتي يحيطون بها ويحاولون تهدئتها مع أن الجميع كان في حالة قلق وترقب وخوف مما يخبّئه الغد لنا.

لم يعرف عامة الناس- في ذلك الوقت- بعلاقة أبي طبر بالنظام الحاكم. أما أبي والذين يعملون في مجال مكافحة الإجرام مثل مدير الشرطة السيد عبد الفتاح فقد عرفوا الحقيقة الرهيبة. والآن أبي في قبضة المخابرات وربما يقضون عليه حتى لا يعلم أحد بتلك العلاقة، كان الأمر سهلاً لهذا العصابة فبالإمكان القضاء على العدد المحدود ممن اطلع على تلك المعلومات.

كان أبي وأمي محور العائلة القوي في اللحظات السعيدة والمؤلمة. كان الأهل والأقارب يجتمعون في بيتنا في المناسبات وغيرها لأن أمي هي أكبر أخواتها وإخوتها، وأول من تزوجت من أخواتها، وكانت عائلتهم متماسكة فيما بينها، وكانوا يساعدون بعضهم ويهتمون بنا، وكنا نراهم بين يوم وآخر، نزورهم ويزورونا وهذه عادات اجتماعية مألوفة في مجتمعاتنا الشرقية حيث روابط الأسرة أقوى مما هي عليه في الغرب. كنا نصلي وندعو الله تعالى ليعيد لنا أبي سالماً. كانت جدتي امرأة متدينة فكانت تصلي طوال النهار ونذرت أن تزور ضريح النبي يونس عليه السلام في الموصل حالما تطمئن على سلامة أبي. في مثل هذه الحالات العصيبة يلتجىء الناس الى الله تعالى ليقضي أمورهم وينذرون ويزورون أضرحة الأنبياء والأئمة، وهذه أماكن مقدسة للزيارة حيث يطلب الناس من الله تعالى الرحمة والمغفرة وقضاء المطالب، والمعروف أن ضريح النبي يونس في الموصل يزوره المسلمون والمسيحيون للبركة وباقي الزوار من جميع مدن العراق وحتى من الدول المجاورة.

أصابنا نبأ اعتقال أبي عند المخابرات بالذهول ووقع كالصاعقة على رؤوسنا، لم نكن لنصدق ما حصل، ولكن تدريجياً وبمرور

الأيام أصبح الخوف والتوتر وكأنه دوران مزمن وملازم. أما بالنسبة لي وأنا طفلة في الثامنة من عمري كان ذلك الحدث وكأنه نهاية العالم، وأحسست بالحزن والانكسار والضعف، لم يكن قد مرّ عليّ في حياتي الصغيرة - حتى ذلك الحين - أسوأ من ذلك اليوم. كان أبي وأمي أعز إنسانين في الدنيا لديّ، فكنت دائماً أدعوه تعالى أن يطيل عمرهما وأن يعيشا إلى الأبد. وكان شر ما أخشاه وشر ما يؤلمني في هذه الدنيا - ككل الصغار- هو أن أفقد أمي وأبي، هذا أسوأ ما يمكن أن أتحمله. والآن هؤلاء الوحوش خطفوا أبي وها هي أمي وقد انهارت، وهكذا تحطمت سعادتي لأول مرة في حياتي وأنا في الثامنة من العمر، لم أعد أحلم بحياة الفرح والهناء التي كنت أعيشها، تحطمت قلعتنا السعيدة وأبي لم يعد موجوداً بيننا، وربما قد قضوا عليه. لازمني الأسى العميق وكأن الحدث قد أخذ كل السعادة مني وانتهت الأيام السعيدة في بغداد. تلك الذكريات تجدد جرحاً عميقاً دائماً لن يندمل أبداً.

منذ تلك الحادثة أيقنت ـ وأنا مجرد طفلة صغيرة ـ أن نظام البعث هو الشّر بعينه وعنده من السطوة والقوة ما يمكنه أن يؤذينا جميعاً، وأصبحت هذه الأحداث نقطة تحول في حياتي فقفزت بعدها قفزة كبيرة من الطفولة إلى الكبر والنضوج والعقل، فأصبح عليّ أن أتحمل المسؤولية وأن أخفي مشاعري، وأصبح لديّ إرادة قوية لتحمل المصاعب والألم وجعلتني أتقرب إلى الله سبحانه وتعالى. حاولت أن أهتم بأمي، أساعدها بعض الشيء بأن أكون فتاة كبيرة وليس طفلة مدللة. لا أذكر في تلك الفترة من حياتي سوى ذلك الحدث المؤلم، لا أذكر المدرسة ولا أذكر عيد ميلادي ولا شيئاً آخر

سوى الألم والإحباط والحزن لأن أبي غير موجود وأمي في حالة مؤلمة وخالاتي دائماً معنا والكثير من الناس يزورونا.

استمر الحزن يلازمنا أياماً عديدة ممزوجاً بالغضب، وانهارت أمي نفسياً وجسدياً ولم تستطع أن تذهب إلى عملها ولازمت البيت تبكي معظم الوقت. كان أخي حيدر يعطيها بعض المهدئات لكي ترتاح قليلاً، وكانت خالاتي معنا معظم الوقت ولم يتركنها وحدها. ومع أني كنت أعتقد دائماً أن أمي قوية الإرادة وشديدة البأس إلا أنها انهارت. كل البشر يتعرضون للانهيار حتى الأقوياء، ومهما كان المرء قوياً فقد يقهر في مواجهة بعض الظروف. وهذا ما حصل لأمي، كان والدي كقلعتها الحصينة ومصدر قوتها الكامنة، ومن الصعب أن نفهم هذه الروابط الروحية بين الأحباء الحقيقيين والأزواج الذين يقضون سنوات طويلة مع بعضهم يتحملون مرّ الحياة وحلوها سوياً.

كانت خالتي وداد على معرفة بأسرة مسؤول كبير يعمل في جهاز المخابرات واسمه سعدون شاكر (وكانت المعرفة نتيجة عمل قريبة زوجته في مدرسة خالتي) استطاعت هذه القريبة أن تهيىء لقاءً مع ذلك المسؤول، لم ترغب خالتي ولا حتى والدتي الذهاب إليه، ولكن كان ذلك السبيل الوحيد لمعرفة ما حصل لأبي. في تلك الأيام أثناء حكم البعث كانت هذه الطريقة الوحيدة (أي بواسطة بعثي يعرفه المرء في الحكومة) ليجد الإجابة على تساؤلات ماذا حصل لشخص ما.

وهكذا ذهبت والدتي لمقابلته - كان عليها أن تمرّ عبر بوابات عديدة يحرسها رجال مسلحون لكي تصل إلى بيت المسؤول، ولا يسمح لها بالدخول إلا إذا حملت ورقة من المسؤول نفسه تسمح لها

بمواجهته. التقت والدتي بسعدون شاكر وزوجته وقالت: «أستاذ سعدون إن زوجي مخلص في عمله وكل بغداد تشهد بذلك، لقد خدم هذه البلاد لعدة عقود وهو يحب الوطن والعمل من أجله. إنه بريء من أي تهمة وأنت تعلم ذلك، كان يحمي الناس من الجرائم، أليس هذا ما تريده الحكومة؟ أليس المطلوب القبض على أبي طبر؟».

نظر إليها سعدون شاكر طويلاً ثم قال: «بالطبع هذا ما نريده»، لم تكن والدتي تعلم إن كان سعدون شاكر قد علم بما اكتشفه والدي من تفاصيل.

استمرت والدتي قائلة: «أرجوك قل لي ما الذي دبّروه ضد زوجي، هل تعلم شيئاً؟»، استمرت والدتي تتكلم والرجل صامت بل مندهش إذ لم يعتد سماع مثل هذا الكلام وبصراحة ووضوح، ثم طلبت المساعدة منه، قال لها: «لا أعرف شيئاً عن القضية فقد كنت خارج البلاد ولم أسمع بتوقيفه، سوف أرى إن كان بإمكاني مساعدتكم».

مرّت الأيام كئيبة علينا ونحن لا ندري ما الذي حصل لوالدي أو لماذا؟ لم نكن نستطيع معرفة حتى مكان اعتقاله لأن للمخابرات ودوائر الأمن أماكن كثيرة لأعمالهم القذرة فقد كانوا يملكون العمارات والبيوت وتحت عناوين مختلفة، وإن هؤلاء معروفون بقسوتهم وشراستهم في تعذيب الناس ولا يعيرون اهتماماً لو مات أحد بسبب تعذيبهم، كانوا عصابة لا ثقافة لهم ولا دين، تدربوا على أعمال القتل والتعذيب وسيطروا على الشعب بالخوف والإرهاب، تدرّبوا على القتل والتعذيب في دول أوروبا الشرقية والغربية التي جهزتهم بأدوات تعذيب متطورة.

حاول عمي سعدي كل جهده أن يعرف شيئاً عن مصير أبي ولكنه لم يستطع معرفة أي شيء أو حتى إن كان لا يزال على قيد الحياة. كانت أمي تريد أن تتأكد ولو من ذلك فقط، وكانت تدعو الله أن لا يصيبه مكروه على أيدي هؤلاء القتلة، ترى هل قتلوه؟ لماذا لا يصلها أي خبر عنه؟ كان قلقنا وقلقها يزداد يوماً بعد يوم، مضت الأيام ومضت أربعة وثلاثون يوماً ونحن نعيش الحزن والقلق والترقب، كان كابوساً حقيقياً وليس حلماً.

ازدادت حالة والدتي سوءاً بمرور الأيام وبلا نتيجة، كنا جميعاً في حالة توتر وانهيار لم تكن حياتنا اعتيادية كانت أياماً مرعبة انتهى فيها كل شيء كأن أسرتنا بدأت بالانهيار. اضطرت أمي أن تستدين المال للإنفاق على البيت وبقيت خالاتي معنا وساعدن أمي في كل الأمور منها أعمال البيت والتسوق. وفي هذه الفترة أصبتُ أنا بالمرض وأخذتني أمي إلى الطبيب وأحياناً إلى المستشفى، أما أختي زينة فكانت معظم الوقت تجلس لوحدها في الطابق الأعلى في البيت وتبكي. وكذلك حال إخواني كانوا يمضون الوقت خارج البيت ولم تكن حياتنا طبيعية أبداً.

استمر الأقارب والأصدقاء في زيارتنا، وجاءنا عبر الأيام مئات الزائرين والجميع مصدومون لاختفاء أبي ولا يدري أحدهم ما يقول. كانت الناس يزوروننا بالمئات كما لو كنا في مأتم أو في فرح، جاءنا موظفون من العمل ومن مدرسة والدتي وأصدقاء أبي من الجامعة ممن كان قد قام بتدريسهم، لم أكن أعرف معظمهم، جاء البعض حتى من خارج بغداد لكي يسأل عن أبي، وكان بيتنا مفتوحاً للزوار يومياً.

كانوا يبكون معنا ومعظمهم لا يصدق ما حصل، ويتساءل

ويتعجب كيف يحصل كل هذا للرجل النزيه الأستاذ مكي؟ فهو الرجل المخلص الذي نذر حياته لخدمة بلده ومساعدة الناس وساهم بذلك طوال السنين؟ كيف يمكن لهذه العصابة المجرمة أن تعتقله بلا حساب؟ كاد الأمر يبدو مستحيلاً وأصيب الجميع بالذهول لما يجري في البلاد بأيدي العصابة المجرمة. كان الناس يتهامسون فيما بينهم لما يحصل من سوء في البلاد. استمر الحزن وازدادت قسوة الأيام وأصبحت مليئة بالحزن والخوف والدموع وغياب الضحكة والفرح في البيت، كنا نتمنى أن ينتهي كل هذا وأن يفتح أبي الباب فجأة ويعود إلينا، ولكن أين الأماني؟ مضت الأسابيع ونحن نجهل كل شيء عن أبي. وهكذا مضت أيام الشتاء القارس والحزين ومضت أيام وأسابيع بلا طعم وبلا سعادة ولا أذكر شيئاً من حياتي آنذاك سوى هذا الحدث الجم والآلام والدموع، وكم تمنينا أن ينتهي كل ذلك الخوف والحزن فجأة ولكن بقينا في جو الأحزان.

في أحد الأيام جاء العم سعدي وأخبر أمي أنه تمكن من تهيئة مقابلة لها مع أبي بواسطة اتصالاته مع كبار المسؤولين، وأنها سوف ترى أبي في مركز المخابرات، وأنه قد بذل جهوداً كبيرة ليحقق لها ذلك، همس ذلك في أذن والدتي وطلب منها أن لا تخبر أي أحد ولا يمكنها أن تصحب أي أحد معها. وستكون المقابلة فقط لدقائق معدودة، كان ذلك الأمر منّة كبيرة من أحد المسؤولين وبواسطة أحد أفراد العصابة المدعو: فاضل البراك.

فرحت أمي عندما علمت بأن أبي لا يزال على قيد الحياة واندهشت لما قاله لها عن الزيارة، شكرته وأخذت تبكي اعترافاً بمساعدته. بقينا ننتظر موعد الزيارة لنطمئن على أبي، كانت هذه

الزيارة أشبه بالمعجزة فهم - السلطة - لا يسمحون لأحد بزيارة أي شخص موقوف بهذا الشكل وخصوصاً في دهاليز المخابرات، بل لا يعترفون بوجوده لديهم ولا يسمحون لأحد بالاستفسار، فالمكان سري للغاية حيث تمّ تعذيب وقتل الضحايا ولا يستطيع أحد معرفة المكان.

رافق العم سعدي والدتي إلى ذلك المكان الذي لم يسبق لها أن ذهبت إليه، كان يبدو من الخارج بيتاً عادياً ومظهره الخارجي لا يدل على أنه معتقل رسمي، وكانت المنطقة محاطة بالمحلات والدكاكين ومكاتب صغيرة يبدو أنها تعود للمخابرات. رافقها إلى الداخل وتركها تنتظر هناك، مشت قليلاً وأوقفها الحارس وأخذ يفتشها من الرأس حتى أخمص قدمها، فتش حقيبة يدها وحذاءها وملابسها. كانت الكاميرات الجدارية تراقب من كل جانب، سار الحارس معها في نفق أرضي يؤدي إلى بناية أخرى، مشت معه قليلاً ثم توقف هو وجاء حارس آخر وطلب منها أن تنتظر. كان المكان موحشاً ومقفراً ولكنه نظيف نوعاً ما. كان واسعاً في الداخل خلاف ما يبدو من مظهره الخارجي وكان أغلبه تحت الأرض فلم تتوقع أن يكون هكذا كبيراً. سمعت أمي أشخاصاً يتحدثون ويضحكون، جاء رجل آخر وطلب منها أن تتبعه عبر باب صغير، مشت أمي وهي خائفة وتيبست شفتاها وأحست أنها لا تقدر على الكلام، خشيت أن يكون الأمر قد دبر لاختطافها هي أيضاً. دخلت في غرفة وطلب منها الرجل أن تنتظر، كان للغرفة باب ثان كأنه يؤدي إلى مكان آخر.

جلست أمي تنتظر. كانت الغرفة باردة، هادئة جداً، فيها كرسي واحد ومنضدة. تسارعت دقات قلبها، أحست أنها نسيت كل شيء

سوى أنها متلهفة لرؤية أبي. كانت تريد أن تلمسه لتتأكد من أنه لا يزال حيّاً. كانت دقائق الانتظار طويلة كأنها الدهر. كانت أمي تخشى الخيبة، أن لا يأتي أبي مثلاً أو يقولون لها إنه ليس موجوداً أو قد نقلوه إلى مكان آخر أو قد لا يسمحون بالزيارة، خشيت أن يكونوا أصلاً قد قتلوه وسوف يسلمونها جثته وهكذا تراكمت الأفكار السوداء في رأسها وبدا لها أنها انتظرت طويلاً.

فجأة فُتح الباب ودخل والدي برفقة حارس. لم يدر أبي أين هو وبدا تائهاً فلم يخبروه بوجود زائر له. انتفضتْ أمي وقامتْ، نظرتْ إليه وهي ترتعد، فلم يكن الرجل يشبه أبي، هل هذا زوجها الذي عرفته بقامته الطويلة وبنيته القوية ونظراته الحادة؟ نعم إنه هو بنفسه ولكن يبدو مذهولاً، تائهاً فاقداً لكل حيويته ونشاطه وكأنه قد كبر عشرين عاماً، ظهره منحنٍ، شعره ولحيته قد استطالت كثيراً، كان حافي القدمين، ممزق الملابس، الكدمات والجروح على وجهه، وقدماه مزرقتان، الدموع تسيل من عينه دون انقطاع. أمسكت أمي بيديه وهي لا تصدق كل ما تراه، هل هو حلم أم حقيقة؟ كان جسمه بارداً احتضنته وأخذت تبكي وتقبل يديه وتدفئهما بدموعها، مرّت لحظات لم يستطع أي منهما أن يتكلم، بكى الاثنان.

سألها: «كيف حالك؟ كيف الأولاد؟ أنا بخير لا تقلقي».

تمتمت والدتي: «يا ربي... يا لطيف...».

خنقتها العبارات فلم تتكلم، لم يتحدثا سوى كلمات قليلة، كان الاثنان يبكيان وكانت الدموع تشكو لبعضهما ما يقاسيه الآخر.

مرّت دقائق قليلة وصاح الحارس: «يكفي، انتهت الزيارة، اخرجي الآن».

غادرت أمي الغرفة وخرج أبي برفقة الحارس، لم يوّدع أحدهما الآخر، خافت والدتي تعرض أبي لمزيد من الأذى بسبب بكائها.

خرجت وهي منسحقة وفي حالة غضب صامت، مشت لا تحس بشيء من حولها ولا ترى شيئاً من مدخل بناية إلى أخرى حتى وصلت إلى خارج المبنى عند السيارة حيث كان العم سعدي ينتظرها، وما أن وصلت الباب حتى تهاوت إلى الأرض وأجهشت بالبكاء. أسرع العم سعدي وساعدها لتدخل السيارة وهي تقول: «أرجوك أنقذني، سأموت».

أجابها: «أقسم لك سأعمل كل ما بوسعي، أعدكِ بذلك، أنا أموت ولا أراك على هذا الحزن، يا رب ماذا يجري من حولنا؟ ما كل هذا؟».

بكت والدتي طوال طريق عودتها إلى البيت، لم تصدق الذي حصل لأبي فقد عرفته دوماً قوياً كالقلعة الصامدة، منتصب القامة كالجبل الشامخ مثل سفينة عملاقة تبحر في محيط الحياة، كان يهزّ الأرض عند مشيته، يحترمه الجميع وأينما يذهب يكون موضع إعجاب الآخرين، وكان أنيقاً جميل المحيا والمظهر. تقاطعت الصور في ذهنها: والدي كما عرفته سابقاً وكما رأته قبل دقائق. أحست وكأنها قد هوت من على جرف عالٍ أو صُدِمت بشاحنة ضخمة. وصلت أمي إلى البيت وهي منهارة، أخبرتنا بكل ما رأت، جلست خالاتي حولها وأخذن يرفعن من معنوياتها ويطلبن منها أن تتجلد وتصبر، كنا جميعاً حولها، كنا نبكي غير أننا حمدنا الله سبحانه وتعالى لأن أبي لا يزال حياً.

مرّت الأسابيع كما هي من حيث الحزن والألم والفراغ الذي نعيشه لغياب أبي، بعد شِهر أو أكثر سمعنا أنه قد نُقل إلى مكان آخر يدعى «موقف الفضيلية» في بغداد، هذا المكان المرعب يقال إنه كان أهون من مركز المخابرات من حيث إنه مكان معروف للناس وليس مكاناً سرياً كالذي احتجزوا أبي فيه. هنا يبقى المتهمون المحتجزون فترة طويلة وهو يشبه السجن ويسمح فيه بزيارة المحتجزين. أخبرتنا والدتي بأن العم سعدي قد هيأ لنا زيارة لوالدي في ذلك الموقف. كان ذلك كالمعجزة: أن نزوره ونراه ونتكلم معه، كان ذلك قبل عيد الأضحى المبارك -. طبعاً لم نحتفل بالعيد في تلك السنة، كنا نعيش في قلب المحنة ولم نكن مهيئين للاحتفال وهذا عكس ما يحصل كل عام وفي المناسبات السعيدة.

ففي الظروف الطبيعية كان العيد هو وقت العطلة والمرح والسرور. كانت الاستعدادات للعيد مثيرة ومفرحة، ننظف البيت ونزينه بالديكور والزينة، ونهيئ كعك العيد وحلويات أخرى ومأكولات شهية ونقدم عادة الحلويات للزوار الذين يزوروننا وكذلك للجيران ونوزع منها للفقراء، كانت أمي تهيئ أنواعاً من الأطعمة لتوزعها على الفقراء في يوم العيد.

أما نحن الصغار فنقضي الأسابيع التي تسبق العيد في تحضير ملابسنا الجديدة - ملابس العيد - سواء كان ذلك بدلة واحدة أو أكثر مع الحذاء وشرائط للشعر الطويل وكل شيء يجب أن يكون جديداً، وعادة لا نلبس هذه الملابس الجديدة إلا صباح يوم العيد ونتصور بها أيضاً.

لم تكن فرحة العيد للصغار في تلك الملابس الجديدة فقط بل

كنا نحصّل بعض المال وهذا يسعدنا كثيراً، فعادة يعطي الكبار في العائلة النقود (العيدية) للصغار في يوم العيد. فنحصل على العيدية من والدينا وخالاتنا وأعمامنا، وكلما كبر الصغار يزداد مقدار ما يحصلون عليه! وحيث كنت أنا الأصغر بين أخواتي وإخوتي فقد كنت أحصل على أقل منهم وكذلك تحصل بنات خالاتي الأصغر على نقود أقل ومع ذلك كنا نفرح بما نحصل عليه. ويأتي الزوار عندنا في كل يوم من أيام العيد ولكن معظم الزيارات تحصل في اليومين الأولين هذه الأيام مفتوحة الأبواب للأقارب والزوار الذين يحملون الهدايا والحلويات، إنها أيام مدهشة للصغار.

ولكن في تلك السنة لم يكن عيدنا مثل سابق الأعياد بسبب محنتنا بغياب أبي، كنا حزينين ومرّت أيام العيد مثل غيرها من الأيام. كنا نفتقد أبي كثيراً لذلك أرادت والدتي أن نذهب جميعاً لزيارته بعد أشهر من اعتقاله، كانت فرصة ثمينة لنرى أبي ويرانا ولو لفترة قصيرة. انتهت عطلة العيد وعدنا إلى المدرسة. كان علينا أن نستأذن في الغياب من المدرسة ليوم واحد لزيارة والدي. كنت أنا في الصف الرابع الابتدائي، كتبت والدتي رسالة إلى مديرة المدرسة لتسمح لي ولأختي داليا - في الصف الخامس الابتدائي - الغياب نصف ذلك اليوم.

جاء أخي سامر بالرسالة إلى مديرة المدرسة التي كانت تعرف أهلي جيداً، فقد كان أبي رئيس مجلس الآباء والأمهات في المدرسة وتبرّع للمدرسة واهتم بأمورها وتطويرها وكنا جميعاً قد داومنا بتلك المدرسة ومن قبلي كان إخوتي وأختي الكبرى قد تعلموا فيها. سمعت المديرة بما حصل وحزنت كثيراً كانت المديرة تعرف أبي وأمي لسنوات طويلة. جاءت المعاونة وسلمت معلمة الصف ورقة السماح

لنا بمغادرة الصف ذلك اليوم. سألتني المعلمة أمام زميلاتي في الصف: «أين والدك؟ هل هو في المستشفى أم في السجن؟» صعقني وآلمني السؤال وارتبكت للحظات ثم قلت لها: «إنه في الموقف»، وغادرت الصف ولحقت بأخي الى السيارة.

في ذلك اليوم الممطر البارد كنا سعداء لأننا سوف نرى أبي أخيراً. ذهبنا إلى موقف الفضيلية البعيد عن منطقتنا. أوقفنا السيارة في ساحة غير مبلطة فيها الكثير من الطين والحفر المملوءة بالماء. انتظرنا قرب المدخل مدة طويلة إلى أن سمحوا لنا بالدخول. لم تكن زيارة سهلة، فقد كان جمع غفير من الناس تجمهر عند المدخل الكل يريد زيارة أحبائه داخل الموقف. لا أذكر أني رأيت صغاراً في عمري. تجمهر الناس عند نافذة صغيرة يقف خلفها رجلان يسجلان أسماء الزوار وأسماء الموقوفين. كانت معاملة الرجلين للزوار قاسية وخشنة، علينا أن نتوسل لهما ليسجلا أسماءنا وأن يذهبا إلى الداخل للتأكد من وجود أبي. كان محزناً أن ترى الخيبة على وجوه كثيرة عندما يأتي الجواب بعدم وجود والدهم أو قريبهم في ذلك الموقف، ومعنى هذا أن الشخص إما أنه أعدم أو لا يزال في مراكز التعذيب عند المخابرات. بعد تحقيقات طويلة وانتظار في البرد سمحوا لنا بالدخول إلى قاعة كبيرة صدمت برؤيتها حيث لم أكن قد رأيت مثلها من قبل!

كانت قبواً بارداً ومظلماً فيه ضوءان معلقان من السقف. كان الناس واقفين حيث لا مكان للجلوس، وكانت الأرض رطبة ولزجة بسبب ماء الأمطار المتسرب من السقف، كان هناك بعض الشبابيك المكسرة أو المفتوحة حيث كان الهواء البارد يدخل من كل جانب. وقف السجناء في جانب وراء حبل أو فاصل وكأنه سياج منخفض

يقسم المكان ولكنه لم يكن عال، وكانت الغرفة مزدحمة والزوار يبكون أو يتحدثون والكل مشغول بمن جاء من أجله. كان الجميع يبكي ويحتضن أحبائه والحرس موزعون بين الزوار والموقوفين يسخرون منا ولا يحترمون مشاعر الألم التي نعانيها، كان المشهد مذهلاً ومذلاً .

لم أتمكن من رؤية أبي في أول الأمر لأني كنت صغيرة (قصيرة) في ذلك الازدحام وأصابتني الخيبة لأني ظننت أن أبي غير موجود هناك وأنه قد كُذِب علينا، أو ربما لأني لم أر قط مثل هذا المكان القذر مع جمع غفير من الناس يبكون ويصرخون. ولكن بعد دقائق قليلة رأيت أبي بابتسامته الرقيقة المحببة لي ولكني صدمت بسرعة عند رؤيته! فقد تغيّر شكله: كان نحيفاً هزيلاً يرتدي سترة ممزقة ونعالاً كان يسعل أو يعاني من نوع من السعال وكان المكان قذراً وملوثاً.

كنت إلى قبل تلك اللحظة أتمالك نفسي كي لا أبكي، ولكن عندما رأيته في هذه الحالة انفجرت باكية حالما احتضنني وأخذ يقبلني. انسحبت من بين يديه ودفنت رأسي في معطف والدتي وبقيت أبكي وأبكي. كان هناك على بعد، شاب سجين تزوره امرأة كبيرة السن وكأنها أمه، أخذا ينظران إليّ وأنا أخفي رأسي وراء معطف والدتي وابتسما بلطف. بدا أبي ضعيفاً وأكبر سناً. كنا جميعاً أنا وإخواني نبكي فكان من المؤلم أن ترى شخصية مرموقة ومحترمة قد تحطمت في ذلك المكان المقرف. أصابني الحزن والأسى فلم يسبق لي أن رأيت أبي في مثل هذه الحالة السيئة. تصورت - لسذاجتي - أني سأراه بسابق أناقته وقوته.

كانت تلك الزيارة القصيرة التي لم تتجاوز الساعة أو أقل كانت من أشد المواقف ألماً في حياتي حتى ذلك الحين. وقبل أن نغادر احتضن أبي أمي وقال لها: «لا تحزني عزيزتي..... هذا المكان هو الجنة مقارنة بالمكان الذي كنت فيه في مركز المخابرات، كنت في قبر.... لا أرى النور.... ولا أعرف الليل من النهار..... ثم همس في أذن والدتي لتكون حذرة ولا تتحدث بأي شيء عن الحكومة في البيت لأن هناك في بيتنا من يتجسس علينا بواسطة أجهزة تجسس تسجل جميع حركاتنا وسكناتنا وكل ما نتفوه به من الكلام. واستمر أبي قائلاً إنهم أسمعوه لأحاديث جرت في بيتنا[1]. ظن أبي أن أجهزة التجسس مزروعة في داخل بيتنا ربما في الهاتف أو أي مكان آخر ومثل هذه الأجهزة موجودة لدى مخابرات النظام وهي أجهزة دقيقة لا يمكن كشفها إلا بواسطة خبراء مختصين. انتهت الزيارة، ودعنا أبي ونحن نبكي ونتمنى زيارته مرة أخرى، عدنا إلى السيارة كان أخي حيدر يقود سيارتنا وكنا أنا وشقيقتي داليا نبكي طوال الطريق، كان المطر غزيراً وماسحات المطر تضرب زجاج السيارة بسرعة ويختلط صوتها مع صوت بكائنا. تألمت كثيراً لهذا الظلم ورؤية والدي بتلك الحالة. تحطمت في ذلك اليوم وأنا لا أدري لماذا فعلوا ذلك بأبي؟ لم أدر لماذا وكيف يعقل أن يكون أبي ذلك الرجل البهي العالم في ذلك المكان؟ وبالرغم من صغر سني حينها

---

(1) وحتى في بيت خالتي منى ومع امرأة كانت تزورها وتتجسس عليها وطلب أبي من خالتي منى أن تتوقف عن انتقاد السلطة أو الحديث عن جرائم النظام لأي شخص كان.

- ثمانية أعوام- أيقنت أن نظام البعث يمارس الظلم والاعتداء على أبي والكثير من الأبرياء .

حزنت أمي بشدة بعد أن رأت تأثير الزيارة علينا - الصغار- وأحست بأنها أخطأت في اصطحابنا إلى ذلك المكان ولامت نفسها كثيراً ولم تتصور أن يكون المكان بذلك السوء وأننا سنتأثر ونحزن بهذا الشكل وبقساوة، فقد كانت تجربة مؤلمة لنا. وصلنا البيت ونحن لا نزال نبكي، طلبت خالتي من أمي أن لا تصحبنا أنا وشقيقتي مرة أخرى إلى ذلك المكان حيث إنه غير مناسب للصغار. حاولت أمي إدخال الفرح إلى قلوبنا وأخذت تحكي لنا قصصاً مسلية كي تقلّل من حزننا. وبعدها علمنا من والدتي عن وجود أدوات التنصت في بيتنا وأخبرت خالاتي بالذي سمعته من أبي. بدأ خالي رعد وهو متخصص بالهندسة الكهربائية بتفحص الأماكن التي يمكن وضع أجهزة الإنصات فيها. بحث مع أخي عن أجهزة التنصت فلم يجدا شيئاً. اتفقنا جميعاً أن لا نتحدث عن قضية أبي أو عن الحكومة داخل البيت.

* * * * * *

استمرت والدتي في زيارة أبي في ذلك المكان كلما كان هناك فرصة للزيارة وكما أذكر كانت زيارة أو زيارتين أسبوعياً. وقد حكى لها ما حدث له.

عندما غادر والدي مكتبه ـ من الدائرة التابعة لوزارة المواصلات ـ في نهاية الدوام في يوم 15 كانون أول عام 1973 متوجهاً الى البيت لم يجد سيارته وسائقه الخاص بل وجد في انتظاره سيارة أخرى. واجهه رجال مسلحون وقال له أحدهم: «أستاذ مكي نريد منك أن ترافقنا لعدة دقائق فقط».

سألهم أبي: «من أنتم؟

قال الرجل: «ادخل معنا في السيارة وسوف تعلم».

قال أبي: «يجب أن أعود إلى البيت، هل يمكن تأجيل ذلك إلى الغد؟».

قال الرجل: «كلا، يجب أن تأتي الآن».

صاح أبي: «ما هذا الهزل؟ دعوني أتصل ببيتي على الأقل».

قال الرجل: «لن تتصل بأحد» ثم دفعه الرجل الآخر إلى داخل سيارة المخابرات ذات الستائر على نوافذها. وحين أصبح أبي داخل السيارة تمّ ربط يديه وعصب عينيه وخلع ملابسه وإبقائه بالملابس الداخلية وخلع حتى حذائه. علم أبي حالاً بأنه بأيدي عصابة الإجرام ولا جدوى أبداً من الكلام أو الاحتجاج لسوء المعاملة.

سارت السيارة مسافة طويلة ثم توقفت وفتح الباب وسحب أبي إلى خارجها. سار المسلحون معه إلى داخل بناية. أزاحوا الرباط عن عينيه وصاح به أحدهم: «أنت جاسوس وسوف نقتلك».

أجاب أبي: «ماذا تقول؟ أنا لست جاسوساً».

صاح الرجل: «أنت عدو الحزب والثورة ونعرف أنك جاسوس».

قال أبي: «لا يمكن أن تتهمني هكذا. لا شك أنك مخطئ ربما جئتم بغير الشخص المطلوب».

أخذ الرجل يستجوبه حول ولائه للحزب ولماذا لم ينتمِ إليه

أجابه والدي: «إني رجل كبير السن ولم أرتبط طيلة حياتي بأي حزب. أنا أخدم بلدي بالعلم والمعرفة. أرجوكم اتركوني وشأني». أخذوا يصرخون بوجهه ويشتمونه وأنه معادٍ للحزب وكان يجب أن يغطي ما كشفه عن علاقة النظام بالمجرم المجهول أبي طبر. حاول أبي التفاهم معهم غير أنهم كانوا حاقدين وأنكروا علمه وسنوات خدمته الطويلة في البلاد وإنجازه المشاريع الضخمة ولم يصغ أحد إلى كلامه.

كان أبي مسؤولاً في عمله عن عقد مقاولات مع الشركات الأجنبية فهو الذي يوافق على تلك المناقصات أو يرفضها وفقاً للشروط الملائمة للمشروع المطلوب. كان البعثيون يريدون منافع مادية من هذه المشاريع عن طريق الرشاوى والاستغلال وحتى تزوير توقيع أبي. وقد وقف أبي أمام جميع أساليبهم الاستغلالية وأنذرهم بإرسالهم إلى المحكمة بسبب تزوير توقيعه. كان أبي ذا مبادئ عليا ومستقيماً في تعامله مع الناس لذلك اعتبره البعثيون عدواً لهم ولثورتهم المزعومة. كان باستطاعة البعثيين عمل كل ما يحلو لهم وإلصاق أنواع التهم بالضحايا الأبرياء ليتمكنوا من اعتقالهم وتعذيبهم وحتى قتلهم، ولكن أبي وقف في وجه تجاوزاتهم القانونية وقد سبق وهدّده أحدهم قائلاً: «اسمع يا مكي سوف تدفع الثمن غالياً».

بعد استجواب قصير لأبي في المقابلة الأولى بعد اختطافه، وضعوه في زنزانة صغيرة أشبه بصندوق لا يتجاوز طوله وعرضه المتر الواحد. لم يستطع الوقوف فيها ولم يستطع مدّ ساقيه عندما ينام، كانت باردة ومن دون إضاءة. لا أدري كيف تحمل أبي البقاء

في تلك الزنزانة عدة أسابيع؟ كيف استطاع أن يتنفس؟ لو كنت مكانه لاختنقت حتماً.... كم تألمت وحزنت لأن أبي بقي في ذلك المكان... كانت ساعته اليدوية الفسفورية لا تزال في معصمه تضيء له الوقت فكان يميِّز الوقت على الأقل كما كانت ساعته تشير إلى الأيام والأشهر فكان يعرف الفترة التي احتجزوه، كانت الساعة هي المرافق الوحيد له. كانوا يفتحون الباب مرة واحدة في اليوم ويعطونه كسرة خبز يابسة وماء.

لا يمكنني حتى أن أتخيل ما أحسّه أبي وهو حبيس زنزانة مظلمة لا يمكنه مغادرتها لعدة ساعات بل لعدة أيام وأسابيع؟ أكاد أختنق عندما أفكر بهذا. ترى كيف مرّت تلك الدقائق والساعات عليه؟ أعلم من حياتي وتجاربي الشخصية كم نغضب ونتزعج - نحن البشر- عندما نقف في طابور لشراء حاجة ما أو عند انتظار قدوم شخص ما أو ننتظر أموراً أخرى تافهة. ولكن أن يكون المرء في سجن انفرادي..... في الظلام..... يحيطه الأعداء والقتلة..... فهذا ما لا أستطيع تصوره.

لقد كان أبي رجلاً عظيماً ذا إرادة قوية وأعصاب من حديد. ولا أدري ما الذي أبقاه حياً وكيف تحمل كل ذلك. ومع أنه كان مكروباً ويعاني الوجع والألم، غير أنه بقي على إرادته سليم العقل- فلم يفقد أعصابه. ومع أنه كان يتمنى مغادرة تلك الزنزانة كان في نفس الوقت يريد البقاء فيها، لأن مغادرتها تعني الاستجواب والتعذيب الوحشي، إذن كانت معركته خاسرة بالنسبة له. وعندما أفكر في كل ما تحمّله أبي وكيف كان قوياً وثابتاً على موقفه، لا أدري من أعطاه قوة الصمود والتحمل، ربما الأمل بأنه سيعود إلى بيته يوماً ما

أو ربما الذكريات السعيدة في حياته أو ربما الإيمان بالله سبحانه وتعالى. لا أدري بمشاعره وهو محشور في تلك الزنزانة الصغيرة لعدة أسابيع. في مثل هذه الحالة يُصاب الكثير من الناس بكآبة وحالة هستيريا انتحارية، وكيف استطاع أبي أن يتمالك نفسه ويسيطر على أعصابه في تلك اللحظات الصعبة أثناء فترة الاستجواب. كان وكأنه شجرة قوية صامدة أمام الريح العاتية فلم يتمكنوا من تحطيمه باتهاماتهم الكاذبة. كانوا يتهمونه بشتى التهم وعندما ينفي ما يلصقونه به من التهم كانوا ينهالون عليه ضرباً بالعصي ويشتمونه بأقذر الشتائم الوقحة. كانوا مجموعة وحوش مفترسة بشكل بشر كانوا يربطونه إلى كرسي ويضربونه حتى يفقد وعيه. كانوا يجبرونه على الوقوف حافي القدمين على أرض كونكريتية باردة عدة ساعات إضافة إلى تعرضه إلى الهزات الكهربائية. استمرت جلسات التحقيق والتعذيب أياماً وساعات طويلة، كانوا أحياناً يتركونه لعدة أيام ثم يعودون إليه. هكذا قضى الأيام والأسابيع ونحن نجهل كل شيء عن مصيره.

بدأ أبي ينهار نفسياً عندما أخبروه بوجود دليل الاتهام ضده! وما هو ذلك الدليل؟ قالوا له إنك ضحكت على نكتة! كان ذلك الدليل نكتة (مزحة) يتهامس بها الناس فيما بينهم ويضحكون حول قيادة الحزب القطرية القومية. ارتعب أبي من ذلك الاتهام لأنه كان حذراً دائماً في حديثه مع الناس. وفعلاً جعلوه ينصت إلى شريط مسجل- لتلك النكتة- بينه وبين والدتي في غرفتهما في البيت. كانا يتحدثان ويضحكان وكانت والدتي قد سمعت النكتة من إحدى الصديقات فقد كان الناس يتداولونها همساً. صُدِم أبي عندما سمع دليل الإدانة -التافه- وهو- نكتة قد ضحك عليها مع زوجته في غرفة

نومهما! أصبح التجسس على الناس في غرف نومهم آخر ما لدى البعثيين من أساليب دنيئة في التجسس. دهش والدي لتطور أساليبهم فكيف أوصلوا أداة الإنصات إلى غرفة نومه؟ كان الشريط قد سُجِّل قبل ما يقرب السنة.

لم يكن التعذيب في مركز المخابرات جسدياً فقط بل كان نفسياً أيضاً. بدأوا يهددون أبي بأنهم سوف يجيئوا بنا كلنا مع أمي الى ذلك المكان. هذا التهديد- بتعذيب الأبناء واغتصاب النساء - هو من أساليب الطغيان والدكتاتورية منذ فجر التاريخ في جميع أنحاء العالم ضد الأحرار والعظماء. هذا الأسلوب يجعل معنويات الرجل العالية تنهار حالاً فيستسلم لكل طلبات معذبيه ليجنب عائلته ما ينتظرها من مصير أسود، ولا يوجد في العالم إنسان سوي يقبل بتعذيب واغتصاب أهله. إنها نقطة الضعف عند جميع الرجال وكذلك حال أبي فقد أراد لنا الأمن والسلام وتحمَّل كل أنواع التعذيب الجسدي والنفسي ولكنها تهون أمام تهديداتهم القذرة بإيذائنا نحن وأمي فأخذ يتوسل لهم «أرجوكم اتركوا عائلتي وشأنها. افعلوا ما تريدون بي........ اقتلوني أنا.... أرجوكم........ اتركوا عائلتي بسلام وسأفعل ما تطلبونه مني».

عرفوا نقطة ضعفه وأجبروه على اعترافات بكل تهمهم الباطلة. أجبروه أن يضع توقيعه على أوراق بيضاء لكي يكتبوا ما يشاؤون فيما بعد! ومثل هذه «الاعترافات» تصبح الدليل القانوني على إدانة الأبرياء! طلب أبي منهم أن يرى ما كتبوه فأجابه أحدهم بضربة صاعقة على رأسه ووجهه مما أصاب الضرر الكبير لعينه اليسرى فبقيت مصابة منذ ذلك الحين وحتى وفاته. وقال أبي أيضاً إنه كان

ينام على الأرض العارية طيلة أيام احتجازه في مركز المخابرات، لم يكن لديه ملابس سوى ملابسه الداخلية، أصابه المرض والهزال الشديد، كانوا يضربونه باستمرار وبقسوة على رأسه وبعد أيام قليلة من اختطافه أغمي عليه وتعرض لذبحة صدرية فجاؤوا له بطبيب من الوحدة العسكرية أعطاه علاجاً بسيطاً.

تحدّث أبي حول ما رآه في مركز المخابرات وموقف الفضيلية من ظلم واعتداء لا يمكن تصديقه: رأى رجلاً قد حطموا عظام جسمه فهو لا يستطيع الجلوس أو الوقوف، ورأى رجالاً معصوبي العيون يسحبون إلى غرف الاستجواب والتعذيب. كان المتهمون يوضعون في زنزانات انفرادية ويتعرضون للتعذيب القاسي أثناء التحقيق. أما في الفضيلية فلم يكن هناك تعذيب غير أن المكان كان مقرفاً وقذراً، يتكدس عدد كبير من المحتجزين في غرف صغيرة من دون نوافذ وتفتقر إلى النظافة والتعقيم. هناك التقى أبي بعالم محترم كان قد درس في جامعة هارفرد ويحمل شهادة الدكتوراه. كان سبب وجوده هناك وقوفه ضد فساد البعث في الجامعة فأرادوا إزاحته.

استمرت الأحزان والآلام ولم يكن هناك بصيص أمل في نهاية ذلك النفق المظلم. كانت حكومة البعث تحجز الناس لعدة أشهر بل حتى لسنوات من دون أي محاكمة أو إدانة بل بإمكانها أن تبقيهم في السجون حتى نهاية حياتهم. إنها حقبة مظلمة ومؤلمة لا أحب تذكرها. إنها الألم الذي يبقى في أعماق الإنسان مدى الحياة، إنها الجرح الذي لا يمكن شفاءه. ولم يكن يسمح لأحد أن يتقدم بشكوى أو حتى استفسار عن سبب اعتقال ولده أو أخيه أو أبيه. كانت حكومة البعث سلطة عليا لا تخضع لأي مساءلة قانونية. مثلها مثل سلطة «الخمير

الحمر» وجرائمهم في كمبوديا. كان للبعثيين حق اختطاف وتعذيب وقتل الأبرياء كما يشاؤون! كان الجلاوزة يغتصبون الفتيات والنساء أمام إخوانهن أو أزواجهن. كان هذا أسلوب البعث في تحطيم الضحايا وتدمير كرامتهم، كان نظام البعث أسوأ بكثير من النظام النازي والنظام الستاليني وهناك المزيد من المظالم التي فاقت جرائم النازية.

بعد أسابيع الانتظار والمتابعة تمّ تحويل قضية والدي إلى «المحكمة» (محكمة الثورة) والحاكم- بالطبع - من أفراد الحزب وعصابة الإجرام نفسها وهو : جار الله العلاف وكان العلاف قد حكم على الكثير من الأبرياء وعلى رجال الدين بالإعدام ومن بين ضحاياه كان الشيخ عارف البصري وهو من رجال الدين المعروفين والمثقفين، وهو واحد من مجموعة أعدمت في وقت واحد وعرفت بمجموعة «الشهداء الخمسة». كانت جريمة هؤلاء تعليم الشباب الثقافة الدينية وعليه فهم رجعيون وأعداء الحزب والثورة. كانت الحكومة بارعة في اختلاق التهم وأخذ الاعترافات لكي تقتل الضحايا أو تسجنهم مدى الحياة.

لم تكن سيطرة البعثيين على جميع مرافق الدولة متكاملة آنذاك وكان الأمر مسألة وقت فقط ليتم ذلك. لذلك كان على البعثيين تبرير أعمالهم الإجرامية في قضايا مهمة مثل قضية أبي وقضية الشهداء الخمسة فعملوا كل ما في طاقاتهم لتغيير المفاهيم الاجتماعية الراسخة في المجتمع من حيث اعتقالهم وتصفيتهم رموزاً اجتماعية معروفة لغير سبب سوى رفضهم تأييد الحزب الحاكم. كانوا يعطون الشكليات القانونية كأسباب لتهمة الشخصيات المحترمة. فمثلاً اتهمت الحكومة العديد من الشخصيات الجامعية بتهمة الماسونية فكل من

تريد التخلص منه تلصق به هذه التهمة، خاصة إذا كان له علاقة بأجانب حتى وإن كانت تلك العلاقة شخصية فقط. اعتقلوا وقتلوا العديد من الناس بهذه التهمة مع أن هذا التنظيم لم يكن موجوداً في العراق وإذا وجد كان بشكل محدود.

هكذا ألصقوا التهم بوالدي بالرغم من عدم وجود أي شيء ضده فقد كان رجلاً معروفاً باستقامته ونزاهته، والجميع يعرف أن الاتهام كان باطلاً، وأن الحكومة هي التي دبرت ذلك. كان أحد أقاربنا محامياً معروفاً وحاول أن يدافع عن أبي. لم يوجد في العراق للمتهم أي حق في الدفاع عن نفسه أو حتى توكيل محام للدفاع عنه ومعرفة التهم الموجّهة له. كانت الحكومة كالوحش لا يمكّن مناقشتها أو الاستفهام منها عن شيء. استطاع المحامي الدفاع عن أبي بعض الشيء فحاول جهده استعمال ما تبقى من قوانين قضائية واستطاع الحضور في المحكمة والاطلاع على كافة الأوراق.

بعد عدة تأجيلات ولقاءات حددت «محكمة الثورة» تاريخ المحاكمة وذهبت والدتي وإخواني في ذلك اليوم وعادوا بخيبة بسبب التأجيل. وحصل مثل هذا التأجيل مرات عدة. كنا نريد أن تنتهي المحاكمة. أخيراً حدّد يوم لصدور القرار. كان العم سعدي على معرفة بشخصيات عليا في القضاء وكان أحد هؤلاء وهو محامٍ آخر قد زارنا في المساء قبل اليوم المحدد للمحاكمة وحمل لنا أنباءً سيئة: المحكمة قد أصدرت حكمها قبل انعقادها! وكان قرار الحكم هو السجن لمدة سنة. أما المحكمة المحدد لها في اليوم التالي فقد كانت مجرد نوع من الشكليات والاستعراضات. غضبت والدتي والآخرون وصاحت: «كيف يمكن هذا؟ وهل هناك بلد في العالم

تنتهك فيه القوانين مثل بلدنا؟ هم أصدروا قرارهم حتى قبل انعقاد المحكمة؟».

لم يستطع المحامي أن يجيب واستمرت والدتي قائلة: «يقولون إنها محكمة وقد أصدروا القرار؟».

قال المحامي: «هذا أسلوبهم ومهما تكلمنا ودافعنا غداً فإن قرار الحكم لن يتبدل».

سألت والدتي: «حتماً ستكون أنت هناك ويجب أن تعترض على ذلك».

قال المحامي: «نعم سأكون موجوداً وسأعمل كل ما بوسعي ليسمحوا للسيد مكي أن يتكلم أيضاً ويقول الحق ويدافع هو عن نفسه ولكني لا أظن أن القرار سيتغير. أنا جئت لأخبركم مقدماً لتكوني مستعدة لسماع الخبر السيىء وأنا آسف لذلك».

أصاب الأسى والدتي طوال الليل وازدادت مأساتها بسبب ذلك القرار الجائر، أي ظلم واستهتار بالقوانين هذا وهو لا يمكن تحمله. غضبت والدتي وأحست بالاحباط وأرادت الاتصال بمنظمة العفو الدولية أو حتى الأمم المتحدة، وأن تخرج إلى الشارع وتصرخ احتجاجاً على الظلم فكيف يصدر الحكم قبل إجراء المحاكمة؟ ولكن أجبرتها خالتي وداد وأخي حيدر على الهدوء حيث إن أي حركة مثل هذه ستزيد في تعقيد الأمور لوالدي. إنها مهزلة، تصدر الاحكام وفق مشيئة الحاكم وليس وفق الحقائق والقوانين. لم تنم والدتي تلك الليلة الظلماء الحزينة.

وفي الصباح ذهب الكبار ـ أمي وإخوتي ـ الى المحكمة

(محكمة الثورة). وجاءهم بعدها عمي سعدي والعم مزهر. كان المطر غزيراً في ذلك اليوم وانتظروا خارجاً حيث لا يسمح لأحد بالدخول. كانت بناية بيضاء بطابق واحد مظهرها يدل على أنها بيت اعتيادي وليس دائرة رسمية. انتظر الجميع عدة ساعات وكان الانتظار مقلقاً حيث لا أحد يعرف ماذا يجري في الداخل ولن يسمعهم أحد. وفجأة فُتح الباب وشاهدوا والدي بلمحة، وقرأ أحد الموظفين قرار الحكم بالسجن سنة واحدة تماماً مثلما أخبرنا المحامي قبل يوم والقرار نهائي ولا يوجد آلية استئناف. أصدر الحاكم قراره بالسجن ونقل أبي إلى سجن أبي غريب.

لم يكن لأي شخص حق الاعتراض ولا الاستئناف في محكمة عليا. لم يكن هناك عدالة ولا قوانين في تلك المحاكمات الصورية، إنها مهزلة واحتقار تام للقوانين وحقوق الانسان. كانوا مجرمين يسيطرون على مصير الآخرين بقبضة من حديد. أعطيت قضية والدي بيد الحاكم العلاف وهي واحدة من بين آلاف قضايا الظلم والاعتداء لكن حمدنا الله فعلى الأقل كان أبي مازال على قيد الحياة ولم يُقتل تحت التعذيب ربما كانت الأمور ستكون أسوأ. خرج أبي من المحكمة يحيطه رجال الشرطة كما يُساق المجرمون إلى حيث كانت سيارة في انتظاره.

كانت أمي ومعها إخوتي يقفون خارج المبنى تحت المطر ورأوا أبي وهو يتجه الى السيارة التي ستنقله إلى السجن، كان المنظر موجعاً، إنه الظلم بعينه. لم يسمح لأحد أن يتحدث مع أبي ويسلّم عليه ويسأله ماذا حصل أو يقول له كلمة وداع أو تشجيع.

رآهم أبي وأراد أن يقول شيئاً غير أن الشرطة دفعته إلى داخل

السيارة، فتح نافذة السيارة ليراهم فلوَّح له أخي عامر بإشارة «V» علامة النصر في محاولة لرفع معنوياته- كان عامر آنذاك شاباً دون الثامنة عشرة ـ أما والدتي فقد تعاظم أساها عندما رأت أبي بهذا الحال وأخذت تصرخ: «مكي .... لا تهتم بهؤلاء ...». ورددت بيتاً شعرياً للشاعر المعروف المتنبي:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل[1]

رددت والدتي ذلك الشعر لغضبها فقد أرادت أن تُعبِّر عن الحق ولو بكلمة لتنفس عن غضبها وإن لم يسمعه أبي. هكذا طبع أمي: كانت دائماً تقول ما تريد أن تقوله وفي هذا الحالة كان تعبيراً عن رفض ما يلاقيه أبي من سوء. وطبعاً الكلام بتلك الصراحة - في العراق- يعتبر جريمة وعدوان على الحزب الحاكم والثورة أي إنه من الممنوعات. بعد ذلك نظر الحارس إلى والدتي وكأنها مجنونة فلا يجرؤ أحد على التفوه بمثل هذا وكان يمكن أن تُعتَقل لو لم يسرع العم مزهر- أحد الأقارب- إلى دفعها لداخل السيارة ويصرخ في وجهها: «هل جننتِ؟ ما هذه السخافات؟ كلامك سيؤذينا جميعاً».

اتجه الجميع إلى البيت وقد أصابهم جميعاً الغضب والاحباط. كان المطر ينهمر بغزارة، والدتي وإخوتي يبكون بصمت والعم سعدي غاضب وهو يرى بأم عينه الإجحاف الواقع على أبي، وكان قد ظن أن بإمكانه تغيير ذلك لصالح أبي. وفي الطريق تذكرت أمي جميع الأيام الجميلة التي عاشتها مع أبي وأحلامها وآمالها في مستقبل أولادها ثم

---

(1) بيت شعر معروف للمتنبي.

أدركت أن كل شيء ينهار أمامها فهي ترى زوجها يُهاجم وهي عاجزة عن مساعدته، وكانت خائفة من الأيام المقبلة فكيف ستدبر الأمور لوحدها في غيابه؟ ولكنها حمدت الله وشكرته لأن أبي ما زال حياً.

زارنا فيما بعد المحامي وكان مستاءً ومحبطاً، وأخبرنا بما جرى داخل المحكمة. فقبل قرار الحكم قدمت المحكمة «دليلاً» على علاقة أبي بجهات أجنبية! وكان «الدليل» هو رسالة توصية كتبها أبي لأحد طلابه في الجامعة. كان هذا الطالب يعمل مع أبي في نفس المجال واسمه عصام. ع وكان قد تقدم للدراسة في إحدى جامعات بريطانيا وهذا بالطبع ما قاله والدي للمحكمة. كتب أبي له رسالة توصية[1] وأصبحت تلك الرسالة «دليل» إدانة وتآمر ضد الثورة والحزب والاتصال بجهات أجنبية ! كان الأمر مضحكاً وهزلياً فلم يصدق أبي ولا المحامي أن تكون تلك الرسالة - التي يكتبها الأساتذة في كل العالم للطلاب أداة أدانة. قُدمت الرسالة لأبي ولم ينكرها أبداً ولا جرم فيها وبالطبع كانت بخط يده وكان معها صورة لأبي وبيده تلك الرسالة. استغرب أبي لأن الرسالة نفسها كانت واضحة بالصورة وأن في خلفية الصورة سجاد غرفة الاستقبال في بيتنا. عرف والدي حالاً أن عصام.ع كان عميلاً للمخابرات وكانت الرسالة مصيدة وُضعت لأبي. فقد ادعى عصام.ع لأبي سابقاً أنه ينوي إكمال الدراسة في الخارج وهو بحاجة إلى توصية أحد أساتذته فكتب له أبي الرسالة بكل صدق ومحبة وتمنى له التوفيق والنجاح.

كان أبي في الصورة يقرأ للطالب الرسالة التي كتبها في الوقت

---

(1) وهذا أمر متعارف عليه في الجامعات العالمية.

الذي كان ذلك الرجل يصوّر زيارته لبيتنا ليصنع الدليل. اندهش أبي من نظام المخابرات وأجهزة تجسسه المتطورة وأساليب تهيئة أدلة الإدانة المزورة. كانت الصورة قد أخذت عن قرب ربما بكاميرا صغيرة جداً مثبتة بساعة معصمه - الرجل- أو حتى في قلم. كان أبي يعلم بوجود مثل هذه الأجهزة المتطورة لدى الشركات الأجنبية ولكنه لم يتصور أن البعث قد حصل عليها، فقد كانت تقنية متطورة جداً. أصبحت الرسالة «دليل» الإجرام ضد أبي واعتُبِرت تآمراً ضد الحزب والثورة. دافع أبي عن نفسه، وأوضح سبب كتابة الرسالة غير أن أحداً لم يصغ إليه فقد كانوا يقلبون الحق إلى باطل ويدبرون المكائد للتخلص من المخلصين لعملهم وبلدهم.

استجوبوا أبي أيضاً عن «سمر» التي التقينا بها في بيروت والتي جاءت إلى بغداد وأرادت زيارتنا. كانوا قد هيّؤوا تلك المرأة أيضاً كمصيدة للإيقاع بأبي واتهامه بالاتصال بالأجانب والتآمر ضد الحزب والدولة. حاول أبي أن يبيّن كيفية تعرفنا عليها غير أنهم لم يسمحوا له بالكلام وعندما تحدث أبي عن التعذيب الذي تعرض له أثناء التحقيق وكشف عن ظهره وأثر التعذيب الكهربائي الواضح وخلع أظافر قدميه وكانت القدمان مزرقّتان وملتهبتان لم يهتم أحد بكل ذلك وقُرىء قرار الادانة المهيأ سلفاً.

أخبرتنا أمي بقرار سجن أبي مدة عام. بكينا أنا وأخواتي، صُدمت وتألمت ولم أفهم لماذا يسجن أبي لعام؟ كنت في الثامنة وشقيقتي في التاسعة ظننا-بعقلية الطفولة البريئة- أن قضية احتجازه مؤقتة وربما كانت خطأً أو حدثاً عابراً وأنهم سوف يطّلعون على الحقائق ويطلقون سراح أبي. ولكن ما حصل كان أسوأ ما يكون، فقد حكموا عليه بالسجن.

تألمنا كثيراً ولم نأكل أو ننام في تلك الليلة الكئيبة، بقيت خالتي قربنا فكانت تكلمنا بحنان وتخفّف عنا محنتنا.

بعدها أخبرتنا والدتي بأننا سوف نلتقي بأبي في العطلة الأسبوعية - يوم الجمعة - كان أبي قد نقل من ذلك المكان المقرف (الفضيلية) إلى مكان آخر. ظنت أمي أنه سيكون أفضل من الأول الذي قابلناه فيه. تلهفنا لمقابلته بعد أن نُقل إلى هناك وأخذنا بعض أشياء المدرسة ليراها (تقرير الدرجات).

وصلنا سجن أبي غريب وهو السجن الرئيسي الواقع في أطراف بغداد. كان بعيداً جداً عن بيتنا. كان مجمعاً ضخماً من الأبنية. مشينا مسافة طويلة حتى وصلنا إلى المدخل الرئيسي. فتشنا الحرس ثم ختم أيدينا ليميز الزوار عن المساجين. وصلنا إلى قاعة كبيرة وقالوا لنا ستجدون سجينكم هناك. رأينا والدي يجلس على فراش على الأرض. أسرعنا نرحب به، لم يكن مرتاحاً مع أن المكان كان أفضل من الأول - الفضيلية- بنظرنا لكننا رأينا أن أبي كان حزيناً ومكتئباً ولأول مرة بعد أسابيع طويلة استطعنا أن نتحدث معه من دون مراقبة مباشرة أو حرس يحيط بنا، حيث كانت الغرفة كبيرة ومزدحمة بعوائل كثيرة جاءت لزيارة أبنائها.

كان أبي غضباناً لأن الحاكم لم يهتم بدفاعه وكان يريد أن يسمعه هؤلاء المسؤولون. لقد نجح البعثيون في التخلص منه وهو الآن في قبضة أيديهم، وتمّ دفن الحقيقة ولن يطلع عليها أحد. كان أبي رمزاً عالياً للإخلاص والنزاهة، وكانت لديه أدلة كثيرة على فساد النظام. فأراد البعثيون التخلص منه فتآمروا عليه في عمله. لم يكن أبي ليصدق ما فعله عصام.ع والآخرون. والآن وفوق كل هذا الظلم عليه أن يتحمل السجن

سنة إضافة إلى ما تحمله من أشهر التعذيب والاستجواب وهو بريء أصلاً. لقد تحمل ما فيه الكفاية واستطاع التغلب على ذلك بأمل أن يكون العذاب شيئاً مؤقتاً ويتضح خطأهم عندما يطّلعون على براءته وسجل خدمته الطويلة، وظن أنهم سيطلقون سراحه. كان أمله أن تنتصر العدالة وأصابته الخيبة عندما سمع قرار إدانته.

وهكذا عندما يكون المرء في حالة يائسة ويضع كل آماله في شيء ما لينقذه من مشكلته ثم لا يتحقق ذلك الأمل يتضاعف حزنه حينئذٍ. في البداية هناك بصيص أمل وهذا يديم حياة المرء في ساعات المحنة حيث يستبشر بأيام أفضل، وعندما ينهار ذلك الأمل تزداد الحالة سوءاً وعند فقدان الأمل يأتي الشعور بالضياع واليأس المطلق والألم العملاق. إنه لأحساس فظيع عندما يتلهف المرء وينتظر ما يفرّج عن حزنه ويحلّ مشكلته ولا يأتي الانتظار إلا بعكس ما يتوقعه وهذا ما حصل لأبي بعد استماعه لقرار المحكمة. لم يدرك أبي مدى حقد وانتقام النظام لمن يعارضه، ومثل هذا الظلم لم يكن مألوفاً في العراق حتى ذلك الحين. أما في السنوات اللاحقة فقد أصبحت هذه الحالة هي القاعدة وليس الاستثناء بل وازدادت وحشية وقسوة هذا النظام.

لم يكن المكان - الصالة الكبيرة - مناسباً لرجل متعب في حال أبي، فالغرفة واسعة ومزدحمة بأكثر من مائة سجين، ولكل واحد مفرشة وضعت بجانب بعضها على الأرض. لم يكن هناك أي قواعد للنظافة والصحة أو شيء من الخصوصية والراحة، فالإضاءة مستمرة ليلاً نهاراً والأحاديث لا تتوقف. كان أبي مريضاً وهزيلاً بسبب التعذيب الذي تعرض له والبرد وقلة الطعام والنوم. أستاء أبي بشدة لأنه سيقضي عاماً كاملاً في هكذا مكان.

أما أمي فقد تنفست الصعداء لأنهم لم يقتلوا أبي وأنه لا يزال على قيد الحياة وهو الآن جالس بقربها يتحدث معها. أحست بمعاناته، وكان قلبها يتفطر ألماً وهي تراه في هذه الحالة من الحزن لم تعهدها فيه من قبل. استجمعت كل طاقاتها وأخذت تزيد من عزمه بكلمات التشجيع. أردات أن تعيد إليه قوته بأمل جديد واستمرت تقول: «نحمد لله تعالى أنك لا تزال حياً . . . هذا كل ما أريده. . . . قد خرجت من ذلك القبر. . . كل شيء سيهون. . . سوف نقضي هذه المحنة معك. . . ولن نتركك وحدك أبداً. . . . سأزورك في كل موعد زيارة ـ يسمح لنا به ـ وعندما لا أكون معك سيبقى قلبي هنا معك». استمرت أمي بهذا الكلام في كل زيارة وهو يحسب الساعات والأيام بين زيارة وأخرى.

بعد أسابيع نقل والدي إلى قسم آخر من السجن وهنا أحس أبي بشيء من الحياة ومع أنه قسم من السجن نفسه غير أنه كان بفضاء مفتوح حيث هناك الشمس والهواء النقي، وكان نظيفاً إلى حد ما. كنا نمشي مسافة طويلة لنصل إلى باحة حيث يقيم بعض السجناء خلف سياج من الأسلاك الشائكة في مكان يشبه المجمعات، لم يكن أبي في تلك المجمعات بل في مكان آخر ـ يعرف بالأحكام الخفيفة ـ وكان يشارك سجينين بغرفة واحدة (شبه خاصة) يستطيع الثلاثة أن يتحركوا فيها بحريتهم ويستقبلوا زوارهم ويلبسوا ملابسهم الاعتيادية. لم تكن الغرفة مثل زنزانة سجن، بل كان غرفة اعتيادية بباب واحد وشباكين، كانت نظيفة وكنا نزور أبي كما تزور العائلتان السجينين الآخرين في كل عطلة أسبوعية. وكان يسمح لعائلة السجين هنا بجلب الطعام والملابس النظيفة وحاجيات صغيرة أخرى، لذا كانت والدتي تهيىء الطعام الذي يحبه أبي وتجلب له الملابس والمناشف النظيفة، كنا نقضي مع أبي عدة ساعات.

أسعدتنا هذه الزيارات لوالدي كما أسعدته، فقد كان قلقاً علينا ويسأل عن كل منا وعن دروسنا وامتحاناتنا، ويتحدث مع كل واحدة منا. كنت أحياناً أحمل معي تقاريري المدرسية ليرى علاماتي الجيدة. تنتهي الزيارة عادة بعد الظهر ويتم إعلان ذلك بواسطة مكبر الصوت فنجمع حاجاتنا ونودع أبي بقبلات على وجهه ويديه، ونغادر المكان بعد كل زيارة وهو يتلهف لرؤيتنا في الزيارة القادمة.

وهكذا أصبحت ذكريات زيارتنا لسجن أبي غريب جزءاً من حياتي وطفولتي. زرنا أبي في أشهر الشتاء والربيع والصيف، وترسخت الذكريات في ذاكرتي. وكلما أسمع باسم هذا السجن تأتيني صور المكان بسرعة فأتذكر المسافة الطويلة التي كنا نمشيها من موقف السيارة وحتى المدخل ثم من هناك حتى غرفة والدي وحيث ينتظر زيارتنا بفارغ الصبر، وأذكر تلك الغرفة ذات الصخر(الطابوق) الرصاصي اللون ونحن ملتفون حول أبي نحدثه وهو سعيد برؤيتنا بالرغم من الحزن بداخله بسبب وجوده في السجن.

«سجن أبي غريب» هذا الاسم يغمرني بمشاعر متناقضة ويجعلني أظن أن بإمكان المرء أن يحب شيئاً ما ويكرهه في نفس الوقت. كرهت ذلك المكان لأنه سجن ولم يكن من العدل أن يُسجن أبي فيه. وأحببته لأني كنت ألتقي بأبي فيه. إن مشاعري متفارقة ومتناقضة حين أتذكر ذلك المكان فكنت سعيدة بالذهاب إلى هناك لرؤية أبي، وكان أبي سعيداً بلقائنا، ولكن من جهة أخرى كنت أكره ذلك المكان لأنه السجن الذي يحتجز أبي. لم أرض أبداً بسجن أبي هناك، وكنت أعلم أنه مسجون هناك بظلم فهو بريء من كل ما دبّروه ضده من اتهامات.

قضيت لحظات من الفرح هناك جالسة مع أبي أحدثه. كنا جميعاً نستمتع في اللقاءات ونضحك أحياناً ونحزن عندما نغادر المكان لأننا نترك أبي هناك. لا أدري كيف كان أبي يقضي تلك الأيام من السبت وحتى الجمعة موعد الزيارة التالية؟

وتذكرني دائماً «حبات الخرز» الملونة بأبي وبسجن أبي غريب أيضاً. حيث كان أبي في بعض الزيارات يعطينا حاجات صغيرة مختلفة تمّ نسجها من الخرز الملون مثل قلادة أو سلسلة أو إسوارة. كان أبي يشتري هذه الأشياء من بعض السجناء الذين يقضون أوقاتهم في عملها ثم يبيعونها - ربما كان ذلك لقضاء الوقت أو للحصول على شيء من المال- كانت تلك الأشياء بألوان وأشكال مختلفة، وبدا لي أن عملها يحتاج إلى صبر طويل ومهارة وهي ذات أشكال غريبة. لم تكن بالطبع وفق الموضة غير أننا كنا نلبسها فهي تذكرنا بأن أبي على قيد الحياة وكعاداته يشتري لنا الهدايا. واليوم وبعد مرور كل تلك السنين وكلما أرى «حبات الخرز» الملونة أتذكر هدايا السجن التي يقدمها لنا أبي عند زيارتنا له.

في زيارتنا كنا نرحب بأبي وزميليه في الغرفة، وفي إحدى الزيارات وجدنا الرجال الثلاثة مثقلين بالحزن. سألنا أبي عن السبب فقال: «لقد شاهدنا اليوم أمراً مرعباً وفظيعاً..... فقد تمّ إعدام عدد من الشباب الأكراد في الصباح .... كانوا بين الخامسة عشرة ودون العشرين من العمر...... قتلوا رمياً بالرصاص وتُركت جثثهم في باحة السجن فترة من الوقت ثم وضعت في أكياس وأخذت من هناك...... كان المشهد فظيعاً..... ما أقسى أن تنتهي حياة هؤلاء الشباب بهذا الشكل. كان أبي مغموماً بذلك الحدث وأكمل الكلام: «رأيت هؤلاء

الشباب يُساقون نحو الموت . . . . . يا لطيف . . . . أوقفوهم في طابور وبعد لحظات أصبحوا جثثاً هامدة على الأرض. . . . . من دون حراك كان المنظر يدمي القلب. . . . . . . لم أصدق ما رأيته. . . . . كيف ينتهي هذا الشباب بهذه الطريقة ؟ . . . . . كانوا في ربيع الحياة والمستقبل أمامهم . . . . يا رب . . . . . كانوا بعمر أولادي. . . . ما أقسى هذه الجريمة! أصبح مستقبل العراق مظلماً بسبب تسلط عصابة البعث على الحكم ثم أضاف أبي قائلاً لأمي: «ربما لن أخرج من هذا المكان حياً. . . . . أوصيكِ أن تسعي لسفر أولادنا إلى خارج هذا البلد . . . . يجب ألا يبقوا هنا. . . سوف تنتهي حياتهم إذا بقوا. . . . . لو أخرجني الله حياً من هنا سأخرج أولادي من العراق». تألمنا جميعاً لقصة الشباب الذي أعدم وارتعبت أنا عندما سمعت تلك القصة وزاد قلقي عندما سمعت كلام أبي حول إخوتي.

انتهى فصل الشتاء وجاء الربيع وبدأ الصيف ومرّت الأسابيع والأشهر ومرت أيام المدرسة وأعياد ميلادنا ومناسبات عائلية مختلفة، وكانت حياتنا الجميلة في ذبول، وازداد توتر أبي وأمي وبدا لي أنهما قد هرما - في الشكل- كثيراً. فأبي ذلك الرجل العظيم بطيبته وعلمه وكفاءته يتآكل في السجن بسبب موقفه الرافض لفساد وجرائم النظام، ولأنه يعرف الحقيقة البشعة لتلك الجرائم. كنّا نحن نعاني أقصى الألم والأسى في حين كان الحزب ورجاله ومرتزقته يستمتعون بإهانة الناس وتعذيب الأبرياء باستمرار. لم يأبه بنا أحدهم وبما سببوه لنا من معاناة التي استمرت لفترة طويلة أجبرتنا التأقلم معها والرضوخ للأمر الواقع. كانت تلك أصعب الأيام في حياتنا ولا أدري كيف خرجنا من هذه المحنة إلا برحمة الله تعالى.

رسخت في ذاكرتي هذه المحنة وكل أحداثها من اعتقال وسجن أبي وكأنها منحوتة على الصخر. أتذكرها بالتفصيل ولن أنسى أبداً ذلك المغرب من كانون الأول عام 1973 يوم اعتقال أبي ويوم رأيت أمي في روع وهلع وجدتي تحيطني بحنانها، وأذكر ذلك اليوم الممطر الذي سألتني فيه المعلمة أمام زملاء الصف عما إن كان أبي في السجن وتلك الزيارة الكئيبة لموقف الفضيلية، وأذكر كيف خبّأت رأسي في معطف والدتي وقد صدمت بعد رؤية أبي في ذلك المكان. أتذكر كل ذلك بأدق التفاصيل ولكني لا أذكر الشيء الكثير من الأمور الأخرى في حياتي سوى زيارتنا لسجن أبي غريب، والطريق الطويل من موقف السيارة حتى المدخل في مجمع أبي غريب، وختم أيدينا عند دخولنا السجن، وجدران السجن بلونها الرصاصي في غرفة أبي في السجن. كانت هذه - السجن والزيارات- هي كل تفاصيل حياتي.

مرت الأسابيع والأشهر وظننا أن شدة المحنة هي في غياب أبي عنا غير أن المزيد من الأقدار والمتاعب كانت في الانتظار.

الفصل الرابع

ياسمين

قبل بضعة أشهر من تلك الأحداث ـ السابق ذكرها ـ كنا قد جلبنا خادمة أو مدبرة منزل تعيش في البيت معنا اسمها ياسمين، وهي سمراء مصرية بقامة طويلة متوسطة الحجم، في منتصف الثلاثينيات من عمرها، كان لها غرفتها الخاصة وحمامها، كانت تساعد والدتي في أعمال البيت المختلفة: التنظيف والطبخ وغيره. لقد اعتادت والدتي دائماً أن يكون هناك من يساعدها سواء كانت مربية أو مدبرة منزل، من هؤلاء أذكر فقط (أم مصطفى) التي توفيت وبقينا من دون أحد ما يقرب من عام لحين استخدمنا (ياسمين) القادمة من مصر.

في بداية السبعينيات جاء الكثير من المصريين ليعملوا في العراق، وكانت ياسمين واحدة من هؤلاء، وما أن اشتغلت عندنا حتى اعتدنا عليها جميعاً وحاولنا جهدنا إدخال السرور إلى قلبها لأنها كانت بعيدة عن أهلها وأطفالها، وفي العيد اعتادت والدتي أن تعطيها مبلغاً إضافياً فوق راتبها لكي ترسله إلى عائلتها، وقد تأقلمت بشكل جيد في عيشها معنا، كانت تبدو سعيدة وكذلك نحن، كنا نحن الأطفال على الأخص نتحدث معها عن السينما المصرية والأفلام

المعروفة في العراق، وكنا نسألها: «هل سبق وأن رأيت الممثلة الفلانية أو الممثل أو المغني الفلاني؟ هل زرت الأهرامات وهكذا» كانت والدتي مسرورة لأنها كما قلت تساعدها في أعمال البيت المختلفة، كما أنها كانت تهيىء لنا أحياناً أطباقاً من الأطعمة المصرية اللذيذة، أحدها كان من الباذنجان المقلي المطعم بالملح والخل وكان طعمه مميزاً ولذيذاً جداً.

على كل حال لقد أحببنا ياسمين كثيراً، وكانت الساعد الأيمن لوالدتي وهكذا مضت الأيام من دون متاعب.

في أحد الأيام قبل أسابيع من اختطاف أبي، كان والدي يتناولان فطورهما في المطبخ، كانا سعيدين يغمرهما الحب وكان منظرهما جميلاً في ذلك الصباح المشرق والنسيم العليل، وكانت ياسمين تقدم لهما الشاي، أثناء ذلك سأل أبي والدتي: «هل سمعت صوتاً في الحديقة الليلة الماضية» قالت أمي: «كلا» قال أبي: «كأني سمعت وقع أقدام في الكراج توقفت قرب غرفة ياسمين كما سمعت بعض الهمهمة ألم تسمعي ذلك؟».

أجابت أمي: «كلا، لم أسمع شيئاً، ربما كنتَ تحلم وأنا كنت تعبة وقد نمت حالاً» قال أبي: «أنا متأكد أني سمعت صوتاً وأخشى أن يحاول بعض اللصوص الدخول إلى البيت، مع أنني تفقدت الممرات والأبواب وكانت مغلقة بالأقفال كالمعتاد وكل شيء بدا اعتيادياً» أجابت والدتي: «كيف يمكن لأحد الدخول؟ لا تقلق ما دامت الأبواب مقفلة والسياج حول البيت بارتفاع مترين كما أنك لم تجد أي قفل مكسور، ولا أظن أن أحدهم سيقفز من فوق السياج،

لا بد أنك كنت تحلم» ضحك أبي وقال مؤكداً: «كلا، لقد كنت مستيقظاً».

وفيما بعد في نفس اليوم تحدثت ياسمين إلى والدتي قائلة: «سيدتي أريد أن أخبرك بشيء، تعالي إلى غرفتي ولكن لا تقلقي، فقط أصغي إليّ».

ذهبت أمي معها إلى غرفتها وسألتها: «ماذا هناك؟» أجابت ياسمين: «في الليلة الماضية رأيت حيّة (ثعبان) على الشباك هنا وكانت طويلة جداً».

قاطعتها والدتي في فزع: «ماذا؟حيّة؟ كلا لا يوجد حيات في بيتنا، هل أنتِ متأكدة؟».

فزعت والدتي من ذلك الخبر لأنها تكره الحيّات والحشرات وغيرها ولا تتحمل وجود حيّة في البيت، لقد كانت جميع سنواتها سنوات سعادة وفرح، وكان البيت خالياً من تلك المخلوقات ولم يسبق أبداً رؤية حيّة فيه.

قالت ياسمين: «لا تقلقي يا سيدتي، لا أريد إزعاجك أنا متأكدة أنها لن تعود» قال أمي: «ماذا تقصدين؟» أجابت: «لقد قرأت عليها دعاء خاص ولن تعود مرة أخرى، أنا دائماً أفعل ذلك، ففي بلدنا يوجد حيّات كثيرة، لا تقلقي لن تعود».

أصاب القلق والدتي فهي تخاف من الحيّات، كما أنها فزعت من فكرة وجود واحدة في البيت، ولكنها تعجبت من كلام ياسمين حول الدعاء الذي بدا لها كشيء من الخرافات وبقيت منزعجة من ذلك الحادث.

بدأت ياسمين تلتقي بضيفة تزورها بانتظام اسمها (زينب) وهي أيضاً مصرية. كانت زيارتها الأولى لتعرفنا بنفسها. قالت ياسمين إنها - أي زينب- صديقة لها. تعجبنا كيف عرفت عنوان ياسمين وجاءت إلى البيت من دون موعد بينهما. حيث لا يمكن لياسمين أن تأتي بأي شخص إلى البيت وهذا الأمر اعتيادي مع جميع العاملين من دول أجنبية، حيث إن الاتصال بالأجانب يسبب غضب نظام البعث، وقد جاءت زينب إلى بيتنا عدة مرات وكانت تسأل ياسمين إن كانت ترغب بإرسال هدايا أو نقود إلى أهلها لأنها (زينب) كانت تسافر إلى مصر بين الحين والآخر، كما أنها كانت تعمل كمدبرة منزل عند إحدى العوائل في بغداد أيضاً، فرحنا لياسمين حيث وجدت صديقة لها تنقل الهدايا وأشياء أخرى لعائلتها في مصر.

استغربنا - والدتي وكذلك نحن البنات- لأناقتها وذوقها في الملابس التي ترتديها فهي لم تكن تبدو كخادمة، كان مكياجها كاملاً وحذاؤها بكعب عالٍ وشكلها جيد، وكان يبدو أنها تتقاضى مبلغاً محترماً وعادة الخدم لا يلبسون الملابس الأنيقة، لأنهم لا يبذرون ما يحصلون عليه من أجر على مثل هذه الأمور، وقد أثار ذلك استغراب والدتي.

كثر سفر زينب إلى مصر بين الحين والآخر، وعلى كل كان انطباعنا عنها أنها شخصية لطيفة ومتحدثة لبقة على عكس ياسمين الهادئة الخجولة التي كنا نتصور أنها تعاني من الشعور بالغربة لفراق عائلتها، فكنا نحاول أن نجعلها سعيدة ونشجع زينب على زيارتها.

خلال فترة اعتقال والدي كان يأتينا زوار كثيرون وباستمرار، وكان بيتنا مملوءاً بهم، كما كانت خالاتي وأخوالي يزوروننا يومياً

وأحياناً يبيتون عندنا، كان الناس يدخلون ويخرجون ولم يهدأ بيتنا أبداً، وهذا كان يريحنا لأننا كنا لا نرغب ببقاء والدتي وحدها، لقد ساعدت خالاتي والدتي كثيراً في هذه المحنة وكنّ يعتنين بالبيت وبنا جميعاً.

كانت خالتي كميلة سيدة منزل ماهرة وتطهو طعاماً لذيذاً. لم تكن خالتي بل إحدى القريبات ولكننا كنا نسميها خالة، كانت حنونة ولطيفة، وكانت تأتي كل يوم وتجلب معها لنا أنواع الحلويات والمعجنات وتبقى عندنا في البيت تهيىء أنواع الاطعمة حيث كان عندنا زوار كثيرون كل يوم، كما أننا كنا نحب طعامها اللذيذ. ولكن ثمة أحداث غريبة حصلت.

كانت خالة كميلة زوجة العم مزهر، وكان يأتي معها أحياناً ولكن سلوكه لم يكن عادياً. فمثلاً كان يردّد وهو عندنا في البيت: «أين مزهر؟ لا أراه هنا، لماذا لم يأتِ؟ هل اتصل؟» وقد حصل ذلك عدة مرات، في البداية لم نفهم لماذا يفعل ذلك وظنناه يمزح. كانت والدتي تستغرب من ذلك وأخذت الشكوك تراودها، ففكرت أنه يعلم بوجود أجهزة تجسس في بيتنا فهو بنفسه -وكذلك والدي- قد حذرانا من التحدث داخل البيت بسبب ذلك. بدأت والدتي تتساءل مع نفسها هل هو عميل للمخابرات؟ هل يمكن أن يكون كذلك؟ ولكن هذه هي أساليب حزب البعث، أن يجدوا أحد الأقارب ليتجسس على قريبه فهو أمر سهل لا يثير الشكوك وطريقة جيدة للتسلل إلى العائلة والبيت. كانت أمي تعلم أنه قد التحق مؤخراً بالحزب لكي يحتفظ بمركزه في الجامعة. بدا لنا أنه يتحدث بتلك العبارات بقصد أنه ليس في البيت مع أن صوته معروف، على كل حال كان سلوكه غريباً.

كانت والدتي في دوامة من ذلك الأمر، وكان حنانها ومشاعرها يتصارعان مع شكوكها. أتعبتها الأحداث واختلطت الأمور في ذهنها وشعرت بالذنب لأن هذه الشكوك تراودها ولم تكن تتصور بأن العم مزهر متورط مع الحكومة ضدنا، ولكن سلوكه كان يبعث على الريبة.

كتمت والدتي تلك الأفكار وظلّت لا تتكلم بشيء، وتظاهرت بأنها لم تلاحظ ذلك السلوك الغريب ولكنها كانت قلقة في داخلها. ظلت تتساءل لماذا يدعي العم مزهر أنه ليس في البيت؟ هل يريد أن يوصل رسالة ما؟ ازدادت شكوكها وخافت علينا (نحن الأطفال) أن يصيبنا أي أذى، ومع أن والدي كان قد حذرّها ألا تتحدث بأي حديث داخل البيت بسبب وسائل التجسس، فإننا فتشنا كل زاوية في البيت ولم نجدها. ازدادت حيرتنا حول من الذي يضعها في بيتنا؟ بقينا صامتين لا ندري ما العمل. أضحت والدتي الآن تتألم بسبب غياب والدي وكذلك باحتمال وجود خيانة من الأقارب، حيث يبدو أن هناك من يتعاون مع المخابرات في داخل بيتنا ويتنصت علينا طوال الوقت. ظننا بأن أسوأ ما كان سيحصل لنا هو سجن والدي، ولكن الآن وفوق ذلك هناك التجسس علينا وقد تجري الأمور بشكل أكثر سوءاً.

بقينا نفتش في البيت عن وسائل التجسس تلك التي كانت تسجل دقائق أحاديثنا ومناقشاتنا الخاصة، وازداد شعورنا بأن البيت ملغوم بتلك الوسائل وعلينا أن لا نتفوه بكلمة ضد الحكومة أو عن قضية والدي. كان هذا الاقتحام لحياة الناس الخاصة غير معهود في العراق على هذا النحو، فالأمر صعب عندما لا يجد الإنسان الراحة

والاطمئنان في بيته. كنا أحياناً نتحدث بالرموز والاشارات، وعندما يزورنا الأصدقاء والأقارب كانت أمي تأخذهم خارج البيت إلى الحديقة لتتحدث معم، وتحذرهم من ذكر اسم والدي أو الحكومة حتى لا تأتيهم المتاعب. وأحياناً كانت لا تتكلم بل تكتب لهم عبارة أو عبارتين لنفس الغرض. أصبح التجسس على الناس داخل بيوتهم طريقة جديدة للنظام يجب على العراقيين تحملها.

في إحدى الليالي كانت خالتي وداد عندنا، وقد جلست مع أمي في الحديقة لكي تتحدثا بحرية، وهذا غالباً ما كان يحصل، فلم تتصورا أن الحديقة كانت أيضاً ملغومة بوسائل التجسس. كانت خالتي وداد تحبنا كثيراً وتقضي معظم الوقت مع والدتي التي كانت تثق بها. وبينما هما تتحدثان قالت خالتي: «أظن أن ياسمين هي التي تقوم بالتجسس، فهي دائماً في البيت وتعرف دقائق الأمور هنا، ولكن السؤال الوحيد هو من الذي يلتقي بها؟ فهي لا تعرف أحداً في بغداد سوى زينب كما أنها لا تغادر البيت إلا معكم».

في الواقع كانت ياسمين لا تخرج من البيت إلا نادراً وإلا معنا. وهي لا تتجول في المدينة بمفردها حيث كنا نحن مسؤولين عنها لأنها غريبة في البلد، وقد أخذنا موافقة السلطة لتشغيلها في بيتنا، كما أنها كانت لا تحب الخروج من البيت ولا تعرف الطرقات في بغداد.

أجابت أمي خالتي قائلة: «لا أدري ما أقول عنها، فهي هادئة وشفوقة وتبدو بريئة. وهذا الأسبوع أنقذت ابنتيّ من التسمم بالدخان وأنا ممتنة لها بذلك».

أشارت والدتي إلى حادث حصل لي ولأختي عندما نمنا من

دون إطفاء المطفأة النفطية في غرفتنا. وهذا النوع من المدافىء استعماله خطر أحياناً لأنه ينتج غازاً ساماً بالاحتراق، وقد تركنا المدفأة طوال الليل، والأسوأ من ذلك أننا أغلقنا الباب وكنا على وشك الموت عندما فتحت ياسمين الباب حيث انتبهت لتأخرنا في النهوض للذهاب إلى المدرسة. ولدى دخولها الغرفة وجدتنا لا نكاد نتنفس، فأخذت تصرخ وفتحت الشبابيك حالاً وسحبتنا خارج الغرفة، كنا لا نزال على قيد الحياة والحمد لله.

أخرجت ياسمين المدفأة وفتحت باب السطح حيث كانت غرفتنا في الطابق العلوي. فدخل الهواء النقي وأنعشنا. وعندما سمعت والدتي الصراخ ركضت هي الأخرى إلينا مذعورة، ولكن ياسمين طمأنتها علينا، وهذا ما جعل والدتي ممتنة لها وقد شكرتها كثيراً وهي تبكي.

صمتت والدتي وخالتي قليلاً ثم تذكرت أمي قصة الحية التي اختلقتها ياسمين حيث لم تصدقها في حينها، وظلت في شك منها. وهكذا أخذت الأمور تتجمع وتتوضح لأمي: فقد سمع أبي صوت كلام قرب غرفتها وصوت خطوات في الممر. من المحتمل أن يكون أحدهم كان قد جاء وتحدث إليها عبر الشباك. ربما كان من الأمن أو المخابرات. فعندما سمعت -حينها- حديث أبي مع أمي حول ذلك الصوت، ادّعت بأن حية كانت قرب النافذة لكي لا يشك أحد بها. وقد نجحت في ذلك حيث لم يشك أحد بها أبداً أو يظن بأنها متآمرة علينا. كان والداي بسيطين وبريئين فلم يشكا بها. ثم فكرت والدتي بما قالته خالتي عن ياسمين ثم قالت: «نعم أعتقد أنها اختلقت قصة الحية عندما تحدث مكي إليّ عن سماعه صوتاً قرب غرفتها».

صاحت خالتي التي لم تكن على علم بذلك: «أي حيّة؟ عن ماذا تتحدثين؟» أخبرتها والدتي بتلك الحادثة وأضافت: «أعتقد بأنك على حق. ياسمين على علاقة بمن يتجسس، ولكن بما أنها لا تخرج من البيت فلا بد أن يكون هناك من يأتي إليها هنا. وكما تعلمين هي تخرج في الصباح عند الباب بمفردها حيث تستلم الخبز في السادسة صباحاً من الخبّاز الذي يجلبه للبيت».

من التقاليد البغدادية أن يوصل الخبز الطازج صباحاً إلى البيت كل يوم، حيث يحمل العامل الخبز إلى عدة عوائل ويوزعه حسب احتياجاتهم. وعندما جاءت ياسمين عندنا أصبحت هي التي تستلم الخبز منه.

ظنّت والدتي أن ياسمين ربما تذهب إلى مكان ما قبل استلام الخبز. وأضافت قائلة: «لم أفكر في مراقبتها أبداً، فأنا وثقت بها وأفترض أنها تستلم الخبز وتدخل البيت حالاً، كما أنها أحياناً تستلمه وأنا لا أزال نائمة لم أنهض بعد. وهذا هو الوقت الوحيد الذي تكون هي فيه خارج المنزل لوحدها، أنت محقّة، إنها تعمل مع المخابرات» واستمرت قائلة: «وأما زينب؟ لا بد أنها هي الأخرى تعمل بنفس الخط فلم يعجبني منظرها منذ رأيتها أول مرة، فهي لا تبدو أنها خادمة، كما أنها تسافر دائماً إلى مصر فكيف تدبر ذلك؟ ولم تذكر لنا أبداً اسم العائلة التي تعمل عندها، وعندما سألتها تهربت من الإجابة، لا بد أنها تعمل مع المخابرات وأنها ليست خادمة واسمها الحقيقي ليس زينب، نحن لا نعرف عنها شيئاً ولا ندري من تكون هي».

ازدادت الشكوك حول ياسمين عندما بدأنا نراها تذهب إلى

زوايا المنزل حيث لا حاجة لذلك، وتتظاهر بأنها تريد تنظيف مكان ما بينما عملها الاعتيادي لا يتطلب ذلك، لذا فقد تعجبنا من سلوكها. وفي أحد الأيام تظاهرنا جميعاً بأننا سنغادر المنزل. خرجنا وتأكدت هي من مغادرتنا وظنت بأننا سنغيب لمدة ساعتين أو أكثر. ولكنّنا لم نذهب بعيداً، فقد طلبت أمي من أختي زينة العودة إلى البيت بهدوء والدخول من مدخل الضيوف، وهكذا فعلت زينة.

في الواقع لأن بيتنا كان واسعاً، فإن مدخل الضيوف كان بعيداً عن مكان تواجد ياسمين، دخلت زينة غرفة الضيوف بكل حذر وأخفت نفسها وراء الباب. كانت الغرفة مظلمة وبعد عدة دقائق دخلت ياسمين إلى هذا القسم من البيت الذي يضمّ غرفة فيها خزانات لحفظ حاجات المطبخ من أوانٍ خزفية وشوكات وملاعق لاستعمال الضيوف. أخذت تفتح الأدراج المغلقة وكأنها تبحث عن شيء لم تجده. وقفت زينة في مكانها أكثر من نصف ساعة وكانت خائفة. غير أننا كنا قريبين منها حيث لم نذهب الى أي مكان. وكان خالي خارجَ غرفة الضيوف في الممر المحيط بالبيت وكان قد طلب من زينة أن تفتح الشباك لكي يسمع إذا حصل شيء ما. عدنا جميعاً وأخبرتنا زينة بما رأت. حينها تأكدت شكوكنا وأصبحت يقيناً ولم يعد ممكن الثقة بياسمين خاصة بعد أن سألتها والدتي إن كانت قد دخلت قسم الضيوف (غرفة الاستقبال والطعام والمطبخ) وأنكرت ذلك.

عند الشرفة المطلة على الحديقة في خارج البيت توجد غرفة صغيرة نستعملها لخزن بعض الحاجات والأدوات التي تستعمل لأغراض بالحديقة. وهناك ثلاث غرف أخرى صغيرة تستعمل لنفس الغرض في مختلف أقسام البيت. ولكن هذه الغرفة كانت الأكثر

استعمالاً لسهولة وصولنا إليها، فهي في الطابق الأرضي. ذهبت زينة في أحد الأيام إلى تلك الغرفة تفتش عن بعض الحاجيات، فوجدت الغرفة مبعثرة فقررت أن تنظفها وتعيد ترتيبها ورمي بعض الأشياء التي لا نستعملها. فعادت إلى والدتي لتخبرها بذلك، سمعت ياسمين بذلك فقالت لها: «انتظريني سوف أساعدك» أجابتها زينة بأنه لا حاجة لذلك. ولكن ياسمين أصرّت على ذلك فقالت لها والدتي: «انشغلي أنتِ بعملك وأنا سأذهبِ لأساعدها». وهكذا كان وبينما كانت أمي وزينة تعملان في الغرفة رأت والدتي صرة غريبة الشكل فسألت زينة إن كانت تعرف ما بها فأجابتها بالنفي. فتحت والدتي الصرّة فوجدت صرّة أخرى جديدة بداخلها، فتحتها فوجدت فيها مبلغاً كبيراً من العملة الورقية بمئات الدنانير العراقية. كان المبلغ كبيراً يعادل آلاف الدولارات.

استغربتا والدتي وزينة من وجود ذلك المبلغ هناك وقرّرتا تركه هناك كما كان في صّرته. ثم رمتا بعض الحاجات التي لا تلزم وعادتا إلى داخل البيت وكانت ياسمين تنتظر وسألتهما: «هل رميتما شيء، أريد رؤيته» أجابتها والدتي: «فقط بعض الحاجات القديمة التي لا تلزم» قالت ياسمين: «أريد رؤيتها فربما تنفعني فأعطيها لزينب عندما تأتي».

لاحظت والدتي إصرار ياسمين على الذهاب إلى الغرفة ورؤية الحاجات التي رميناها. تصورت والدتي أن النقود تعود لزينب أو إلى ياسمين ذاتها. سمحت لها لكي تذهب إلى الغرفة ورافقتها إلى هناك. تفقدت ياسمين الحاجات، رأت الصرّة لا تزال في مكانها فلم تقترب منها بل لمحتها وأخذت تجمع بعض الحاجيات وتركت الباقي لرميه.

عادت والدتي إلى غرفتها وأخبرت خالتي وداد حول الموضوع، وأكدت أن ياسمين ستعود إلى الغرفة فيما بعد لأخذ الصرّة. قالت لها خالتي: «سأتحدث مع ياسمين لأشغلها عن ذلك، ولكن عليك أن تضعي قفلاً على الباب الآن، يجب أن نعرف ما قصة هذه النقود قبل أن تخفيها».

ازداد أمر ياسمين ريبة بعد قضية الحية وزينب، وتفتيشها في زوايا البيت ثم وجود هذه النقود. فرأت أمي أن تسأل الجيران إن كانوا قد رأوا أي شخص يتصل بخادمتنا أثناء وجودنا خارج البيت. ذهبت إلى عائلة جارنا السيد ناصر حيث إن بيتهم يقابل بيتنا. وكانت زوجته ملازمة بيتها تعمل في مهنة الخياطة (في البيت) وكانت تشرب قهوتها مبكرة كل صباح في شرفتها المقابلة لبيتنا والمطلة على الشارع. قالت لأمي عندما سألتْها عن ياسمين: «لماذا تسأليني؟ هل حصل شيء ما؟» قالت والدتي: «نحن نشك بعلاقتها بما حصل لنا كما تعرفين، فهي غريبة تعيش بيننا. فهل رأيتها مثلاً تذهب إلى مكان ما أو تتحدث مع أحد خارج البيت أو أي شيء مثير للشكوك؟ قالت زوجة السيد ناصر: «يا لطيف. . . . نعم أرى رجلاً يأتي لثوانٍ بعد أن تستلم الخبز في الصباح، ولكن لا أدري لماذا؟ لقد رأيت الرجل عدة مرات وكنت أعتقد أنها من المصادفة يمّر من قربها» ثم أضافت: «يا ربي، يا لطيف. . . . نعم إنه لا يكلمها بل يناولها شيئاً ويأخذ شيئاً منها، ولا يستغرق ذلك طويلاً ولا أدري ما الذي يتبادلانه؟ كما أني لم أرها تذهب إلى أي مكان بعيد عن المنزل».

وصفت السيدة ناصر الرجل بأنه طويل، ضخم الجثة، يرتدي سترة بنية اللون، لم تصدق أمي ما سمعته، فكيف لهذه المرأة الغريبة

في البلد والتي لم يمضِ على عملها عندنا سوى أشهر قليلة أن تصبح عميلة للمخابرات وتتجسس علينا في داخل بيتنا؟ إنه سبيل مثالي للمخابرات في التجسس، الخدم هم خير من يقوم بهذه المهمة، فكانت ياسمين تتجول في البيت بكامل حريتها وفي معظم الأحيان تكون بمفردها لأننا خارج المنزل في المدرسة أو العمل. من المؤكد أن هناك من يزورها في غيابنا. صدمت والدتي بما سمعت، وعادت إلى البيت لتخبر خالتي وداد بما سمعت من جارتنا.

جاءت زينب في اليوم التالي لزيارة ياسمين، وأخذ ما لديها لترسله لعائلتها في مصر، لم يظهر أي تعبير على والدتي وخالتي وتركتا زينب وياسمين تتحدثان مع بعضهما البعض كالعادة مع مراقبتهما. ذهبت ياسمين إلى غرفة المخزن لأخذ بعض الحاجيات فرأتها مقفلة. عادت ولم تعلق أو تستفسر عن الأمر بل تبادلت النظرات مع زينب.

بعد ساعة أو أكثر خرجت زينب وبعدها بقليل والدتي التي قررت أن تتبعها بعد مسيرة بضع دقائق إلى نهاية الشارع. كانت هناك سيارة خصوصية في انتظارها، كانت السيارة من تلك الأنواع التي تستعملها المخابرات. ركبت والدتي سيارة أجرة وطلبت من السائق تتبع السيارة الخصوصية التي اخترقت المدينة وتوقفت في مكان ما، نزلت زينب من السيارة ودخلت في أحد الأبنية. سألت والدتي سائق الأجرة عن تلك المنطقة فأجابها: «سيدتي، أنا لا أعرف شيئاً، تعرفين أننا يجب أن لا نكون هنا، لا أريد أن أقول شيئاً آخر» ثم أضاف: «تعرفين من يسيطر على حياتنا، لا أريد أن أذهب أبعد من هذا، انزلي هنا إن أردتِ، أنا لا أريد المشاكل وأنت كذلك، لنرجع إذاً أرجوكِ».

أعاد سائق الأجرة والدتي إلى البيت، ويبدو أنه كان صادقاً ولم يرد إلحاق الأذى بوالدتي، ربما ظن أنها أرادت أن توقعه بالكلام عن الحكومة. كان الخوف والشك بالآخرين قد انتشر بين الناس، والجميع يتصور أن هناك من يتجسس عليه ويسجل حديثه. كانت أساليب النظام هذه قد غيّرت الكثير من العادات الاجتماعية. لقد استخدم النظام مختلف شرائح المجتمع للتجسس حتى الساقطات. كانت تلك المنطقة تبدو سكنية ولكن ينتشر فيها رجال الحرس والمخابرات مما هو معروف بين الناس. لقد تأكد لنا الآن أن زينب كانت تعمل مع المخابرات.

غضبت خالتي وداد عندما علمت ما فعلته والدتي وقالت لها بحدّة: «هل جننتِ؟ كيف تذهبين إلى هناك؟ كان بوسعهم أن يوقفوكِ، الحمد لله أنك عدت سالمة، يجب ألا تلعبي بالنار، تعلمين أن العزيز مكي في قبضتهم وربما سيقتلوه، وكأن شيئاً لم يكن» أجابتها أمي: «كان يجب عليّ أن أذهب، أردت أن أتأكد من حقيقة هذه المرأة».

فيما بعد طلبت أمي من ياسمين أن لا تخرج لاستلام الخبز وطلبت من الموزع أن يتركه عند الباب. ولكن فيما بعد حصل حادث آخر.

جاء موزع الخبز في الفجر وترك الخبز. أما ياسمين فلم تخرج ذلك الفجر. بقيت خالتي في المطبخ طوال الصباح. سمعت خالتي طرقاً على الباب الداخلي ففتحته، وجدت رجلاً أمامها. كان نفسه الذي وصفته جارتنا. وبصورة عامة لا يدخل أحد إلى الباب الداخلي إلا إذا كان من أهل الدار أو من الأقارب. فمجيء ذلك الرجل

ودخوله إلى ذلك الباب الداخلي يعني أن أحداً ما يعرفه في المنزل، أو أن أحداً ينتظر مجيئه فهو لم يضرب الجرس الخارجي حتى بل دخل مباشرة وطرق الباب الداخلي. وطبعاً كان يتوقع أن ياسمين ستفتح الباب غير أنه فوجئ برؤية خالتي التي سألته: «ماذا تريد؟ من أنت؟» تلعثم وقال إنه قد ضلّ الطريق، وإنه يفتش عن مسكن أحد الأشخاص ثم اعتذر وغادر البيت مسرعاً. خافت خالتي وبقيت في البيت لحين عودة والدتي من المدرسة وأخبرتها بما حصل. تأكدنا الآن أن ياسمين هي التي تسجل أحاديثنا وتعطي التسجيلات الى المخابرات لذلك الرجل وتستلم منه أشرطة أو أجهزة غيرها.

بقينا نراقب ياسمين طيلة ذلك النهار وعندما حان المساء، طلبت خالتي من ياسمين أن تنام في مكان آخر في البيت في غير غرفتها لأننا بحاجة للغرفة في تلك الليلة. دهشت ياسمين لهذه الأحداث التي جعلتها تشك بأن أمرها قد انكشف. اضطربت ياسمين ولم تدر كيف توصل الرسالة للرجل الذي يستلم منها أشرطة التسجيل.

أصبحت ياسمين الآن امرأة متآمرة علينا وتعلمت الكذب والتلفيق، ويبدو أنها قد تدربت على التجسس. لم تعد تلك المرأة البريئة التي أشفقنا عليها عندما جاءت عندنا قبل بضعة أشهر. وبسرعة وغفلة عن خالتي وداد وضعت ياسمين منديلاً أبيضَ في النافذة، ربما كان المنديل (كلمة سر) بأنها غير موجودة في الغرفة وأنها ستنام في مكان آخر. اتفقت والدتي وخالتي مع خالي رعد لكي ينام في غرفة ياسمين ليرى من سيأتي في الليل.

كان خالي ذكياً فقد انتبه الى المنديل الأبيض وأزاحه من

الشباك. كما لاحظ عند إزاحة المنديل الذي انتبه إليه حال دخوله الغرفة، أن المشبك المعدني الذي يمنع دخول الحشرات قد تمّ تمزيقه بآلة حادة وبدا بصورة متعمدة لسبب ما. هذه المشبكات تستهلك عادة بمرور الزمن وربما تتمزق فيتم استبدالها. ولكن ما بدا في شباك ياسمين لم يكن كذلك، بل كما قلت ربما بمقص أو آلة حادة. من المحتمل أن ياسمين كانت تتبادل الحاجات - مثلاً أشرطة التجسس أو غيرها- عبر هذا المنفذ. لم يعد هناك أي شك في إدانتها، لقد كانت امرأة وضيعة.

نام خالي في غرفة ياسمين تلك الليلة - وكنت قلقة عليه، ودعيت الله لكي لا يصاب بمكروه، ولكنه كان شجاعاً جداً فأطفأ النور وفتح الستائر قليلاً ليعطي الانطباع بأن ياسمين موجودة في الغرفة. وبعد منتصف الليل بالضبط سمع نقرات على النافذة. نظر خالي فرأى رجلاً طويلاً ضخماً كما وصفته خالتي وداد، فتح خالي الشباك وسلط ضوء مصباح يدوي على وجه الرجل وصاح به من أنت؟ وماذا تريد؟

أجفل الرجل من وقع المفاجأة ولم يجب بل ركض نحو سياج البيت المجاور وقفز فوقه واختفى. كان السياج الذي يفصل بين البيوت المتجاورة عادة غير مرتفع وبإمكان أي شخص أن يقفز فوقه.

استيقظ الجميع وخرج خالي إلى الشارع يريد الإمساك بالرجل وخرجنا نحن أيضاً وركض إخوتي وخالي في عدة اتجاهات ولكن الرجل اختفى تماماً. تأكد لنا أنه دخل في مسكن رجل المخابرات الذي يسكن البيت الصغير المستأجر له. اتصلنا بالشرطة غير أنهم لم يأتوا، أعدنا الاتصال مرة ثانية وثالثة ولكنهم كانوا يكذبون ويقولون

بأنهم في طريقهم إلينا. وكان موقفهم هذا خلافاً لما حصل سابقاً قبل أشهر-أيام أبي طبر- عندما تسلل أحدهم إلى بيتنا وجاءت الشرطة بسرعة وقامت بتفتيش المكان وأوقفت سائق سيارة الأجرة.

أفزعنا ما حصل. إذن حتى الشرطة لم تأتِ لمساعدتنا هذه المرة. أحسسنا بالهزيمة فهؤلاء الشرطة يعرفوننا وقد ساعدونا سابقاً، ولكنهم الآن خذلونا وتجاهلونا، فقد أصبحت الشرطة أداة بيد النظام. استيقظ الجميع بسبب تلك الفوضى في الليل وكذلك ياسمين التي أخذت تسأل عما يحدث، وقد شحب وجهها وبدا عليها بأنها خائفة مثلنا من أن يعود ذلك الرجل مرة أخرى حاملاً سلاحه. تركنا جميع مصابيح البيت والحديقة مضاءة طوال الليل. كما أننا لم نتمكن من النوم حتى الصباح. آرقنا وأغضبنا كثيراً تورط ياسمين بهذه الأحداث ولكننا لم نستطع فعل شيء حينها.

في اليوم التالي زارنا بعض الضيوف وكانت والدتي متعبة وشاحبة. أخبرتهم والدتي عما حصل في الليلة الماضية، كان من بين الضيوف عائلة دبلوماسية كانت قد سكنت في مصر عدة سنوات وقد تألمت هذه العائلة لما حدث لأبي. وما أن دخلت ياسمين لتقديم الشاي لم تتمالك المرأة نفسها وصرخت في وجه ياسمين غاضبة: «لماذا تصرفتِ هكذا». سكتت ياسمين في البداية لأنها فوجئت بما قالته المرأة، وأدركت بأننا عرفنا تورطها في التجسس والخيانة. استمرت المرأة في تأنيبها قائلة: «ألا تدركين؟ هؤلاء الناس الطيبون، السيد مكي وزوجته قد آوياك وفتحا بيتهما أمامك وعاملك الجميع كواحدة منهم وعشت وأكلت من طعامهم فكيف تخونينهم، كيف ستجيبين الله؟».

انهارت ياسمين وأخذت تبكي واعترفت بتورطها، ومن دون سؤال اعترفت بكل شيء قائلة: «لقد هددوني إذا لم أنفذ أوامرهم، كانوا سيسجنوني ويعيدوني إلى بلدي، كان عليّ أن أطيعهم، أخبروني ما المطلوب ونفذته، أعطوني أدوات تسجيل صغيرة أصغر من علبة الكبريت وطلبوا مني أن أضعها في غرف البيت، وكانوا يجلبون لي أشرطة جديدة ويأخذون القديمة».

أخذتنا ياسمين إلى غرفة الصالة وأشارت إلى أماكن التسجيل، وكذلك في غرفة نوم والدي. كانت تلك الأجهزة صغيرة ولا يمكن لأحد ملاحظتها. كانت زينب تقوم بتدريبها على استعمالها، وكان ذلك الرجل وغيره يتصلون بها ويعطونها التعليمات. كانت تدخلهم إلى البيت عندما لا نكون هناك. أضافت ياسمين: «كنت مجبرة على ذلك، فكما تعلمين يا سيدتي لديّ أولاد في مصر يحتاجون الى المال ولا يمكنني أن أخسر عملي، ماذا سيحصل لهم؟ لقد كان السيد مكي عطوفاً معي. وأنا مغمومة لأنه تأذى بسببي، أدعو الله أن يغفر لي، ليتني ما فعلت وليتني لم آت إلى العراق أصلاً».

أصابنا هذا الاعتراف المفاجئ من ياسمين بكل ما عملته بالذهول. لم نرد أن نصدق ما قالت. أما أنا فأحسست حينها أن ماءً بارداً يغمرني. غضبت أمي كثيراً وأخذت تصرخ بها وهمّت بأن تضربها وصاحت بها: «أنت يا ياسمين قمت بكل ذلك وحطمت حياتي؟ أيتها الساقطة». أخذت ياسمين تطلب الصفح والمسامحة من والدتي وهي تقبل يديها وأرادت تقبيل قدميها - وهذا أسلوب تقليدي ومذل في طلب الصفح في بلادنا الشرقية وعلى الأخص الدول العربية- وهي طريقة في قمة التذلل عندما يعترف أحدهم باقترافه

جريمة أو قيامه بعمل شائن ضد آخر ويطلب منه المغفرة. لم تتأثر والدتي بذلك التوسل وسحبت قدميها بعيداً عن ياسمين إشارة إلى عدم رضاها وعدم قبولها مسامحة ياسمين.

أخذ إخوتي والدتي إلى غرفتها وهي في قمة غضبها مصرّة على معاقبة ياسمين وأجبروها على البقاء هناك. غادر الضيوف بيتنا وأسرعت خالتي وداد إلى والدتي لتهدئتها وإسكاتها قائلة: «توقفي عن هذا الكلام. هل تريدين أن يأخذوا أولادك أيضاً؟ مكي لا يزال بين أيديهم ويمكنهم أن يقتلوه بلحظة ولا أحد يمنعهم من ذلك. ياسمين عميلتهم وليس بيدنا شيء».

ظلّت والدتي غاضبة ومتوترة. جاء العم مزهر وعلم بما حصل فصاح بوالدتي: «افهمي جيداً لا يمكنك إيذاءها أو إهانتها. ستغادر ياسمين العراق قريباً، ويجب أن تعطينني كل أوراقها ووثائقها الخاصة مع أجورها. سآخذها إلى بيتي لحين مغادرتها العراق».

دهشنا جميعاً لسماع ذلك فصاحت والدتي: «ماذا تقول يا مزهر؟ لماذا تحميها؟ ما علاقتك بها؟ تكلم الآن وقل أن ما أشك به حولك لا صحة له؟» لم يتفوه مزهر بكلمة واحدة. استمرت والدتي: «هل كنت تعلم بما فعلته ياسمين؟ هل كنت أنت معهم منذ البداية؟ ونحن وثقنا لأنك من العائلة!؟».

أخذت والدتي تبكي غضباً وألماً وسأل أخي حيدر: «ماذا هناك؟ هل هذا صحيح؟» لم يجب مزهر فصاحت والدتي: «اخرج من بيتي أيها الخنزير! اخرج أيها القذر! أنت لا تستحق حتى النظر إليك، اخرج حالاً».

غادرت ياسمين بيتنا برفقة العم مزهر، وبعد أيام قيل لنا إنها غادرت إلى مصر. ربما لم تعُد إلى أهلها بل ذهبت إلى بيت آخر لتواصل عملها التجسسي على الناس.

أدى تورط العم مزهر في هذه القضية إلى شرخ بين الأقارب والأهل. غضبت والدتي وخالتي وداد بسبب ذلك، وبكت خالتي كميلة وادعت بأنها لم تكن تعلم أي شيء حول ذلك، ولم تعد تزورنا إلا نادراً فقد وقعت في حيرة ما بين زوجها وقريبتها. كان شرخاً خطيراً في العائلة، وتسبب في الكثير من المتاعب والخصومات. ظلت والدتي لفترة تستقبل كميلة ببرود. كانت عائلتنا ضحية تآمر خطير ليس فقط من الشرطة والخادمة وآخرين بل حتى من أقاربنا، وضحية مخطط رهيب للإيقاع بأبي، واستخدم النظام الجميع عن طريق إغوائهم بالمال والمناصب أو عن طريق التهديد والتخويف.

لم تكن ياسمين امرأة سيئة دوماً، ولكنها أجرمت في تعاملها معنا. وهي لم تكن تكرهنا كانت لطيفة معنا حتى أنها أنقذتني أنا وأختي من حادث التسمم بالغاز، ولكن ما قامت به لا يمكن تبريره أو مسامحتها عليه، لقد نفذت أوامر الحكومة، ربما من الخوف أو الطمع، ولم تكن ترغب في فقدان عملها كما ادّعت ولكن ما قام به مزهر كان أكثر إجراماً وروعاً لأنه كان أحد الأقارب، والخيانة من الأهل مؤلمة أكثر من خيانة الغرباء.

هذا السلوك جعلنا لا نثق حتى بأقاربنا وجيراننا، ولم ندخل بعد تلك الأحداث خادمة جديدة إلى بيتنا، وأخذنا نتعاون جميعاً في أعمال البيت. أصبحنا نشك في كل من نتعامل معه، في حالة ياسمين

والعم مزهر والطالب عصام.ع الذي كتب له والدي توصية أو زملاء أبي في عمله، كانوا أشخاصاً نعرفهم ونثق بهم ونزور بعضهم حيث كانوا أصدقاء لنا، وجميع هؤلاء في النهاية خانوا الصداقة وطعنوا والدي في ظهره بسبب منافع مادية أو معنوية أو لينجوا بأنفسهم من انتقام النظام.

كم هو مؤلم جداً في الطبيعة الإنسانية أن يستسلم المرء للجشع أو المصالح الشخصية من دون التفكير بالأذى الذي سيلحق بالآخرين نتيجة ذلك. أظن أن لجميع البشر مثل هذه الميول ولكننا نحاول كبحها بالتمسك بالقيم والمبادئ السامية التي ترشدنا إلى الطريق الصحيح. كما أيقن أنه من المستحيل على من يسمو بالقيم الأخلاقية والمبادئ السامية أن يستفيد من مكاسب على حساب الآخرين. على كل لقد استغل النظام هذه الطبيعة السلبية عند البعض لتحقيق المكاسب بالمكر والخديعة وإكراه الناس على التآمر ضد الآخرين بل وحتى ضد عوائلهم.

* * * *

تمّ إطلاق سراح أبي في صيف 1975. كان يوماً طالما حلمنا به. كانت مناسبة سعيدة انتظرناها بفارغ الصبر. كان يوماً تهيّأنا له طويلاً كما لو كان يوم زفاف، كان أسعد وأفضل يوم مرّ علينا في تلك الفترة المؤلمة. ذلك اليوم جعلني أستعيد الحياة وجلب لي أملاً جديداً بالفرح الذي سيغمرنا جميعاً. كنا نعدّ الدقائق والساعات لرؤية والدي عائداً إلى البيت.

كان يوماً بهيجاً، هيأنا داخل البيت لاحتفال كبير ولكننا كنا

حذرين أن نظهر ذلك خارج البيت، فنحن لم نرغب في إثارة المشاكل مع السلطة. فقد يوقفون الإفراج أو يعقدونه. نظفنا البيت وزيّنا الغرف ودعونا أفراد عائلتنا من الأقارب فقط، وطبعاً لم ندعُ العم مزهر. كما قامت خالتيّ وداد وناجية وأختي زينة بتهيئة الطعام بينما ذهبت والدتي مع أخوتي ورجال العائلة إلى سجن أبي غريب لاصطحاب والدي.

أرى من الواجب هنا أن أذكر، أننا في تلك المحنة التي استغرقت عدة أشهر، رأينا محبة وحنان عائلة والدتي خاصة من أخواتها، فقد غمرننا بالرعاية والاهتمام، كم هو جميل هذا الحب بين الأخوات وكيف يساعد بعضهن البعض في الشدائد والأزمات. إن خالاتي وجدتي يستحقن هذا المديح بامتياز. فقد بقين في صحبتنا طيلة تلك الأيام المرعبة، وأبدين كل العون لوالدتي سواء في تمشية أمور البيت أو في الشؤون المالية. كنّ يصطحبننا أحياناً في نزهة خارج البيت للترفيه عنا. لقد كان حبهنّ ومساعدتهنّ خير عون لنا لاجتياز تلك المحنة. وبلا شك كانت تحصل أحياناً بينهم بعض المشاكل الصغيرة وسوء تفاهم ولكن كانت تنتهي بالمصالحة لأنها كانت سطحية وبسيطة ولا تعني شيئاً لأي أحد. كانت عائلة أمي قريبة منا دائماً عند المحن وهذا هو المهم والأهم من ذلك أن والدتي كانت محاطة بحنان ورعاية وحب أخواتها ووالدتها اللواتي غمرننا بذلك العطف.

أعتقد أن هذا الحب والولاء من عائلة والدتي لبعضهم البعض أمر يثير الإعجاب وقد كان بالنسبة لي الذكريات الجميلة الوحيدة خلال المحنة. أتذكر أخوالي وخالاتي وهم يحيطون بي وكم كنت

أشعر بالراحة معهم وكانوا معنا في ذلك اليوم الذي عاد به أبي إلى البيت وكأننا كنا أمانة في أعناقهم وأرادوا أن يسلموها لوالدي كان الموقف مفرحاً ومؤثراً جداً.

من الذين كانوا معنا في البيت في ذلك اليوم، هي عمتي التي جاءت عندنا لتبقى مع أبي عدة أيام، وكان انتقالها إلى بيتنا صعباً من حيث تهيئة احتياجاتها حيث كانت مقعدة، ولكنها كانت سعيدة بعودة أبي ومع أنها لم تستطع تقديم المساعدة لنا إلا أن وجودها معنا ومشاركتها لنا مشاعر الفرح في ذلك اليوم كان مبعث سرور لنا ولها، فقد كانت متأثرة جداً لوجودها معنا.

كان يوماً انتظرناه طويلاً، وكانت حفلة غداء لا يمكن أن أنساها أبداً، ذهبت والدتي وإخواني وخالي إلى سجن أبي غريب، كان الجميع متلهفين ويتمنون أن تسير الأمور من دون مصاعب أو عراقيل تؤجل إطلاق سراح أبي.

جمع إخواني حاجيات أبي في غرفته وودّع والدي زميليه في الغرفة وتمنى لهما حريتهما في القريب العاجل بعونه تعالى ووعد بزيارتهما.

استبدل والدي ملابسه بملابس جديدة حملتها أمي له، زادت في أناقته ثم ذهب أبي إلى غرفة المسؤول للتوقيع على بعض الوثائق الرسمية، استغرقت إجراءات إطلاق سراحه عدة ساعات حيث يجب أخذ الأوراق من موظف إلى آخر داخل مبنى السجن وخارجه، وأخيراً وصل الجميع إلى البيت. كانت المسافة طويلة من أبي غريب إلى بيتنا كان الوقت صيفاً والحر شديداً وحيث لا يوجد في الطريق السريع مطاعم أو أماكن استراحة، لم يكن الشارع خطاً سريعاً

بالمعنى المعروف في الغرب بل شارع بجانبين للذهاب والإياب، لذلك كانت القيادة متعبة لمسافة طويلة عادة يحمل الناس معهم بعض الماء والطعام الخفيف (ساندويتش) عند القيام بمثل هذه المشاوير الطويلة.

كنا ننتظر ونترقب وصول أبي إلى البيت، وقد قامت خالاتي بتهيئة الطعام، كان هناك شيء من التوتر كنا نتمنى أن لا نصاب بخيبة أمل، بقيت وأخواتي متلهفات نخرج بين الحين والآخر إلى الباب الخارجي ونراقب مجيء السيارات. كنا نريد مجيء أبي ونخشى أن تأتي والدتي وأخوتي من دونه، أي كنا نخشى أن لا تسير الأمور بشكل جيد وأن يتأخر إطلاق سراح أبي. كنا نراقب وننتظر ونتلهف لرؤية أبي الحبيب.

ثم ذهبت إلى البالكونة في الطابق الثاني المطلة على الشارع الرئيسي لكي أرى سيارة أخي عندما يصل.

كنت أنظر وأنا مستغرقة في أحلام اليقظة، كيف سأقابل أبي وماذا سأقول له؟ أين سيجلس وماذا سيفعل؟ وفجأة رأيتهم فقفزت من شدة الفرحة.

وجاءت اللحظة التي انتظرناها أياماً وأسابيع وشهور، توقفت السيارات فكان أخي حيدر في واحدة وأخي سامر في أخرى والعم سعدي في الثالثة، توقفت السيارات عند المدخل ونزل الجميع في الطابق الأرضي، هرع الجميع إلى الباب الداخلي وفتحوه. خالاتي وأخواتي اندفعوا إلى الخارج لاستقبال أبي، نزل والدي وكم بدا لي أنيقاً ولطيفاً. كان يرتدي بدلة سوداء وقميصاً أبيضَ ورباطاً أحمرَ،

كنت أنظر إليهم من البالكونة في الطابق العلوي. كنا قد هيّأنا أنا وأخواتي أوراقاً ملونة مثل تلك التي تنثر عند زفاف العروسين، عندما رأيت أبي في المدخل أخذت أنثر تلك القصاصات الملونة فوق رأسه وكانت جميلة جداً، نظر أبي إليّ وابتسم حيث كانت أختي زينة وداليا تفعلان الشيء نفسه. أما خالاتي وأخوالي فقد نثروا حبات الشكولاته في الهواء وتساقطت حول والدي. كان الأمر مثل احتفال بسيط خارج المنزل، أما الاحتفال الرئيسي فقد اقتصر في داخل المنزل. اعتيادياً مثل هذه الاحتفالات تعلن على الناس ولكن بسبب كل ما حصل لنا من متاعب وخوفنا المستمر جعلنا معظم فرحتنا تظهر داخل البيت.

دخل والدي ورحّب به الجميع: أخته وأخوه كانا في انتظاره حيث كنا نحن وكذلك خالاتي وأخوالي، احتضن أبي كل منا الواحد بعد الآخر ورحّب به الجميع بمحبة قلبية صادقة. كانت رحمة من الله سبحانه وتعالى أن يعود سالماً. بكينا كثيراً وصلينا كثيراً في غيابه. بالنسبة لي كان الأمر أعظم هدية في العالم أن أحتضن أبي وأقبله وأشعر بحرارة محبته مرة ثانية.

جلس أبي وكان هادئاً وتعباً، كانت العودة إلى البيت في عزّ الحرّ لذا كان الجميع متعباً ومرهقاً بسبب الحرارة والغبار الذي يزداد عادة في الصيف، غير أن الجميع كان سعيداً، كان البيت مبرداً ومريحاً، استراح أبي قليلاً ثم جلست العائلة الكبيرة لتناول الغذاء. لم يتحدث أبي كثيراً وكذلك والدتي كانا صامتين بشكل غريب، فكأن أثر الحزن والألم بيِّن على جميع أفراد العائلة. الأمر يشبه عندما تشعر بالحزن والألم إلى الحد الذي يتلاشى ذلك الحزن ولا يشعر به

المرء، وعندما يستعيد عافيته يظهر على وجهه تلك المعاناة والآلام التي مرّ بها.

فكانت الأحاديث عامة في فترة الغداء وكلمات الدعاء من الجميع أن لا يصيبنا مكروه أبداً. لقد عبّرت خالاتي عن حبهن لأبي ولنا وتمنين لنا السعادة الدائمة. كانت تلك مشاعرهن الحقيقية دائماً.

هيأت أمي بعض الطعام والنقود لتوزعها على الفقراء كما هي العادة في الدول الإسلامية بشكل عام وذلك تعبيراً عن الشكر والحمد لله على اجتياز أي محنة أو مصاب أليم. حيث يؤمن المسلمون أن الصدقات تجلب البركة والرحمة والخير وتمنع وقوع الشر.

ارتاح والدي في البيت بالحب والحنان الذي أحاطته به العائلة بعد غياب استمر أكثر من سنة ونصف، كنت أعود وأجلس قرب أبي كل بضع دقائق وكأني أخشى أن أفقده مرة أخرى. كنت أريد أن ينتبه لي لأحدثه عن مدرستي وأشياء أخرى كثيرة ولكن لم أجد الفرصة لذلك بسبب كثرة الأقرباء معنا في ذلك المساء المشحون بأمور كثيرة. كان يوماً مميزاً ذهب الجميع إلى بيوتهم وتركونا بصحبة أبي نستمتع بأحاديثه ورؤيته، سأل أبي كل واحد منا عن مدرسته ودروسه. ذهبنا أنا وأختي داليا بصحبته نتجول في أنحاء المنزل مرة ثانية وأخذناه إلى غرفتنا ليرى كتبنا ودفاترنا المدرسية. فكان أبي يحمد الله تعالى بين الحين والآخر لأنه وجدنا جميعاً سالمين ولم يصبنا أذى.

مضت الأيام التالية ووالدي يستعيد وضعه الطبيعي بعد أن قضى عدة شهور بعيداً عن البيت. كانت عودته حدثاً كبيراً، بدأ الكثير من الأصدقاء يزورونا ليرحبوا بعودة أبي وسلامته، فكان بعضهم من

أصدقائنا القدامى إضافة إلى أصدقاء جدد وكان الكثير منهم ناساً طيبين وفرحوا من كل قلوبهم بسلامة أبي، كانوا فعلاً يريدون رؤيته ومعرفة ما حصل له لكن أبي كان حذراً، لم يتكلم عن كل ما حصل له أمام الجميع، كان يخشى أن يكون بينهم من يتجسس أو يسجّل أحاديثنا مرة أخرى، كان أبي متحفظاً وقلما يغادر البيت على غير عادته قبل تلك المحنة، كنا سعداء مع زوارنا في هذه المناسبة السعيدة.

قدّم بعض الزوار الهدايا بهذه المناسبة. كانت الهدايا باقات من الورد أو قالب كبير من الكيك والبقلاوة، الحلويات المعروفة في بلادنا، تكون البقلاوة عادة في صينية كبيرة (بقطر قدمين ونصف أو أكثر)، أو أكياس سكر أو حتى التمور وأحياناً كان بعض الأصدقاء من خارج بغداد يجلبون معهم الغنم أو العجل وهذا ربما يبدو غريباً للمجتمع الغربي، أما في مجتمعنا الشرقي فهذا جزء من ثقافتنا وتقاليدنا، وأعتقد لا تزال هذه العادات قائمة. تقدم مثل هذه الهدايا احتفالاً بمناسبات مهمة مثل الزفاف وعودة الحجيج من الحج أو عند الشفاء بعد عملية جراحية وليس في الاحتفالات الاعتيادية.

عند زيارة شخصيات مرموقة يجب علينا أن نقدم أيضاً طعاماً مميزاً مثل القوزي (الخروف المحشو بالأرز واللوز والمشمش) والمشوي في الفرن، وهذه الممارسة نجدها ليس في بغداد فقط بل في المدن الأخرى، وبالطبع عندما يقدم البعض الهدية بشكل خروف أو عجل يبقى هذا الخروف عادة في الحديقة الخلفية للبيت ليومين أو ثلاث، ثم يأتي القصاب إلى البيت ليقوم بذبحه وتقطيعه إلى قطع مختلفة لتوزيعها على الفقراء، ويجب أن لا تأخذ العائلة سوى القليل جداً من اللحم.

وهذا أيضاً من تقاليد وثقافة منطقتنا، ومن المحال أن نجده في الغرب، حيث تقوم منظمات بتوزيع الصدقات بعد أن تجمع التبرعات وتقوم ببعض الخدمات كتقديم وجبة طعام للفقراء.

بينما تتم هذه الممارسات في العراق على مستوى الأفراد والعوائل وليس المنظمات، حيث تقوم العائلة نفسها بتوزيع الطعام على الفقراء مباشرة حيث يتواجد الفقراء في مناطق معروفة ومحددة، أحياناً نجدهم قرب المراقد المقدسة ينتظرون مثل هذه الصدقات، أتذكر أني ذهبت مع أخي حيدر وخالتي لتوزيع المال والذبائح على الفقراء قرب ضريح الكاظمين(ع)، وكان الفقراء قد اصطفوا في باحة المسجد معهم أطفالهم ونساؤهم وكان المنظر محزناً جداً. عند تقديم الصدقات لهؤلاء يشكروننا ويدعون لنا بالخير والثواب، لم تتواجد منظمات العون الأهلية في العراق ـ آنذاك ـ فنظام البعث وضع قيوداً مشددة على تأسيس منظمات أو نواد.

وبالطبع تعود هذه التقاليد (بذبح خروف) إلى النبي إبراهيم(ع) وقصة تضحية الذبح بدلاً عن ولده إسماعيل(ع)، وهذه القصة مذكورة في القرآن الكريم حيث أمره تعالى أن يذبح ابنه، فلما امتثل للأمر أمره تعالى أن يذبح بدلاً عن إسماعيل(ع) خروفاً أو عجلاً[1]. هكذا عندما يجتاز الإنسان خطراً محدقا كالذي حصل لأبي أو عند شفائه من مرضه يأتي الزوار، الأصدقاء ويجلبون هكذا هدايا فالخروف أو العجل تعبيراً عن أملهم وفرحهم بنجاة الشخص.

---

(1) نعلم أن هذه التفاصيل معروفة لدى القارئ العربي ولكنها جديدة بالنسبة للقارئ الأجنبي.

لم تعد حياتنا كما كانت من قبل أبداً، صحيح استعاد أبي حيويته وأناقته غير أن صحته كانت قد تضررت. ساءت صحة أبي بسبب التعذيب الذي تعرض له ثم ضرب على رأسه عدة مرات مما سبب له الإغماء أحياناً وتعرض لجلطة عندما كان في مركز الاستخبارات، وحصلت له عدة جلطات خفيفة بعد إطلاق سراحه. وكذلك كانت آلامه النفسية كبيرة بسبب الظلم الذي تعرض له. كما أنه خسر مكانته المرموقة في دائرته عندما فقد وظيفته حيث منع من ممارسة أي عمل. هذا لا يحصل في الغرب ولكن حصل في العراق حيث الحكومة تسيطر على كافة الأعمال المهنية. كان منعه من العمل استمراراً للانتقام منه وربما أيضاً لحين ينسى الناس قصة اعتقاله إذ إنها كانت تثير الجدل والتساؤل بين الناس والزملاء.

كان الأمر تحولاً صعباً على مستوى الحياة الشخصية لأبي. ليس اتهامه وتعذيبه وسجنه باطلاً فحسب بل كان هناك استمرار التآمر ضده، رفضت الحكومة عودته إلى وظيفته أو أي وظيفة مشابهة فكان صعباً جداً له. خاصة لأنه كان محباً لعمله الذي حقق فيه نجاحاً قبل اعتقاله وانهيار كل شيء. فقد كل الذي عمله وأنجزه في سنوات طويلة.لم يعبأ أو يهتم النظام الجاهل المعتدي بكل تلك الإنجازات، وهذا ما كان يؤلمه ويعذب والدتي. كانت كل هذه المحنة من البداية مؤلمة لأبي وكما في جميع الأزمات التي يمرّ بها الإنسان يتأقلم معها ويحتفظ ببعض القوة لكي يتغلب عليها وبعد أن تنتهي الأزمة تبدو التأثيرات الأخيرة واضحة على حياة ذلك الإنسان وتؤثر بصحته ويبقى متوتراً إلى حد ما لفترة طويلة. كان أبي يشعر بالظلم الكاسح لاتهامه اتهامات باطلة من زملاء العمل الذين يثق بهم، كان ذلك مثل

الخيانة. والأسوأ من ذلك فقد والدي مركزه الوظيفي وحقه في العمل من جديد. كانت تلك محنة أخرى عليه أن يعيشها.

يمكنني الآن أن أشعر كيف كانت مشاعر أبي آنذاك، فقد استغل زملاء العمل طيبته وحنانه ثم خانوها ودبروا له المكائد. شعر بالإحباط لأنه لم يستطع متابعة قضيته مع أي مسؤول. لم يكن القانون ليحميه من ظلم واعتداء النظام الظالم الذي انتهك كل قوانين الدولة ووضعها في خدمته. لم يكن هناك سلطة قضائية يمكنه اللجوء إليها. ومع أننا كنا جميعاً سعداء لأنه خرج من تلك المحنة حياً، ولكننا كنا نرى أثرها على حياته وعلى حياتنا جميعاً. وبسبب سجن والدي ومنعه من العمل عاشت الأسرة في خضمّ الديون لعدة سنوات. تلك المحنة أثرت أيضاً على والدتي فبدت أكثر سناً مما هي عليه، أعتقد أنها كانت غاضبة وحزينة لكل ما حصل لوالدي. من الصعب جداً أن يعجز المرء عن مساعدة من يحب ويرى حبه الوحيد يتألم. ومع أنني كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري، ربما لم أفهم تأثيرات تلك المشاعر على والديّ ولكنني أتذكر دائماً قلقهما المستمر بشكل عام.

أعتقد أن الكثيرين ممن زارنا من الأصدقاء تمنوا لأبي كل الخير، لكنهم لم يساعدوه بشيء يذكر بعد تلك المحنة ربما لعجزهم أو خوفهم، وربما كان البعض غير مخلص في صداقته لنا وكانوا معنا في أيام العز وفي أيام الضيق ابتعدوا، وقد لا يلومهم أحد فالخوف والجبن جزء من الطبيعة الإنسانية.

حاول والداي أن يعيدا أيام الفرح ثانية إلى البيت، وكان الأمر صعباً في الواقع لم ترجع تلك الأيام المشرقة والسعيدة. كان أبي

يقاوم في عدة جهات: صحته أولاً ثم استعادة عمله ومشاكل يومية لكل من يعيش في العراق مثلاً الخدمة العسكرية لمدة سنتين الواجبة على كل من ينهي دراسته الجامعية، وهذا يشمل ـ آنذاك ـ كل من أخي حيدر وأخي سامر، وجميع الذكور المتخرجين من الجامعة.

وأصبح من الصعب جداً ممارسة أي من الأعمال الحرة من دون موافقة البعثيين ووجود علاقات صداقة معهم، ساءت جميع الأمور بعد اجتياز أبي لتلك المحنة. كان أبي يرى المستقبل المظلم للبلاد حيث يمكن للنظام أن يقترف الجرائم ويقضي على المظلوم من دون أي رقابة أو محاسبة. أخذ أبي يفكر منذ ذلك الحين في ضرورة إيجاد طريقة لإخراج إخوتي من العراق.

ساءت الأمور يوماً بعد يوم، ووضع النظام القيود على سفر الناس إلى أي بلد كان باستثناء البعثيين حيث يسافرون متى يشاؤون وإلى أي مكان يريدون. شملت الخدمة العسكرية أخي حيدر، ولم تكن هناك وسيلة لتجنب الخدمة العسكرية إلا من خلال علاقات صداقة مع بعثيين متنفذين وهو ما لم يكن إليه من سبيل، وكان التهرب من الخدمة العسكرية في العراق يُعتبر خيانة عظمى للشباب المكلف.

لم تكن الخدمة العسكرية بمفهومها العام خدمة وطنية، ومعظم الناس يكرهها لعدة أسباب أولها: إنها كانت مسرحاً للدعاية السياسية للبعثيين، فكانت خدمة لنظام يكرهه الناس. كان الجيش بكل تفرعاته لا يعمل لحماية البلد والدفاع عنه بل لحماية النظام، وفي أي استياء شعبي مثلاً في حرب الشمال ومحاربة الأكراد خسر الشعب خمسين

ألف شخصٍ في محاربة مواطنيهم. كان الجيش الواسطة في تنفيذ مخططات حزب البعث. في حالات كثيرة تمّ استخدام الجيش ضد الشعب لذا لم يرغب معظم الناس أن يكونوا أدوات تنفيذ مخططات النظام، وفي بعض الحالات كان الناس ببساطة لا يرغبون العمل في الجيش وكانوا يريدون تحقيق أحلامهم بعيداً عن الحروب والخصومات العسكرية، ويعتقد هؤلاء أن الخدمة العسكرية يجب أن تكون طوعية وليست إجبارية كما في بعض الدول.

أصبح الشغل الشاغل لوالدي أن يبعد إخوتي عن العراق، وتوقع أن يُقدم العراق على أوضاع مأساوية، وبجهود كبيرة ودَفْعِ مبلغ من النقود وتوقيع الكثير من الإقرارات والتعهدات استطاع أَبي أن يهيىء لأخي حيدر وأخي سامر وثائق مغادرة العراق. كان ذلك من حسن حظ أخويّ وتيسير من الله تعالى ومساعدة العم سعدي وعلاقاته الناجحة آنذاك مع مسؤولي الدولة.

كانت السنوات التي أعقبت المحنة بالغة الصعوبة، بالنسبة لأبي ولنا جميعاً، أصبحتُ وكأني أواسي أمي، كنت قلقة بشأنها بشكل مستمر وأخشى على صحة أبي نتيجة الإحباط الذي يشعر به بسبب الاضطهاد والمنع من العمل. كان ذلك الأمر ظلماً ولكن والديّ اعتقدا أنهما سيعيشان الآن بسلام ولن يتعرضا لعدوان الحكومة بعد الآن. عانى أبي نتائج المحنة لأكثر من سنتين، ولم يتحدث أبي وأمي عن مشاعرهما الحزينة أمامي، ربما لأني كنت صغيرة ويكفيني الآن أن أتعجب كيف استطاعا النهوض بعد تلك الضربة الموجعة واستمرا بالحياة.

لا شك أن معنوياتهما ورغبتهما في الحياة كانت قوية، بعد

سنوات قليلة أُعيد أبي إلى العمل ولكن في دائرة أخرى، وفي خلال أشهر قليلة لمع نجمه وتفوق في عمله، كوّن صداقات جديدة وكان لهذا تأثير جيد على نفسيته، واستعاد فرحته لوهلة من الزمن، لا أدري لماذا سمحت له الحكومة بالعودة إلى الوظيفة، وأعتقد أنهم ربما اعتبروا أنه لن يقف في طريقهم، وليس لديه الحيوية والنشاط كما في السابق، والآن كانت السلطة قد سيطرت على كل نواحي الحياة الرسمية وغير الرسمية.

عرف البعثيون أن أبي لن يصبح موضع تهديد لهم. إضافة إلى أن الحكومة كانت منشغلة بتحديث سريع للبنية التحتية في البلاد. وكانت ثروة البلاد من النفط قد تضاعفت، وكان أبي من الطليعة في مجال اختصاصه، وكانوا بحاجة إليه وإلى مهاراته وخبرته، فكان مرشداً لمعظم زملائه وموظفيه ومثل خبرته ومهارته لعدة عقود كان نادر الوجود في العراق، على كل حال بعد تردي الأوضاع الفنية والتكنولوجية في السبعينات أصبحوا بحاجة إلى ذوي الخبرة في هذا المجال.

ومع ذلك لم يتوقف غضب واعتداء نظام البعث علينا، وابتدأت المعاناة من جديد.

الفصل الخامس

البئر العميق المظلم

بعد كل الذي تحملناه، تصورنا أن إرهاب البعث قد انتهى، ولكن خاب ظننا ولا زال هناك أمامنا المزيد من ذلك الإرهاب، ففي عام 1979 أصابتنا محنة أخرى. سافر أخي إلى كربلاء ولم يعد. أذكُر أنه أثناء اعتقال أبي وحتى أواخر السبعينات تصاعدت قسوة الحكومة وتعاملها مع المعارضة السياسية، حيث يتم اعتقال وإعدام الناس بالمئات واختفى الكثيرون في تلك الفترة، كنا نسمع عن اعتقال الطلاب في الجامعات والمدارس وحتى في البيوت، وسمعنا عن إعدام العديد من الشباب، كانت تلك الفترة مرعبة لكل من عاش في العراق، العديد من الناس كانوا ضحايا لحقد البعث وجميعهم كانوا مثقفين ومن العوائل المعروفة، كنا نسمع عن أمهات فقدن أولادهن أو تمّ اعتقال هؤلاء ومن ثم إعدامهم أو اكتشاف جثتهم على عتبة أبواب دورهم. وتمت إبادة الكثيرين بهذه الطريقة. سمعنا قصة اعتقال أحد قادة المعارضة واسمه أبو عصام وقد رموه في حوض بعد أن تعرض لتعذيب فظيع وكان ضربه مستمراً أثناء التعذيب. كما سمعنا قصصاً عن نساء وفتيات تمَّ جلبهن إلى السجن وجرى اغتصابهن أمام أزواجهن أو آبائهن لكي يجبر السجناء والمعتقلين على الاعتراف

بأشياء تريدها السلطة. وهناك العديد ممن تمّ اعتقالهم وقتلهم حالاً من دون أي تهمة أو محاكمة أو أي استجواب.

كان لرجال الأمن «الشرطة السرية» حق قتل أي شخص من دون تحمل أي مسؤولية، كم كانت مأساة العوائل العراقية كبيرة.

سمعنا الكثير من هذه القصص، يمكن للحكومة أن توقف أي فرد لمجرد أن يرفع أحدهم تقريراً عن ذلك الشخص يقول بأنه معارض للبعث أو أنه يتحدث مع الجيران بالقول إن ذلك الجار يجلب الصحف والمجلات الممنوعة.

في الواقع إن كتب المفكر الإسلامي محمد باقر الصدر، المعارض للسلطة، القائد الديني الذي التف حوله الشباب المثقف، إن وجدت في أي منزل فسيتعرض ذلك البيت لاعتداء شبه وحشي. كان عندنا في البيت مثل هذه الكتب حيث اشتراها إخوتي قبل صدور منعها ولم تكن كتباً سياسية حيث لا تتواجد الكتب السياسية في العراق آنذاك، فكانت كتباً دينية وفلسفية. فكان بيع الكتب والمجلات في العراق يخضع لرقابة الحكومة، وبسبب اعتبار كتب هذا القائد ممنوعة أصبحنا في مشكلة محيرة، وجب علينا التخلص من تلك الكتب، قررنا أن ندفنها في حديقة بيتنا خرجت أختي زينة في الليل وحفرت في الحديقة وأخفت بعض الكتب، سمعنا فيما بعد أن الشرطة السرية علمت بهذه الطريقة في إخفاء الكتب حيث استعملها الكثير من الناس وقد أخبرت إحدى صديقات زينة أن الشرطة جاءت إلى بيتهم وفتشت الحديقة ووجدت الكتب المخفية، وأوقفت أخيها، بعد أن سمع أبي ذلك أصابه القلق وخرج وزينة إلى الحديقة وجمعا

الكتب وأحرقاها، كانت خسارة أن تحرق هكذا كتب ثمينة خوفاً على حياتنا وكان محزناً أن نرى هذه الكتب تحترق.

أصبح معظم الناس في موضع الشك والاتهام لأي سبب بسيط مثل أن يكون للعائلة ميول دينية أو سياسية، لم يكن السبب كون الحكومة البعثية علمانية وضد الدين، بل لأن الخطر الحقيقي الذي واجه حكومة البعث في ذلك الحين كان حزب الدعوة الإسلامية حيث اتفق العديد من الشباب المثقف على الانضمام إلى هذا التنظيم وكان الحزب يدافع عن الحرية والانفتاح السياسي في العراق، انتظم العديد في الحزب لأنهم سئموا الفساد المنتشر في البلاد وحرمان غير البعثيين من فرص العمل أو الدراسة، كانت جامعة بغداد قد خصصت معظم المقاعد في الكليات للطلبة البعثيين حتى وإن كان مستواهم العلمي دون المقبول في الجامعة في حين يحرم الطلبة ذوي المستويات الجيدة من الالتحاق بها. كان الناس يفتقرون إلى أبسط أنواع الحرية التي يتمتع بها الآخرون، ومن يسافر ـ إلى الخارج ـ يعلم لماذا تمنع الحكومة سفر المواطنين إلى خارج العراق، كان السفر ممنوعاً إلا في حالات نادرة جداً لأسباب مرضية ومثل هذه الحالات يجب أن توافق عليها اللجنة الطبية الثورية لحزب البعث، وهي مكوّنة من أطباء مرتبطين بحزب البعث وهكذا لا يمكن لأي شخص أن يحصل على رسالة توصية تسمح له بالسفر، كما لا يسمح لأحد من السفر من أجل الراحة والاستجمام.

لقد حرم الفرد في العراق في تلك السنوات من أبسط الحقوق الإنسانية: فهو محروم من العيش بسلام، مجبر على الانتساب للحزب الواحد، وممنوع من السفر، وممنوع من حق الدراسة في

المدارس الأهلية، ومحظور عليه الاستماع إلى إذاعات خارجية حيث تمّ حظر أجهزة المذياع ذات الموجة القصيرة لكي لا يستمع الناس إلى الإذاعات العالمية. كانت الناس تريد حرية الصحافة حرية الفكر، حرية الانتخاب والترشيح وأن يكون هناك احترام للمواهب وللكفاءات والترقية الوظيفية وفقاً لذلك وليس وفقاً للانتماء البعثي، ولكن لم يجرؤ أحد أن يطالب بهذه الأشياء، كان البعث قد كمّم أفواه جميع الناس بإرهابه.

لم يتدخل الكثير من الناس بالسياسة فهم كانوا يريدون حياة اعتيادية، وهكذا أحكم النظام قبضته على جميع شرائح المجتمع وخاصة شريحة الشباب الطامحة إلى تغيير المجتمع نحو الأفضل، هذه الشريحة المكوّنة من طلاب الجامعات والمدارس الثانوية.

لم تتوقف جرائم حزب البعث عند هذا الحد، ففي أواسط عام 1979 والسنوات التالية خرج حزب البعث بأسطوانة جديدة لاضطهاد المواطنين حيث بدأ بتهجير المئات من العوائل بذريعة تبعية الأجداد الإيرانية، وكانت هذه قضية معقدة كان العراق منذ آلاف السنين مركزاً للحضارات، ويعيش بمجتمع متعدد الأجناس والطوائف، الكثير من العراقيين اليوم ليسوا من أصول عربية. العراق يضم العديد من الأديان والأجناس، فهناك عراقيون من إيران وتركيا والأكراد و...... و......والكلدان، لذا فالعراق يشبه موزاييكاً ملوناً من حيث الدين والعنصر، وهناك البشرة السمراء كما هناك البيضاء وهناك العديد من اللغات واللهجات، وبالفعل كان هناك عوائل تبعية عثمانية أو تبعية إيرانية والجميع كانوا عراقيين في الدولة العراقية الحديثة، ومع ذلك فقد بدأت الحكومة البعثية حملة تهجير جماعي لهؤلاء

المواطنين من التبعية الإيرانية، وحصل هذا في الوقت الذي اشتد النزاع بين حكومتي إيران والعراق ولم تبدأ الحرب العراقية الإيرانية بعد.

تمّ تهجير هؤلاء الناس بأسلوب وحشي لا يمتّ بصلة إلى الإنسانية، يمكن كتابة المجلدات عن هذه المأساة وهذا الفصل المحزن في تاريخ العراق، كان تطهيراً عرقياً بأبشع الأساليب، ومع ذلك فقد سكت العالم عن هذه المأساة. يمكن الحديث عن هؤلاء الضحايا بأساليب عديدة. تمّ سحبهم من بيوتهم ومراكز عملهم ومدارسهم وثم إرعابهم في حملة لتهجيرهم إلى إيران مشياً على الأقدام وسط حقول الألغام من دون طعام أو ماء، تفرّق أفراد العائلة الواحدة حيث تمّ أخذ كل واحد من مكان، قضى الكثير منهم نحبه من الجوع أو البرد أو بانفجار الألغام، السعيد من وصل حياً إلى إيران. وجد البعض ـ في إيران ـ من ساعده ليبدأ حياة جديدة هناك، ولكن الأكثرية عانت مأساة الغربة والتهجير، أما نحن في بغداد فقد أرعبنا غياب عائلات مرموقة بأكملها، كان الأمر بمنتهى القسوة، مثلاً تغيبت إحدى زميلاتنا في المدرسة وظنناها مريضة، كنا نتصل بها هاتفياً ولا يوجد من يرد، وفيما بعد نسمع بأن العائلة قد هُجِّرت إلى إيران وهذا حصل لمدرسات ولجيران ومعارف لنا جميعاً، كان الأمر مخيفاً أن تسير في شوارع بغداد وتجد بعض البيوت تمَّ ختمها بالشمع الأحمر، والعائلة قد اختفت.

في الواقع، فإن كلمة تهجير لا تصف بدقة ما كان يحدث. كانت العوائل الآمنة تفاجأ في منتصف الليل أو في وضح النهار برجال من السلطة يأمرونهم بركوب الحافلات الواقفة تنتظر قرب

الباب، ويجب أن يركبوا حتى وإن كان هناك من هو مريض أو عاجز أو مسن، لم يكن هناك أي خيار لهؤلاء الضحايا أمام وحشية البعث. تكدست الضحايا في تلك الحافلات وهي حتى في ملابس النوم، كان هناك أطفال ونساء حوامل وشيوخ وعجائز، وفي أحيان كثيرة كانوا يعزلون الشباب عن كبار السن ويعزلون الأطفال عن ذويهم والرجال عن نسائهم، تتشتت عوائل بكاملها وهي لا تحمل أي نقود ما عدا الملابس التي ترتديها. كان هؤلاء الضحايا يصرخون ويتوسلون بالحرس ليسمحوا لهم بحمل بعض النقود أو الطعام أو الدواء وأشياء أخرى، أو ينتظرون لحين وصول أفراد العائلة الآخرين.

سارت الحافلات مشحونة بهؤلاء إلى الحدود الإيرانية حيث تمّ إنزالهم في البرد القارس من دون ماء ولا طعام. مات الكثير من الشيوخ والعجائز ومن يموت في الطريق يترك هناك أو قد يتمّ دفنه على الحدود الجبلية بين العراق وإيران، هناك قبور الكثير من النساء والرجال الذين ماتوا بهذه الرحلة المرعبة، ماتوا من الجوع أو العطش أو البرد القارس، استمر بعض الأطفال في الرحلة مع الآخرين بعد أن فقدوا ذويهم، رعت بعض العوائل هؤلاء الأطفال والبعض انتظر وصول السلطات الإيرانية لتهيئ له السكن والمعيشة. وكانت موجات متلاحقة من الناس تعاني التعب والجوع والبرد، استمرت حملات التهجير وازدادت منذ مطلع الثمانينات وحتى منتصف ذلك العقد.

ذهب أخي عامر إلى كربلاء لتأدية المراسم الدينية في عاشوراء، حيث يشارك في هذه الشعائر الكثير من سكان العراق سواء

كانوا كباراً أو صغاراً، مثقفين أو غير مثقفين، ومن السُّنة والشيعة، ولم تكن تلك الممارسات التقليدية على علاقة بأيدلوجية معينة بل كانت اجتماعية بمسحة سياسية، وقد أصبحت هذه التقاليد محور المشاعر معادية للبعث وشعاراته. فقد سئم الشباب من انعدام الحرية وكانوا مستعدين للمشاركة بتلك الشعائر. ولم يكن لهؤلاء الشباب ارتباطات أو مسؤوليات عائلية، بل كانوا متحمسين يطالبون بحريتهم وحقوقهم السياسية، وأمامهم الحياة التي يريدونها بعيدة عن النظام القمعي.

كان أخي ضمن تلك المظاهرات أو التجمعات التي تجاوزت الآلاف من الناس وكانوا يهتفون الله أكبر.. الله أكبر، كانت مظاهرة سلمية وكانوا فقط يهتفون بشعارات تطالب بالحرية، حرية السفر، حرية اقتناء الكتب، حرية الكلام، وحرية تنظيم منظمات أهلية، هذه الطموحات تبدو اعتيادية عند الحديث عنها هنا ـ في الغرب ـ ولكن في العراق لا يجرؤ أحد على النطق بها حتى في الأحلام. كانت قوات النظام بالمرصاد وفوراً تتدخل وتسحق كل مظاهرة أو تجمع، وحتى تقتل في موضع الشعائر نفسها الآلاف من الناس وكانت فوضى تمّ فيها اعتقال أخي ونقله إلى مركز الأمن في بغداد.

تميّزت تلك المظاهرة والاعتقالات في تاريخ العراق السياسي، وعرفت بانتفاضة 1979. لقد كان ردّ فعل الحكومة ـ في تلك الأحداث ـ أشد قسوة من تدخل السلطات الصينية في أحداث 1989 الصينية في ميدان ثيانمين التي استنكرها العالم بأجمعه، أما أحداث العراق في عام 1979 فلم يسمع بها الغرب بسبب سيطرة الحكومة على الإعلام بشكل تام، ولم تشر الأنباء العراقية مطلقاً إلى تلك

الأحداث التي استعمل فيها النظام جميع أنواع الأسلحة وحتى الدبابات والطائرات، كان الناس يتناقلونها من فرد إلى آخر في كربلاء والذين استطاعوا الهرب تحدثوا عنها في تلك الأيام، وحتى هذا اليوم لا يمكن لأي وكالة أنباء أجنبية أن تغطي الأحداث إلا إذا كانت مدعوة من قبل الحكومة وبرفقة عملاء السلطة، كانت الحكومة تسحق كل تحرك شعبي قبل أن يتوسع ذلك التحرك، من المحزن أن لا يعلم أحد بذلك ولا يتحدث عنه.

غادر أخي عامر البيت في مساء يوم الخميس، وكان يجب أن يعود في ظهر يوم الجمعة، وبالطبع لم يعد أخي إلى البيت. خيّم علينا الخوف والقلق وخافت والدتي من سوء أو أذى قد يلحق بأخي، قالت بأن أخي أكّد لها أنه سيعود بعد صلاة الظهر ليوم الجمعة وهو قد وعدها أن يتصل هاتفياً إذا تأخر، فهو يعرف قلق والدتي وأبي عليه، قضينا ذلك اليوم في حزن وخوف وتأكدنا من أن شيئاً ما قد حصل، كان ذلك اليوم فظيعاً لنا وقلقت أنا كثيراً وتأكدت أن لوالدتي الحق بخوفها وقلقها، كان أبي عادة في هكذا حوادث هادئاً ومتمالكاً لعواطفه غير أنه مثلنا يشعر بالقلق والخوف.

قلق أبي وروادته الأفكار بأن أخي ربما وقع بين أيدي النظام، كان أبي يخطط لمغادرة جميع إخوتي العراق ولكن الأمور كانت تزداد صعوبة بين أسبوع وآخر، فكانت تصدر قوانين جديدة تجعل من سفر الشباب أمراً مستحيلاً. شعر أبي بأنه قد فشل في هذه المهمة فكان فقط يفكر الآن بسلامة عامر، كان أبي يدرك جرائم النظام جيداً فقد كان هو نفسه أول ضحايا ذلك النظام وعاش تلك المحنة القاسية.

تألم أبي لأن لم يتمكن من مساعدة أخي لمغادرة العراق ـ من قبل ـ مع حيدر وسامر وذلك بسبب أن عامر كان لا يزال طالباً في الجامعة فقد كان أمر مغادرته العراق مستحيلاً.

حاولت أنا وأخواتي مساعدة والدينا لنخفف عنهما مشاعر القلق والخوف وأخذنا نتصل هاتفياً بأصدقاء عامر ونسألهم إن كانوا رأوه أو عرفوا أي شيء عنه، فكانت الإجابة دائماً سلباً، هم ذهبوا إلى كربلاء وعادوا قبل حصول تلك الأحداث. لم ندر إن كانوا صادقين أو يخافون الحديث عبر الهاتف. لم تنم والدتي تلك الليلة فكانت تبكي وتدعو طوال الليل.

في اليوم التالي ذهب أبي إلى كربلاء وهو لم يتعود الذهاب إلى هناك، وفي طريقه إلى هناك للوصول إلى مديرية الشرطة رأى بعض المحلات وقد تحطمت واجهاتها، ورأى الزجاج المتناثر يملأ الشوارع وسيارات متروكة هنا وهناك مما يشير إلى وقوع أحداث عنف أو معارك، أحس أبي بضيق نفس فكأنه توقع أخباراً سيئة، ذهب إلى مديرية الشرطة في بناية صغيرة وفيها بعض الضباط ورجال مسلحون وسألهم عن أخي قائلاً: لقد جاء ولدي إلى كربلاء منذ أمس ولم يعد حتى الآن ونحن نعيش في بغداد وجئت أفتش عنه. سأله أحد الضباط: «إذا كنتم من بغداد لماذا جاء ولدك إلى كربلاء؟» قال أبي «جاء إلى هنا من أجل مراسيم عاشوراء» ضحك الضابط قائلاً: «نعم لقد أوقفنا العديد من الشباب الغوغاء وهم ليسوا مواطنين عراقيين مخلصين. أوقفناهم وأرسلناهم إلى دائرة الأمن في بغداد».

قال أبي «إن ولدي ليس من الغوغاء، هو طالب جامعي مثقف جاء إلى هنا لرؤية المراسيم كما يفعل مئات الناس كل سنة، هل يمكن أن تتأكد إن كان اسمه بين الموقوفين؟» قال الضابط: «اسمع يا سيد نحن لا نحتفظ بسجلات وأسماء لقد أوقفنا المشاغبين وشحناهم إلى بغداد وهناك سوف يتعاملون معهم ولا نعرف أي منهم، يجب أن يموت هؤلاء المشاغبون».

حاول أبي جهده ليعرف شيئاً عن مصير أخي ولم يستطع، تحدث مع رئيسهم الذي كان فظاً وصعباً، أخبره أنه لا يمكن أبداً معرفة هؤلاء الذين أوقفوا أو الذين أطلق سراحهم، فالأمور حصلت بسرعة وفوضى كبيرة.

لدى مغادرة أبي لمركز الشرطة وجد شاحنة مزدحمة بشباب مقيّد يضرب ويشتم وكأنهم حمولة من قطيع ماشية في تلك الشاحنة، فكان الأمر مخيفاً ومحزناً جداً، لم يكن في ذاكرة أبي وجيله مثل هذه القسوة والوحشية، لم يعانِ العراق مثل هذه القسوة من قبل، أبي مثل غيره من الآباء قضوا سنوات طويلة في تربية أبنائهم، وعندما أصبح هؤلاء شباباً يافعين ها هو نظام البعث يعتقلهم ويعذبهم ويذبحهم كما تذبح النعاج. لم يحصل أبي على معلومات عن أخي. كان للنظام البعثي أسلوب حقير في معاملة الناس، فهو يعتقل ويعذب ويقتل حتى قبل معرفة من هو المذنب ومن هو البريء، وكثيراً ما يعتقل الأفراد ويعدمون وبعد ذلك يعترف النظام بالاشتباه بشخصية المطلوبين، حيث أحياناً تتشابه الأسماء أو أسماء الآباء، ويعتقل النظام الأفراد عشوائياً. على كل حال لم يجد أبي أمامه سوى العودة إلى بغداد والبحث عن أخي هناك.

عاد أبي وليس معه خبر عن أخي، كان يعرف أن لا فائدة في التفتيش بالطرق الاعتيادية، حيث لن يعطي أي مسؤول في دائرة المخابرات معلومات لهؤلاء الذين يسألون عن أولادهم، وهي «المخابرات» دائماً تنفي اعتقال أي شخص أو معرفتها باسمه. كانت الأيام تمضي مرعبة، أصبح كل الذي قاسيناه عند اعتقال أبي أمام ما يجري الآن بسيطاً. لا يوجد أمامنا أي بصيص من الأمل، كنا جميعاً تحت رحمة عصابتين من المجرمين: عصابة الأمن العام وعصابة المخابرات، وهؤلاء قتلة محترفون مستعدون لقتل كل من يقف في طريقهم.

كانوا مثل وحوش جائعة متعطشة للدماء ولهؤلاء الصلاحية المطلقة في قتل كائن من كان من دون التعرض للمساءلة أو المحاسبة، كانوا يتلذذون بتعذيب ضحاياهم، انتشر الرعب والخوف حتى من مجرد التفكير في أي تحرك ضد الحكومة، ومع ذلك فقد كان ذلك الظلم وتلك القسوة هي التي جعلت البعض يتحفز ويحشد قواه لمحاربة النظام، وقد عانى الجميع سواء الخائفون أو هؤلاء المستعدون لمحاربة النظام المعتدي. ربما بقي الخائفون على قيد الحياة مدة أطول ولكن من دون شعور بالأمن والسلام، أما الآخرون فقد قتلوا حال الإمساك بهم. هكذا فقد الكثيرون أبناءهم من الشباب والشابات. كان الظلم متجسداً في نظام البعث الذي لم يعرف معنى العدالة والحقوق الإنسانية، تمّ قتل بعض من هؤلاء الشباب أمام ذويهم أو في أقسام الجامعة وأماكن الدراسة أو على عتبة أبوابهم.

كان يجب علينا أن نعتمد على أي شخص له نفوذ أو علاقات

مع رموز النظام لكي نعلم شيئاً عن أخي وكان من المستحيل معرفة مكانه أو ما حصل له بغير ذلك. لم يكن العم سعدي الآن في موقع متنفذ يسمح له بمساعدتنا، ففي أواخر السبعينات حصل تغيير كبير في مراكز السلطة وبين الكوادر الحزبية. كان في داخل النظام صراع خفي ظهر فيما بعد حيث تمّ تصفية كبار المسؤولين في الحزب وحلّ محلهم المجموعة المقرّبة من صدام حسين، ومع أن صدام كان أثناء السبعينات نائب رئيس الجمهورية فهو في الواقع كان المسؤول الأول عن إدارة شؤون الدولة، كانت عناصر الحزب وأبناء الشعب تخافه وتخشاه حتى قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية، حدثُ الانشقاق في السلطة نتج عنه إزاحة البكر وتعيين صدام حسين رئيساً للجمهورية، ومع أن البكر ألقى خطاباً من على الشاشة الصغيرة أعلن فيها تنازله عن السلطة غير أن من المعروف وسط العراقيين أنه أُرغم على إلقاء الخطاب تحت التهديد المسلح.

أما العم سعدي فقد كانت علاقاته مع هؤلاء الذين تمّت تصفيتهم لذا لم يكن له أي علاقة مع هؤلاء الجدد لذا لم يتمكن من مساعدتنا أو ربما أراد أن لا يتدخل حيث قال بأن أخي قد ورّط نفسه مع الغوغاء ضد الحكومة وغضب غضباً شديداً بسبب ذهاب أخي إلى كربلاء فكان يتهم الضحية بدلاً من النظام المعتدي. دافعت والدتي عن أخي قائلة هل هي جريمة أن يذهب إلى كربلاء في عاشوراء، فالناس منذ مئات السنين تشارك بهذه الشعائر التي يحضرها حتى الأطفال أيضاً.

في هذه الأيام كنا نعاني من الوحدة القاتلة، حيث إن أقرباءنا ابتعدوا عنا ولم يبق معنا أحد سوى خالتي «منى» التي بقيت قربنا

طيلة هذه المحنة وخالتي وداد التي كانت تزورنا بين الحين والآخر، أما الآخرون فقد منعهم الخوف من زيارتنا. ربما زارتنا خالتي ناجية مرة أو مرتين. كانت فترة قاسية جداً. لم نكن نزور أحداً. لم نشعر بأي مرح أو سرور. هذه الأيام علمتني معنى الصداقة الحقيقية والمشاعر العائلية الصادقة. أي إنك تعرف الصديق الحقيقي عند الوقوع في الضيق. طبعاً هؤلاء الذين ابتعدوا عنا في هذه المحنة كانوا يريدون النجاة بأنفسهم وأنا لا أكنّ احترام لهؤلاء الأشخاص. فأنا أرى أن الأصدقاء يجب أن يكونوا مخلصين في صداقاتهم ويتحملون ما يعانيه أصدقاءهم في وقت الأزمات والمحن.

إضافة إلى ذلك فإن بعض الأقارب كانوا من عناصر الأمن، وهذا أسلوب النظام من البداية في الحصول على معلومات عن أبناء الشعب. جنّد النظام الجواسيس من جميع شرائح المجتمع. فهم من بين الجيران والأصدقاء والأقارب. يقوم أحدهم بإثارة حديث لكي يدفع الآخرين إلى الكلام والتطرق إلى الأوضاع السياسية، ويكون الحديث مثل مصيدة الفئران. فقد يكون المرء بريئاً ويثق بالآخر ولا يتوقع أن يكون الآخر جاسوساً يسجل حديثه على آلة تسجيل صغيرة يجعلها في ساعته أو حقيبته وقد حصل ذلك لي. فقد سألتني إحدى صديقاتي عن أخي عامر وقالت إنها سمعت بتوقيفه وحاولت أن تأخذ بعض المعلومات مني. كانوا يستغلون العوائل التي يُسجن بعض أفرادها فكانوا يعدون العائلة بالإفراج عن السجين إذا قامت تلك العائلة برفع المعلومات عن الآخرين لحزب البعث. وقد حصل ذلك لنا أيضاً فقد زارتنا امرأة وادعت أن ابنها معتقلاً وأخذت تبكي وتهاجم الحكومة لكي تجعلنا نشاركها في الحديث، ولكن بعد مرورنا

بالتجربة ومعرفتنا بأساليب النظام كنا أكثر حذراً ولا نتكلم بكل ما نعرفه.

حاول والدي العثور على من يساعدنا لكن دون جدوى. لم نعرف أي شيء عن مصير أخي. إنه شعور غريب أن يكون المرء في مثل هذه الحالة من الضياع والحيرة والخوف حيث لا يدري إن كان ولده حياً أو ميتاً، إن كان عليه أن يعلن الحداد أم يصبر. فكان والدي مثل التائه في ظلمة معتمة يتجه نحو أي بصيص من الضوء أو بارقة من الأمل. شغلته هذه المحنة ليلاً ونهاراً.

كانت إحدى زميلات والدتي المحبات لها جداً ـ كان اسمها هناء[1] ـ قد تألمت لحالة والدتي. همست في أذن والدتي قائلة: «أريد أن أقول لك عن امرأة بموهبة عجيبة هي عمياء ولكنها تتكلم بصدق يجب أن تذهبي إليها وأن تعرفي مصير ولدك».

دهشت والدتي وقالت: «ماذا تقولين؟» قالت هناء: «أقسم لك أن أخَ زوجي فُقد وهذه المرأة أخبرتنا عن مكانه. سأذهب معك إليها لتعرفي مصير عامر».

قالت والدتي: «ما هذا يا هناء. ربما المرأة على علاقة مع الحكومة كيف يمكن الثقة بها». قالت هناء: «تأكدي أن لا علاقة لها بالحكومة كثير من الناس يتكلم عن قابليتها، فلها هبة من الله سبحانه وتعالى. عندما فُقد أخو زوجي ذهبنا إليها وأخبرتنا بمكانه وأنه سوف يطلق سراحه وهذا ما حصل».

---

(1) اسم مستعار.

قالت أمي: «أنا والله حائرة ولا أريد أن أذهب إلى العرّافات حيث لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى».

قالت هناء: «هذا صحيح ولكن هذه المرأة محرومة ولا تأخذ المال والناس تتبرع لها وتقدّم لها المساعدة. لقد أخبرتني إحداهن عن حياتها فهي كانت يتيمة الأبوين وعاشت مع عمها ولم يكن عطوفاً عليها وقد تحملت الكثير من قسوة وإهمال عمها فكانت تدعو الله تعالى ليساعدها ثم حصلت لها رؤية أخبرها رجل دين أنه تعالى قد وهبها معرفة الأمور بمساعدته لكي تتمكن من إعالة نفسها ثم بعد ذلك بدأت هذا العمل».

قالت أمي: «حسناً سأذهب. يا ربّي، سأفعل أي شيء لمعرفة مصير ولدي. إن ما يجري لنا هو الظلم بعينه. نربي ونتعب لتربية أولادنا ونفرح ونحن نراهم يكبرون ثم يأتي نظام البعث ليتخطفهم من بين أيدينا، يا ربي احمِ واحفظ ولدي من كل شر».

ذهبت والدتي برفقة هناء إلى بيت المرأة الضريرة واسمها رفعة، كان هناك العديد من النسوة، وكان المشهد محزناً. جميعهن جئن يحاولن معرفة مصير أولادهن. عندما يكون المرء يائساً يتشبث بأي شيء مثل الغريق الذي يتشبث بقشة. مع أن والدتي لم تكن تصدّق بمثل هذه الأمور فهي متعلمة ومثقفة وقد زارت الكثير من دول العالم فقد ذهبت إلى تلك المرأة بسبب يأسها عن معرفة أي شيء عن مصير أخي. كانت المحنة أسوأ من تلك التي حصلت لنا عند اختطاف أبي واعتقاله. أعتقد أن فقدان الأم لولدها أمر فظيع وأن جميع هؤلاء النسوة كنّ يفتشن عن أولادهن أو أزواجهن أو إخوانهن.

جلست أمي تنتظر. لم تكن المرأة الضريرة كبيرة السن ربما في أواخر العشرين أو في أوائل الثلاثين من عمرها. كانت تتحدث إلى امرأة تجلس قربها وقد جلست بقية النساء الواحدة قرب الأخرى. وعندما يحين دور أي منهن تذكر اسم ولدها أو زوجها لتتحدث رفعة عن ذلك الشخص. حان دور أمي وجلست قربها وقالت لها «ولدي اسمه عامر». قالت المرأة «هناك امرأة أخرى ابنها اسمه عامر. حدثيني بشيء آخر عن عامر».

قالت أمي: «ولدي في الثانية والعشرين من عمره وفي السنة الرابعة في الجامعة».

«عرفته، نعم.......... عرفته. هو على قيد الحياة وقد وقع في مشكلة سببها شخص يزوركم في البيت. هذا كل ما أعرف».

شكرتها أمي وأعطتها بعض النقود، جلست سيدة أخرى تسأل عن زوجها. غادرت النساء بيت رفعة ووالدتي مندهشة لكل ما رأته وسمعته من المرأة العمياء. وأخبرتنا بما قالته المرأة عن أخي وبقينا نتساءل من هذا الذي تسبّب في مشكلة أخي عامر. لم يأخذ أبي كلام المرأة على محمل الجدّ فهو لم يؤمن بمثل هذه الأمور. أما أنا وأخواتي فقد أدهشتنا والدتي بما سمعته عنها وعن معرفتها لكثير من الأمور. أخذنا ندعو ونصلّي لكي يحفظ الله أخانا حياً ويعيده إلينا سالماً.

سمعنا في إحدى الليالي طرقاً على الباب، كان شابّاً ـ لم نعرفه ـ قال لنا إن لديه أخباراً عن أخي عامر رحبّ به والداي. فكان شاباً بسيطاً في العشرين من عمره. تردد أبي في الحديث معه حيث خشي أن تكون هذه أيضاً مصيدة أو مكيدة من مكائد البعث. قال

الشاب: «عمي: أنتم لا تعرفوني. اسمي جاسم[1] كنت موقوفاً بنفس المكان الذي فيه ولدكم عامر، وأقول لكم إنه بخير». سأله أبي: «أين كنت؟» قال: «كنت في موقف دائرة الأمن في بغداد وعامر هناك. لم أره ولكن زنزانتي قرب زنزانته وتحدثنا من خلال الباب، وعرف أني سأخرج فأعطاني عنوان بيتكم لأنقل لكم رسالته فهو بخير».

صاحت والدتي: «أرجوك أخبرني هل هو بخير حقاً. هل كان هو ابني عامر؟» قال جاسم: «تحدثت معه مرة واحدة وأعطاني عنوانكم». شكر أبي وأمي الشاب وفرحت والدتي بذلك الخبر «عامر بخير». لم يعطنا جاسم أي معلومات أخرى وغادر المكان حيث يجب أن لا يراه أحد قرب بيتنا. ولا تزال شرطة الأمن تراقبه وتراقب بيتنا. ولم نره بعد ذلك.

شعر والداي بشيء من الراحة لدى معرفتهما أن أخي لا يزال على قيد الحياة. وقررا أن يحاولا جهدهما لإطلاق سراحه. كانت إحدى زميلات والدتي في المدرسة على صلة ببعض المسؤولين في الحكومة عن طريق الأقارب. وحاولت مساعدتنا وعلمت أن أخي في أمن بغداد وقد مضى عليه هناك عدة أسابيع. لم يكن مسموحاً بأي زيارة. حاولا رؤيته ولم يستطيعا. سبق وذهبت أمي إلى موقف الفضيلية بصحبة أخي عامر لزيارة أبي قبل عدة سنوات. والآن هي وأبي ذهبا إلى موقف الأمن يتوسلان أن يسمعا أي خبر عن ولدهما. فكان هناك العديد من النساء والآباء يفتشون عن أولادهم. والجميع يبكي ويتوسل لمعرفة أي شيء. عاد والدي من دون أي خبر عن أخي عامر.

---

(1) اسم مستعار.

بقينا ننتظر ولم نكن نثق بأي إنسان، كان بعض أصدقاء عامر يأتون للسؤال عنه ولم نكن نثق بأي منهم، ولا نتكلم بشيء ربما كانوا أيضاً من جواسيس السلطة.

أطلق سراح أخي فجأة ومن دون علمنا بذلك. في أحد الأيام بعد عودتنا من المدرسة عصراً تناولنا الغذاء وذهب كل منا إلى غرفته. كنا جميعاً في حزن دائم لا نجد في حياتنا سوى ذلك الفراغ الكبير الذي تركه عامر. في ذلك العصر كانت والدتي في المطبخ ترتب الحاجيات عندما سمعت طرقاً على الباب. خرجت لترى من هناك ووجدت سيارة أجرة تقف على الباب وأخي عامر يفتح الباب الخارجي ويدخل صرخت أمي بفرح: «عامر......عامر ولدي العزيز».

سمعها أبي وخرج راكضاً عندما سمع اسم عامر، أخذت والدتي تقبل عامر وتبكي ثم تسجد تشكر الله تعالى. فرح أبي وأخذ يقبّل عامر. كان أخي في مظهر بائس، كان مخيفاً وقد تمزقت ملابسه وقدماه متورمتان. كان حافياً وقد ظهرت بعض الكدمات على وجهه. هذا هو عامر فقد ظهر عليه الشحوب والضعف. أخذنا نبكي عندما رأينا آثار الجروح على جسمه. بقيت أمي تبكي وهي تحضنه طوال النهار، أما أبي فكان يحمد الله تعالى ويشكره على عودته سالماً وأنه لا يزال على قيد الحياة.

قال أبي: «ولدي يجب أن تغادر هذه البلاد بأقرب وقت وسوف أحاول جهدي لكي أساعدك. لا أريدك أن تبقى أبداً. وهذه العصابات لن تتركنا بسلام».

في غمرة فرحنا بعودة عامر نسينا سيارة الأجرة حيث لم يكن

عامر يحمل أي نقود ليدفع له. نبهنا عامر إلى ذلك وهرع أبي ليدفع له ضعف المبلغ الذي طلبه.

لم نصدق أن نرى عامر بيننا وحتى إطلاق سراحه كان مفاجئاً له. قال عامر إنه استيقظ في ذلك الصباح وأخبروه أنه سيفرج عنه في ذلك اليوم. ظنّ أنهم يستهزئون به فقد كانوا يفعلون ذلك بالكثير من المعتقلين ليزيدوا في إيلامهم. أخذ عامر يحدثنا عما حصل له وكيف تمّ اعتقاله وماذا رأى هناك. أثناء مراسيم كربلاء كان عدد الشرطة قد ازداد وكانوا في ملابس مدنية وقد اختلطوا مع الناس المشاركين في الشعائر والواقفين على الأرصفة يشاهدون تلك المراسم ثم بدأوا يعتقلون أي واحد قريب منهم حتى من دون معرفة أسمائهم. كانوا يمسكون بالشباب ويرمونهم أرضاً وإذا حاول أي منهم الحركة أطلقوا الرصاص عليه.

تحدث عامر عن الزنزانات الانفرادية المظلمة. كانت دائرة الأمن أبشع صورة لحزب البعث، ولا يمكن لأحد أن يتصور تلك الزنزانات والرعب، كانت تلك الدائرة مركز حقد وكراهية البعث للناس.

حتى أبي الذي عانى التعذيب سابقاً لم يصدق كل الذي سمعه من تطور وسائل التعذيب.

قال عامر: «وضعونا في حافلات صغيرة في كل حافلة أربعون أو أكثر أخذونا أولاً إلى دائرة صغيرة حيث بقينا يوم أو يومين هناك في غرف صغيرة لم تتسع لنا إلا وقوفاً لم نستطع الجلوس أو التمدد على الأرض. كانت الغرفة مخيفة، رائحة مزعجة وحرارة مرتفعة

وعديمة التهوية، أخذ البعض يشعر بالاختناق واشتد السعال بيننا ثم بدأ الاستجواب الواحد بعد الآخر. دفعني أحد الرجال نحو الحائط وكان بيد أحدهم بندقية قال لي: سأقتلك الآن يجب أن تعدّ من الواحد حتى العشرة بصوت عالٍ».

بدأ أخي بالعد: «واحد اثنان، . . . .». وكان ينتظر أن يموت غير أن الرجل كان يشرب البيرة وقال: «لقد غيّرت رأيي. ولكن لماذا تتآمرون ضد الحكومة؟».

أجابه عامر: «أنا لم أفعل أي شيء. كنت واقفاً على الرصيف أشاهد المراسيم».

قاموا بضربه على رأسه وجميع جسمه حتى أغمي عليه. بعد ذلك وضعوه مع الآخرين في حافلة ونقلوهم إلى دائرة الأمن في بغداد تحت حراسة مسلحة. كانوا يشتمون هؤلاء الشباب بأنواع الشتائم القذرة.. كانت معاناتهم قاسية، وتمنى عامر لو تصطدم الحافلة بأخرى ليموت فالموت أهون مما سيلاقيه في أقبية وزنزانات النظام المعتدي. مع الاعتقال يأتي التعذيب الوحشي الذي لا يتحمله أي إنسان.

وصلوا بغداد وقبل دخول المدينة قاموا بعصب عيونهم لكي لا يعرف أي منهم أماكن اعتقاله. كان البعض يستطيع رؤية تحت عصابة عينيه ويعرف المكان الذي وقفوا عنده. كانت دائرة الأمن العامة المعروفة بالشعبة الخامسة المسؤولة عن نشاطات المعارضة السياسية. رفعوا عن أعينهم العصائب وأدخلوهم قاعة كبيرة. كان عددهم عدة مئات. ومن هناك تفرقوا إلى زنزانات وغرف صغيرة. بعضها بأبواب

والبعض من دون أبواب. كانت بعض الغرف مخصّصة للتعذيب ومجهزة بأنواع أدوات التعذيب مثل العصي الكهربائية وقناني زجاج مكسرة الفوهات وسلاسل وأسلاك. كانت الغرف الأخرى تُستعمل للموقوفين بعد دورة التعذيب والإغماء، كان البعض ينتظر قدوم الضحايا لتعذيبها، كانوا يحتسون أقداح الويسكي ويدخنون، كانوا عصابات بشعة على وجوههم ملامح القسوة والوحشية كأنهم الشيطان بعينه. كيف يمكن لإنسان أن يعذب أخاه الإنسان بهذا الشكل ويستمتع بذلك. هؤلاء يعذبون ويغتصبون الضحايا ويقومون بأعمال وحشية ضد سجنائهم.

كانت هناك ممرات صغيرة مظلمة ورطبة على جانبي الممر خارج القاعة الكبيرة. كانت قطع الملابس المتناثرة مشبعة برائحة الدماء والتقيؤات ورائحة نتنة، وقف عامر مع بعض السجناء هناك ينتظرون وأمامهم أجهزة التعذيب الجديدة مكدسة بعضها فوق بعض. ارتعد عامر عندما تخيل ما سوف يحصل له هناك.

شعر بالغثيان من كل ما رأى. بعد دقائق اقتادوا عامر وآخرين إلى غرفة مظلمة حيث يبقون فيها. على جانبي الممر كانت الزنزانات محشوّة بالبشر وكانت أصوات الصراخ والاستغاثة تأتي من أماكن متعددة. فكان المشهد يحطم أعصاب الإنسان السوي. كان بعض الضحايا يعاني من الحروق والآخر قد تورمت وازرقت قدماه، وكان البعض على وشك الموت على الأرض والبعض جراحه تنزّ من دون توقف. كانت تلك المشاهد تدمي القلوب. أوقفوا عامر ومن معه في غرفة متوسطة الحجم وفيها رجال كأنهم الشياطين، كانوا شبه عراة وقد برزت عضلاتهم القوية. كانوا يحملون العصي والهراوات. بعد

أن دخل الموقوفون عصبوا عيونهم وأمروهم أن يركضوا وإذا لم يركض أحدهم تنهال عليه العصي واللكمات والبصاق. كانوا يضربونهم على أي منطقة من الجسم وعلى المناطق الحساسة، وكانوا يصطدمون بجدران الغرفة ويقع البعض منهم مغمياً عليه، شعر عامر أنه على قيد الحياة لكنه لا يستطيع الحركة أو الكلام، كانت الضربات والرجات الكهربائية مؤلمة لدرجة أن بعض الموقوفين أغمي عليه بين أيديهم.

بعد أن انتهت دورة التعذب غادر المجرمون الموقوفين وتركوهم يعانون الآلام الفظيعة. كان البعض منهم لا يستطيع الحراك والبعض يتوجع والبعض يئن من التعذيب. كانوا يضعون الموقوف في صندوق الموتى ليومين أو ثلاثة فيشعر بالاختناق وقد يموت، وفي غرفتين واسعتين يوجد أحواض التيزاب حيث يتم تعذيب الضحايا بغمس اليد أو الساق وحرقه بالمادة الحارقة، وأحياناً يرمون الجثة لتختفي آثار جريمتهم النكراء. كانوا أيضاً يطرحون الموقوف على الأرض ويدوسون بأقدامهم على رأسه وأحياناً يتبولون في فم الضحية. كان كل شيء فظيعاً في ذلك المكان. كان الأمر لأخي عامر الذي اعتاد العيش اليسير فظيعاً لا يمكن تحمله أو تصوره. كان يعذب عند التحقيق معه ثم يتركونه ويعذبونه ثانية. كانوا يعلقونه من ساقيه بالمروحة السقفية ويجعلون المروحة تدور في أعلى طاقتها ثم ينزلونه ويجبرونه على الوقوف حيث يكون الدوار قد أصابه فلا يستطيع حتى الجلوس، كانوا يستعملون الأجهزة الكهربائية لتعذيبه ويطفئون السجائر على وجهه ويديه. كان أحد معذبيه واسمه فيصل هلال (ربما

مستعار) يدعو عامر ليتقدم منه ثم يقول له «إنك طويل القامة سأجعلك قصيراً أتدري سوف أقطعك أربع قطع».

أصاب عامر الرعب وهو يرى الشر في عيني فيصل هلال الذي استمر قائلاً: «لماذا تطيل شعرك؟» كان شعر عامر طويلاً نوعاً ما حيث في تلك الأيام كان معظم الشباب يترك شعره طويلاً أجاب عامر: «إنها الموضة» صرخ به هلال «اصمت أيها..........أتريد أن تصبح بطلاً للشيعة مثل جيفارا؟».

بعد ذلك أخذوا عامر للتحقيق معه أمام فاضل البراك (أحد أزلام النظام) ورئيس دائرة المخابرات وهو مشهور بقسوته ووحشيته، والجميع قد سمع باسمه، لم يكن عامر يعرفه، وعندما ذهب لمقابلته كان وجهه وجسمه مغطيين بالكدمات والجروح وكان شديد النحول. قال له البراك: «أنا اعرفك وأشعر بالأسف لما أصابك. أنت من عائلة معروفة في بغداد تعيش في بيت جميل فكيف تشعر وأنت في هذا المكان؟» قال عامر: «سيدي لا أدري لماذا أنا هنا ولا أريد البقاء في هذا المكان».

قال البراك: «لماذا تشارك هؤلاء الغوغاء؟».

قال عامر : «كنت أقف على الرصيف وأشاهد المراسيم عندما بدأت الشرطة هجومها علينا».

قال البراك : «أنت رجل ذكي وطالب في الجامعة. يجب أن لا تكون مع هؤلاء الغوغاء والهمج هؤلاء ليسوا عراقيين».

قال عامر: «أرجوك أطلق سراحي. أريد العودة إلى البيت».

قال البراك: «سأعطيك فرصة أخيرة وفرصة واحدة فقط. وإذا سمعت أي شيء عن نشاطك مرة أخرى سأعتقلك بنفسي. سأقطع رأسك بيدي. أنت محظوظ لأني قد سامحتك هذه المرة وأعطيتك فرصة في الحياة».

هكذا انتهت المقابلة وظنّ أنهم سيطلقون سراحه بعد تلك المقابلة غير أنه بقي أياماً أخرى.

كانت هناك أيضاً أساليب للتعذيب النفسي بجانب التعذيب الجسمي. كانوا يتركون المعتقل في غرفة مظلمة عدة ساعات، وفجأة يسطع نور قوي عدة مرات، ثم يسمعونه أصوات صراخ وبكاء ثم ضحك هستيري. ويسمعونه أصوات كلاب شرسة تنبح وتهاجم ضحية يصرخ وهي تقطعه إرباً. كان يسمع صراخ امرأة يغتصبها عدد من الجلاوزة وهم يضحكون . لم يعرف إن كان ما يسمعه حقيقة أم تسجيلاً لحادث. كان عامر طيلة اعتقاله ينام على الأرض في غرفة قذرة مزدحمة بالموقوفين تفتقر إلى الهواء والشمس والنظام.

كانوا يعطونه قطعة خبز يابسة وأحياناً عفنة وماءً وسخاً للشرب. كان الجميع يعاني أمراضاً مختلفة. عندما كانوا يأخذونه للتعذيب ويعيدونه إلى غرفته كان يسمع الصراخ في كل مكان. كان يرى الكثير من المعتقلين مرمين في الممرات بين الحياة والموت.

بعد أن قضى عدة أسابيع في ذلك المكان المرعب أخبروه بأنهم سيطلقون سراحه ذلك اليوم. لم يصدق ذلك وظن أنها واحدة من أكاذيبهم، وأخيراً دعوه إلى غرفة الضابط ليوقّع على بعض الأوراق الرسمية بأن لا يمارس أي نشاط ضد الحكومة، وأن مصيره

الإعدام في حال قيامه بأي نشاط سياسي. أراد عامر أن يتخلص من كل ذلك الرعب فوقّع على كل الأوراق المطلوبة بعد ذلك خلُّوا سبيله، كان خائفاً جداً ربما سوف يلحقوا به ليعيدوه. تملكته الحيرة مشى قليلاً ليبتعد عن المكان لم يصدق أنهم تركوه حراً. كانت معجزة، تنفس الهواء الطلق لأول مرة بعد تلك الأسابيع ورأى الشمس لأول مرة ورأى الناس البسطاء في الشوارع. مشى أكثر من نصف ساعة لا يدري ماذا يفعل. لم ينظر خلفه خوفاً من أن يكون أحد وراءه. مرّ أمام مدرسة أثناء الفرصة بين الدروس. وأخذ ينظر إليهم، هؤلاء الأطفال لا يدرون بالرعب القريب من مدرستهم.

لم يصدق عامر بأنه حر طليق وأنه مثل هؤلاء الناس يتنفس الهواء النقي. أوقف سيارة أجرة وطلب من السائق أن يوصله إلى البيت وهكذا عاد إلينا.

بعد أن سمعت كل ما جرى لأخي عامر أدركت كم من الشجاعة والقوة لديه. إنه بطل بالنسبة لي. لقد تحمّل ألماً كبيراً وكان كل شيء حوله مخيفاً. إنها الإرادة التي تبقي الإنسان حياً. قال لي إنه يكره التعذيب والآلام الجسدية والنفسية، وإن الموت أسهل من ذلك بكثير لأنه ينهي المعاناة.

بقي عامر في البيت عدة أيام ليرتاح. لم نحتفل بعودته علناً بل اقتصر احتفالنا فيما بيننا فقط، اشتريت أنا وأختي له إناءً مزيناً بأزهار جميلة وتمنينا له حياة سعيدة بعد أن خرج من بين يدي النظام سالماً. كان الاحتفال بسيطاً ومن دون ضجيج. كنا حذرين خوفاً مما قد يحصل. بين الحين والآخر كنا نسمع أن أحد أصدقاء عامر قد أوقف

لعدة أشهر ومِنْ ثُمَّ أُعدِمَ. حتى الفتيات يتم إعدامهن بعد التعذيب الوحشي، أصبح العراق جحيماً لا يطاق.

كان عامر في سنته النهائية بالجامعة وقد خسر دراسته ثلاثة أشهر وبعد إطلاق سراحه احتاج إلى العلاج والراحة لذا فاته الكثير من المحاضرات والامتحانات.

ولأنه كان طالباً مجدّاً فقد أعطاه أساتذته فرصة أخرى لتقديم الامتحان وقد تفرغ لدراسته في ذلك الصيف حيث أدى الامتحان في نهاية السنة وحصل على النجاح وهكذا لم يخسر تلك السنة الدراسية.

تألم والداي لما حصل لعامر وتأكد لهما أنه لا يمكن له ولا لنا ـ الفتيات ـ البقاء في بغداد. حاولا جهدهما إيجاد وسيلة لإخراجه فالنظام حتماً سيلاحقه مرة أخرى ولن يعدم النظام أي وسيلة للإيقاع به. فكر أبي ما دام أن النظام قد أطلق سراحه ولم يقتله فسوف يتركه لبعض الوقت حراً وهذه هي الفرصة الوحيدة لإخراجه من العراق. أصبح لتلك الساعات أهمية كبيرة قبل أن تتطور الأحداث. قرّر أبي أن يغادر عامر حالاً ـ بعد انتهاء امتحاناته مباشرة ـ ولا ينتظر أكثر من حصوله على النتيجة، كانت القضية معقدة فيجب أن يحصل على تأشيرة مغادرة حيث الشباب في عمره يجب أن ينتظموا بالجيش لأداء الخدمة العسكرية، وكان يجب على عامر أن يبدأ تلك الخدمة بعد أن أنهى الدراسة الجامعية وهذه الخدمة إلزامية. ولا مفرّ من تلك الخدمة، لذلك ذهب عامر إلى دائرة الخدمة العسكرية وسجلّ اسمه وحصل على دفتر الخدمة، وهذا ضروري لكل شاب مطلوب للخدمة.

كان دفتر الخدمة هذا مدخل إلى الجنة عند الحصول عليه أو إلى جهنم عندما لا يحصل عليه الرجل. كان عبارة عن شهادة حسن السيرة والسلوك في خدمة النظام. إذا كان الشاب يتجول في الجامعة أو السوق أو مع أصدقائه أو حتى في بيته يجب أن يبرز دفتر خدمته في الجيش، وإذا ما فقد هذا الدفتر فسوف يلاقي الهول والمتاعب، حيث يجب أن يذهب إلى دائرة الإصدار ويتعرض لتحقيق دقيق ويعطي معلومات عن تفاصيل حياته وعائلته وانتمائه الديني وعضويته في حزب البعث.

استطاع عامر الحصول على الموافقة لمغادرة العراق لأيام قليلة فقط، وسمحوا له بالذهاب إلى الأردن فقط. اقتنع المسؤول بأنه بحاجة إلى أدوات احتياطية لسيارته وسيعود سريعاً. كان الحظ في خدمة أخي حيث حصل على التأشيرة وغادر العراق عن طريق البر ولم يعد إلى بغداد. كان الطريق البري أفضل له من الطريق الجوي حيث المراقبة الدقيقة في شخص المسافرين وإن حصلوا على حق المغادرة.

أوصل والداي عامر إلى محطة السيارات المغادرة إلى عمان وطلبا منه أن لا يتصل بنا أبداً عند وصوله سالماً إلى هناك حيث سيكون الهاتف مراقباً كالعادة. طلبا منه أن يتصل بأخويه الموجودين في أوروبا ليعلمهما بسلامة وصوله واتفقا مع أخي على رموز محددة (كلمة سر) تؤكد لهما وصوله سالماً من دون ذكر اسمه كانت الرموز المحددة هي الوسيلة الوحيدة في إيصال الرسائل بين داخل العراق وخارجه.

ذهب عامر واشترى بطاقة السفر وكان والداي يراقبانه وهو يركب الحافلة ويأخذ مقعده. لم يستطيعا توديعه لكي لا يتعرضان للانفعال والعواطف التي تثير الاستغراب وبقيا يدعوان له بالسلامة وهما في الطريق إلى البيت، كانا حزينين وقلقين لأنهما أرسلا ابنهما إلى مصير مجهول، كان هذا الطريق الوحيد لإبعاده عن ملاحقة الأمن له. كانت مخاطرة كبيرة ولكنها ضرورية، كان ذلك اليوم من أصعب الأيام لنا جميعاً. عاد والداي وكانا هادئين يحسبان الدقائق والساعات ويتوقعان وصوله الحدود العراقية في الساعة الفلانية أو المدينة الفلانية ثم ينتظران اتصال أخويّ من أوروبا لنطمئن على وصوله سالماً.

كنا جميعاً خائفين ربما يقع أخي بيد النظام في أحد نقاط التفتيش. لم يتحدّث أيّ منا عن خوفه، فأجهزة المراقبة والإنصات في كل مكان.

كانت الرحلة طويلة - ما يقرب من ألف كيلو متر (630) ميلاً عبر الصحراء. وصل نقطة التفتيش على الحدود التي يجب أن يجتازها فكانت لحظات حاسمة في حياته. يجب أن يجتاز هذه النقطة. أخذ يصلي بصمت ويدعو الله أن يسهل له الخروج من هذه المحنة وضع كل أمله به تعالى وأخذ نفساً عميقاً وتقدم من الشباك الذي يقف خلفه موظف السيطرة الحدودية. قال عامر: «إني ذاهب لعدة أيام فقط إلى الأردن ولديّ دفتر الخدمة العسكرية حيث تبدأ الخدمة في الشهر القادم» دقّق الضابط بدفتر الخدمة وكان كل شيء فيه صحيحاً فأعاده لأخي وختم تأشيرة مغادرة العراق.

وصل أخي عامر سالماً إلى الأردن وحيث لم يتصل كنا جميعاً في حالة خوف وترقب. أخبرنا عامر فيما بعد لو أن الضابط قد تفحص اسمه قليلاً ربما كان قد أوقف سفره.

عاد الرعب إلى بيتنا بعد مغادرة أخي عامر إلى الأردن. انتظرنا يومين أو ثلاثة وتمنينا أنه قد وصل سالماً. وفي مساء أحد الأيام كانت خالتي منى وابنتها سارة في زيارتنا عندما سمعنا فجأة طرقاً شديداً على الباب، وما إن فتحت سارة الباب حتى كان هناك أكثر من 30 رجلاً مسلحاً انتشروا بسرعة في البيت. كانوا يفتشون عن أخي عامر صاح أحدهم: «أين عامر؟ اخرج يا عامر وإلا سأطلق النار عليك».

ظنّت والدتي أنهم قد أمسكوه لأنه لم يتصل بنا صاحت والدتي: «بالله عليك أين ولدي؟ هل أمسكتموه؟».

قال رئيس هؤلاء واسمه زهير: «اسمعي يا امرأة. إذا رأيته الآن أمامي سوف أطلق النار عليه وأقتله أمامك».

صرخت والدتي: «لا سمح الله.......... لا سمح الله».

أمرنا الرجل: «اجلسوا جميعكم هنا ولا أريد أية حركة».

كنت أرتجف خوفاً، وكنت مرعوبة. لم يبحثوا عن عامر فحسب بل أخذوا يفتشون عن الكتب والنشرات وحتى المجلات والصور وأي جملة أو ورقة أو صورة كان يمكن أن تؤدي بنا إلى التهلكة. دخلوا في كل غرفة وفتشوا جميع خزانات الملابس وبعثروا ملابسنا على أرض الغرف، فتشوا تحت السجاد وفي الحديقة وبين الأشجار.

صعدوا إلى الطابق العلوي وإلى سطح الدار حيث توجد غرفتان نستعملهما كمخزن. فتشوا حتى داخل خزانات الماء الموجودة على سطح الدار حيث توجد عادة في البيوت العراقية خزانات لحفظ الماء الذي يصلها في أنابيب من مصدر الماء الرئيسي في المدينة، كان في سطحنا ثلاث خزانات مستقرة على دكة عالية في السطح، فتش هؤلاء حتى في داخل هذه الخزانات. سلطوا الإضاءة داخل الخزانات وغرزوا خشبة كبيرة للتأكد من عدم وجود شيء هناك، بالطبع لم يجدوا أخي.

عادوا إلى حيث كنا نجلس تحت حراسة أحدهم وأخذوا يسجلون أسماءنا واحداً تلو الآخر، وعمل كل منا وحتى إن كان عندنا انتماءات سياسية. كانت هذه الأسئلة تعبّر عن غبائهم. فلم يكن لأحد في العراق أي ميول سياسية حيث إنه من الممنوعات. تحدث أبي وقال إننا لا ننتمي إلى أي تنظيم سياسي وإننا مواطنون عاديون. كان علينا أن نردّ على جميع أسئلتهم أي الكتب والمجلات ماذا نقرأ؟ من هم أصدقاؤنا؟... إلخ.

أصابتنا هزة عنيفة عندما أرادوا أن يأخذوا أبي معهم لمزيد من التحقيق عن أخي. توسلت لهم والدتي أن لا يأخذوه فقد كان مريضاً ولكنهم أصرّوا على ذلك. أصابنا رعب شديد. لا بد أنهم سوف يأخذون أبي إلى الاعتقال ولن يعيدوه لنا. كنا نبكي ونتوسل أن يتركوه. كان موقفاً مذلاً لنا وظلماً كبيراً علينا. طلب أبي منا أن نهدأ وذهب معهم لم يرغب في أن يُصاب أحد منا ووالدتي وخالتي وبنتها بأذى وقالوا إنهم سوف يعيدوه لنا، لم يكن أمامنا شيء سوى القبول بالأمر الواقع. وفي حين أخذ اثنان منهم والدي فقد بقي عدد كبير

منهم معنا داخل البيت. كان علينا أن نجلس جميعاً أمامهم في مكان واحد. وإذا أراد أحدنا الذهاب لقضاء حاجة كان عليه أن يستأذن منهم. لا نستطيع حتى أن نردّ على جرس الهاتف فقد كانوا هم الذين يردون. كانت لحظات رهيبة وتجربة مخيفة لنا، كانوا جميعاً مسلحين في جميع غرف الدار وأبي ليس معنا. كنا فقط لوحدنا والدتي وخالتي وابنتها ونحن الأخوات الثلاث. كانت الساعات مرعبة لا ندري ماذا سيحصل لأبي. كنا نبكي بصمت وندعو الله أن يعيد أبي لنا. كنا نخشى أن يأخذوه إلى السجن كما فعلوا سابقاً، كان علينا أن نصمت ونتعاون معهم وإلا كانوا مستعدين لضربنا وشتمنا.

وأخيراً عاد أبي ولم يتعرض لأي أذى. فرحنا بعودته. غادر معظم الرجال المسلحين الدار وبقي البعض منهم خارج البيت لمراقبته والقبض على عامر إذا عاد. حمدنا الله على سلامة أبي كانت تلك محنة قاسية. كانت تلك أول مواجهة لنا مع الأمن في البيت، قضينا ليلة مرعبة لم نرَ مثلها بعد. لم يصب أحدنا بأذى بفضل الله ورحمته. كان بإمكان هؤلاء إطلاق النار على أي منا أو اعتقاله.

جاء رجال الأمن عدة مرات بعد ذلك وبدون سابق إنذار. كانوا أحياناً يأتون في منتصف الليل. يدق جرس الباب باستمرار. كنا ننهض ونركض كالمجانين لنرتدي ملابسنا وننزل إلى الطابق الأول. يدّعي رجال الأمن أنهم يبحثون عن عامر ويصرخون أين عامر ..؟ سنجده حتى لو هرب إلى آخر الدنيا؟ اخرج يا عامر نحن نعلم بأنك مختفٍ هنا ..الخ». استمر تهديدهم لنا أنهم سوف يقتلون أخي عندما يمسكون به عاجلاً أم آجلاً. وخلال زياراتهم المتكررة بدأوا الآن

يسألون عن أخي حيدر وأخي سامر ولماذا هما خارج العراق. لماذا لا يخدمان الحزب والحكومة؟ قال أحدهم لأبي: «اثنان من أولادك خارج العراق ويعملان ضد الحكومة. سوف نقتلهما عندما نمسك بهما : وعليك أن تخبرنا بأي معلومات عنهما».

كان أبي يحاول تهدئتهما قائلاً : «أولادي ليسوا ضد الحكومة. ربما قد أخطأتم بالاسم». ثم يقوم هؤلاء بتفتيش المنزل مرة أخرى. كانوا يأخذون أبي معهم وهو كبير السن ومريض، إلى جميع غرف البيت وإلى السطح والحديقة. يدخلون كل غرفة ويسألون: «لمن هذه الغرفة؟» وينظرون إلى الصور ويسألون عن كل التفاصيل. كانوا يتصفحون الكتب ويسألون: «من يقرأ هذا الكتاب؟ من اشترى هذه المجلة؟» يأتي عادة ما يقارب عشرين رجلاً وينتشرون في غرف الدار. لا يحترمون خصوصية الناس أو أوقات نومهم. كانوا دائماً مسلحين وكنا نخاف منهم أشد الخوف. حاول أبي أن يحمينا لأن النظام غالباً ما يسيىء إلى الأهل وأحياناً يأخذ أحدهم بدلاً عن الشخص المطلوب وما دام أخي عامر لديه سابقة اعتقال عندهم فلن يتركونا لحالنا وسوف يعودون كلما رغبوا بذلك. لن يتمكنوا من إصابة إخوتي بأذى لأنهم خارج العراق. غير أننا الفتيات كنا تحت رحمة هؤلاء المجرمين. كانت معجزة من الله تعالى أن لم نُصَب بأذى.

مضت عدة أسابيع ونحن نعاني من تلك الزيارات المرعبة. كانت كل زيارة وكأنها عاصفة رعب. كانوا إما يتهموننا أو أحياناً يتظاهرون باللطف ربما ليأخذوا منا معلومات إضافية. كانوا مثلاً يسألونني : أين غرفتك؟ أين منضدة دراستك؟ ثم متى رأيتِ عامر

آخر مرة؟ كانوا يريدون أن يسمعوا كلاماً متناقضاً منا. في إحدى زياراتهم أخبروا والدي بأن حكم الإعدام قد صدر ضد أخي عامر وأنهم سوف يستمرون بملاحقته ويجب على أبي أن يخبرهم بأي معلومات عن أخي يحصل عليها. كان أبي يحاول التفاهم معهم من دون جدوى كانت تهديداتهم وشتائمهم مستمرة.

كانت تلك الأشهر تثير أعصاب أبي وأمي. كانا قلقين علينا أنا وأختيَّ. كانا دوماً يبحثان أمر مغادرتنا العراق ولكن خارج البيت - في الحديقة حيث لا يستطيعان الكلام بحرية داخل البيت. كان مما يشغلهما سلامتنا وكانا لا يهدآن بسببنا. كان أبي يتحدث أحياناً إلى أختي زينة حول ذلك وأنه يخطط لمغادرتنا العراق. وأنها يجب أن تعتني بنا لأنني وأختي أصغر منها بكثير.أخبر أختي أن هؤلاء العصابات قد ينتبهوا لنا في أي وقت كان إذا بقينا وبإمكانهم إلحاق الضرر بنا متى شاؤوا. في أواخر 1979 والثمانينات بدأت الحكومة باعتقال الفتيات والنساء، تعتدي عليهن وتعذبهن ثم تقتلهن. لم يكن هذا يحدث في أواسط السبعينات غير أن الأمور كانت تسير نحو الأسوأ. العديد من النساء تمَّ اغتصابهن وقتلهن ثمّ رمي جثثهن في الشوارع. إحداهن كان لوالدها نشاط سياسي وقد غادر العراق. تمّ اعتقالها وتعرضت لأنواع التعذيب ولولا تدخل شخصية أجنبية مؤثرة على صدام حسين لما أطلق سراحها ورُمِيت على عتبة البيت شبه عارية. لم يتحدث والداي عن خطتهما أمامنا لكي لا نتكلم - زلّة لسان - عن ذلك أمام صديقاتنا أو آخرين.

في تلك الأثناء كان النظام يجبر النساء وطالبات المدارس على الانتماء إلى حزب البعث والخدمة في منظماته الكثيرة. كل يوم نسمع

إشاعة جديدة. أصبح الانتماء إلى حزب البعث إجبارياً. كنا كالعادة في المدرسة في أحد الأيام. فجأة تعطلت الدراسة واقتادونا إلى حافلات المدرسة ولا يمكننا رفض الذهاب معهم. لم نتمكن من الاتصال ببيوتنا كما هي العادة عند الذهاب في سفرة مدرسية إلى خارج المدينة. عادة تُسجل أسماء الراغبات بالسفرة المدرسية وبموافقة الوالدين ومعرفة مكان السفرة وموعد الانطلاق والعودة. أما الآن فهم لا يأخذون موافقة أحد ولا يسمحون لنا الاتصال بأهلنا الذين انتظرونا في الموعد المحدد لانتهاء الدوام. لم نعلم أين سيأخذوننا.

انطلقت سيارات المدرسة في الشوارع الخارجية، وفجأة توقفت قرب مطار بغداد الدولي. كان هناك المئات من طالبات المدارس الثانوية والمتوسطة وحتى الابتدائية. كان يجب علينا أن نقف على جانبي الطريق ساعات طويلة للترحيب بصدام حسين وضيفه فيدل كاسترو. انتظرنا تحت أشعة الشمس الحارة وطلبوا منا أن نهتف ونصفق عندما ينطلق موكب الدراجات النارية ثم سيارة الضيف التي استطعنا أن نلمحها لحظات فقط.

لم يأت أحد لإعادتنا إلى بيوتنا. كانت فوضى كبيرة. البعض من الطالبات كان محظوظاً واستطاع الركوب في الحافلة التي جاءت بنا، غير أن بعض الحافلات لم تبق لتعيدنا إلى بيوتنا أو إلى مدرستنا. لذا استطاع البعض أن يعود وبقي البعض الآخر خائفاً في ذلك المكان البعيد، لم تهتم مديرة المدرسة أو إدارتها بمعرفة عودة أو بقاء بعض الطالبات. بقي من مدرستنا أكثر من خمسين طالبة وكنت أنا إحداهن. لم نجد من يعيدنا إلى مدرستنا، أصابنا الخوف. رأينا بعض مدرسات

مدرستنا بسياراتهن حيث توقفن وركبت معهن بعض الطالبات، غير أن سيارات المدرِّسات لم تكف لنا جميعاً، تفرقنا وبقيت أنا مع أربع أو خمس من الطالبات، وكان يجب علينا أن نمشي غير أننا لا نعرف الطريق إلى المدرسة. مشينا بجانب الطريق الرئيسي ونحن نأمل أن نجد سيارة أجرة توصلنا إلى المدرسة. كان المطار خارج المدينة في ذلك الوقت وبعيداً عن المناطق السكنية. كان الطريق إلى المطار مقفراً لا يوجد فيه أي نوع من الخدمات ولا حتى هاتفاً عمومياً، لم ندرِ كيف نصل إلى بيوتنا وفي مناطق مختلفة من بغداد. غابت الشمس وبدأ الظلام يزداد تدريجياً، أصابنا الرعب نحن الآن في عداد المفقودين، فجأة وقفت حافلة صغيرة وسألنا السائق إن كنا بحاجة إلى مساعدة وسمح لنا بالركوب. عادة لا تركب الفتيات في مثل هذه الحافلات فهي مخصصة للرجال وعمال المعامل، وكان ركابها في طريق عودتهم إلى بيوتهم، تزاحمنا نحن الفتيات الست على مقعد يتسع لثلاثة أشخاص فقط، حيث كانت الحافلة مملوءة بالركاب الذين أدهشهم وجودنا، ولم يكن ركوب الفتيات في هذا النوع من الحافلات اعتيادياً. نزلنا بعيداً عن مدرستنا، ومشينا ما يقرب نصف ساعة لكي نصل.

كانت المدرسة في فوضى وهرج والعديد من الفتيات يردن العودة إلى بيوتهن غير أن سائقي حافلات المدرسة كانوا قد انصرفوا حيث لم تطلب منهم الإدارة البقاء بعد الدوام الرسمي.

حاولت الفتيات الاتصال هاتفياً ببيوتهن لكي يأتي من يوصلهن إلى البيت. بعض الفتيات لم يعدن أصلاً إلى المدرسة وأهاليهن يسألن عنهن. لم تكن مديرة المدرسة موجودة فقد غادرتها وتركت واحدة من

معاوناتها وبعض المدرسات مع حارس المدرسة. حاولت المعاونة مساعدتنا بأن ننظم عودتنا مع بعضنا الآخر. كان صياح وصخب الطالبات والأهالي عالياً. كان البعض غاضباً بسبب عدم عودة بناتهن حتى تلك الساعة حيث إن الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً.

كانت أختي داليا قد استطاعت العودة مع إحدى المدرسات. وكانت تبكي لأنها ظنت أنني قد فُقدت أو اختطفت. جمعت حاجياتي من المدرسة وجاءت خالتي منى وأعادتنا إلى البيت.

غضب جميع أولياء أمور الطالبات وكذلك غضب والداي خاصة لأننا كنا جميعاً دون الثامنة عشرة من عمرنا ولم يكن معنا أي مدرسة من المدرسات. كنت آنذاك في الثالثة عشرة من عمري ومجتمعنا لا يرضى أبداً بقاء الفتيات وحدهن خارج المدينة وبعيدات عن بيوتهن من دون معرفة أهاليهن. كنا نتجول أحياناً في منطقة بيتنا حيث إن الجيران والشوارع القريبة مألوفة لدينا غير أننا لا نذهب أبداً بعيداً من دون معرفة أهلنا.

في اليوم التالي جاء والدي كما جاء آباء آخرون إلى المدرسة كان الجميع غاضباً. التقوا بإدارة المدرسة وكانوا يتصايحون بسبب ما حصل قبل يوم. كان أحد الآباء يصيح غاضباً على إحداهنّ: «هل جننتِ؟ كيف تتركين بناتنا من دون مراقبة مسؤولة عنهن؟» حاولت مديرة المدرسة واسمها «أنيسة» أن تتكلم ولكن الرجل استمر قائلاً: «ألا تفهمين؟ عندما تأخذين بناتنا خارج المدرسة يجب إعادتهن قبل انتهاء الدوام ويجب أن نعرف أين تأخذيهن. كيف تركتِ هؤلاء البنات المراهقات لوحدهن في الشوارع الرئيسية خارج المدينة؟».

كانت والدتي تستمع ثم قالت: «كيف سوّلت لك نفسك العودة

إلى بيتك وتركت بناتنا في ذلك المكان؟ ذهبتِ إلى بيتك وتركت الفوضى في مدرستك ألا تخجلين؟».

قالت المديرة: «نحن نقوم بواجبنا اتجاه الثورة. نحن جميعاً في خدمة الحزب وما الضرر في أن تذهب بناتكن من أجل الحزب والثورة...؟».

صاح أبي فليذهب أولادك إن أردت. غادر الآباء المدرسة تملكنا الخوف الآن من ردة فعل المديرة وانتقامها منّا.

كان أبي يزداد قلقاً كل يوم فكان يوصلنا إلى المدرسة ويعيدنا إلى البيت وأحياناً عندما يكون أبي مشغولاً تأتي خالتي منى لإعادتنا إلى البيت. كان هذا الخوف بسبب مما يحصل لبنات عوائل أخرى مثل عائلتنا المتهمة بمعارضتها للسلطة.

بعد بعض الحوادث الليلية المرعبة وحادث تركنا في شارع المطار خارج بغداد قرر والداي أن نغادر البلاد في أقرب فرصة ممكنة لاقتراب الخطر منا يوماً بعد يوم. ربما كان قرارهما ناتجاً عن بُعد نظر لما قد يحصل لنا لو بقينا. لا شك أنني وأختاي نُدين لهما بسلامتنا وحياتنا الآن، أظن ذلك كان أجمل شيء فعلاه من أجلنا بالرغم من صعوبة تحقيقه آنذاك وصعوبة تحملنا لفراقهم. كان إخراجنا من العراق كالمعجزة. أصبحنا جميعنا بعيدين عن أذى البعث بالرغم من المصاعب والقيود، استطاع أبي أن يحقق أمله في إبعادنا عن العراق. حقق أبي هدفه بالعمل الدؤوب وبسرية تامة وكان متأكداً أننا سنكون بخير لو غادرنا البلاد. كانت الأمور تسوء يوماً بعد يوم.

حتى مغادرتنا كنا نتعرض للاضطهاد والمضايقة حتى في

المدرسة. كنا أنا وأختي في مدرسة معروفة في منطقة المنصورة ـ ثانوية بغداد ـ وكانت تلك المدرسة حلم كل طالبة حيث كانت لا تقبل سوى الطالبات المتفوقات، فكانت الفتيات يأتين من جميع أنحاء بغداد للتسجيل فيها. تمّ قبولنا وأختي في تلك المدرسة فمعظم طالبات المدرسة من الطبقة الراقية في المجتمع ومن المتفوقات أيضاً. بالطبع يتم قبول البعض من الطالبات وإن كانت مستوياتهن متوسطة والسبب لأنهن من عوائل بعثية.

أنهيت المدرسة المتوسطة في ثانوية بغداد وكنت على أبواب أن أنهي الدراسة الإعدادية هناك غير أني غادرت العراق. ومع أننا كنا أنا وأختي من أفضل الطالبات في المدرسة تحبنا جميع مدرساتنا غير أننا كنا دائماً نعاني مضايقات إدارة المدرسة ومسؤولي الحزب فيها. أرعبتنا إدارة المدرسة أثناء الامتحانات النهائية. جاءت معاونة المدرسة تستدعينا إلى غرفة الإدارة وخلال وقت الامتحان، عندما دخلت غرفة المديرة رأيت أختي داليا قد سبقتني إلى هناك. وكانت توقّع على بعض الأوراق الرسمية ثم جاء دوري. قلت للمديرة: «نعم ست أنيسة لقد طلبت رؤيتي». قالت المديرة: «أريد أن أعلم انتماءك السياسي. في أي حزب أنت؟» قلت «عفواً ست! ماذا تقصدين ؟» «أريد أن أعرف انتماءك. هل أنت عضو في الحزب الشيوعي ؟ حزب الدعوة؟».

قلت لها: «أنا لست في أي حزب سياسي».

استمرت تتحدث عن عائلتي وأنها معادية للحكومة وللحزب ولديها تقرير الجهات الأمنية حول ذلك. كانت تعرف تفاصيل اعتقال

أخي عامر وعن وجود أخي سامر خارج العراق وكذلك اعتقال والدي.

أخذت تشتم إخواني وقالت : «إنهم من الرجعية ومعادون للدولة »... ثم أضافت : «الآن عليك أن تنتمي إلى الاتحاد الوطني للطلاب (وهو أحد منظمات أو واجهات حزب البعث الحاكم) وهذا أمر ضروري لك لكي تثبتي إخلاصك للثورة .. أنت من عائلة مشبوهة».

بعد أن استمعت إلى كلامها تملّكني الغضب. لذا أجبت مدافعة عن عائلتي وعن إخواني ـ وكأني كوالدتي التي طالما تكلّمت بجرأة.

أجبتها بعفوية وبراءة وبحماس حول حرية الإنسان المفقودة في العراق آنذاك. قلت للمديرة : «لا أريد الانتماء إلى الحزب أو الاتحاد. أنا في الرابعة عشرة من عمري. لا أريد القيام بأمور لا تعجبني. أنتِ تكرهينني على عمل ذلك. يجب على من يريد الانتماء إلى الحزب أن يفعل ذلك بدون إكراه».

غضبت مديرة المدرسة وصاحت: «أنت وقحة. يجب أن تنتمي للحزب وإذا رفضتِ فيجب أن توضحي سبب ذلك تحريرياً وتوقعي باسمك عليه».

أرغمتني المديرة أن أوقع على وثائق رسمية مثلما جعلت شقيقتي تفعل، إننا لا نريد الانتماء للحزب. كنا في الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر. انزعجنا لأنها أهانت عائلتنا واتهمتنا

بأنواع التهم. كأننا اقترفنا جريمة نكراء. ناهيك عن تشتيت أفكارنا أثناء الامتحانات النهائية للعام الدراسي.

عدنا إلى البيت ونحن نبكي ونرتجف. انزعج والداي بسبب ذلك وحاولا تهدئتنا. احتضنتنا أمي وقالت: «لا تبكيا أيها العزيزتان ولتذهب هي إلى الجحيم، أكملا ما بقي من أيام الامتحانات ثم سوف يكون حسابنا معها».

وعدنا أبي أن يذهب إلى المديرة ولكن بعد أن ننهي الامتحانات.

ذهبت أبي وأمي إلى الإدارة وقد فوجئت المديرة بمجيئهما حيث عادة لا يأتي الآباء إلا بوجود مشكلة. بدأ أبي بالكلام قائلاً: «لقد سببتِ بتشويش أفكار ابنتيَ أثناء الامتحانات النهائية وجعلتهما يوقِّعان على أوراق رسمية وهما فتيات دون السن القانوني؟ أريد رؤية ما وقَّعنا عليه فهما قاصرتان وأنا والدهما. يجب أن أرى الوثائق الرسمية».

عرفت المديرة سبب مجيء والديّ. ثم صاحت بها أمي: «من أنت لكي تهيني عائلتنا؟ من أين جئتِ بحق السماء؟» أرادت أمي أن تذكر أنيسة بماضي عائلتها وأخيها الذي اتهم بولائه لإيران في أوائل السبعينات عندما كان حزب البعث في صراع مع إيران الشاه.

عند ذلك تجمعت مدرسات المدرسة والمعاونات واستمع الجميع إلى تلك المشادّة الكلامية وكانت مشهداً غريباً بحق. استمر أبي قائلاً: «لقد أخفت الطالبتين أثناء الامتحان. هل يحق لك ذلك؟

هل فقدت صوابك؟ أنت مديرة مدرسة ومربية أم عميلة للحزب؟ ما هو دورك بالضبط؟».

حاولت أنيسة الكلام غير أن والدتي سبقتها قائلة: «هذه ليست أول مرة تخالفين القانون. لقد تركت ابنتي لوحدها في شارع المطار قبل أسابيع واضطرت أن تركب مع الغرباء، ماذا كان سيحصل لها؟».

تعرضت المديرة للإهانة أمام الآخرين بسبب سوء معاملتها لنا. أما المدرسات والمعاونات فقد كنّ يحترمن أبي لأن البعض منهن كن طالباته في الكلية وقد فرحن برؤيته أمامهن ورحبن به وبوالدتي مع أسفهن لما حصل لنا، قالت إحدى المدرسات: «أستاذ مكي إننا سعداء برؤيتك ما سبب هذه المشكلة؟» تكلم أبي باختصار حول ما حصل لنا. قالت المدرسة: «لماذا يحصل هذا هما طالبتان مدهشتان ومتفوقتان»؟

ولم يكن أحد يعرف ما حصل لأنها كانت وحدها معنا في الغرفة مع إحدى المعاونات. الآن عرف الجميع. غضبت المديرة وخشينا انتقامها. ولكن الامتحانات كانت قد انتهت وتلك كانت آخر سنة لنا في هذه المدرسة.

جاءت العطلة الصيفية في أعقاب تلك المخاوف والأحداث التي حصلت لنا في المدرسة وكنا لا نزال خائفتين. لم نكن نخرج للفسحة كالسابق وكانت أحوال العراق محزنة، فكنا نسمع باستمرار عن اعتقال وإعدام العديد من الشباب والشابات. لم نشعر بالسعادة أبداً. كنا نرتعب عندما نسمع جرس الباب يدق ونتصورهم قد جاؤوا مرة أخرى لاعتقالنا. قال والداي إنهما قد هيآ الأمور لمغادرتنا

العراق في أسابيع قليلة، وطلب والدي منا أن لا نخبر أحداً عن ذلك وقال: «إن بقيتنَّ هنا سوف تتعرضن لمزيد من المضايقات والمتاعب والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ». وطلبا منا أن نكون حذرات فلا نتحدث لأيّ كان حول مغادرتنا العراق. لذلك أخذنا فقط أشياء قليلة تكفي لرحلة قصيرة تحدثت أمي قائلة: «إنكن الآن تفهمان الأمور في العراق. ويجب أن تتعلمن ضرورة الاعتماد على أنفسكن حيث لن نكون نحن معكن». بقيت أسأل أبي: «ما معنى هذا يا أبي؟ ألن تأتي معنا؟» قال أبي: «حبيبتي سنأتي معكما مؤكداً غير أننا أنا ووالدتك يجب أن نعود إلى بغداد ثم بعد ذلك أحاول جهدي لكي نأتي ونبقى معكما. يصعب الآن عليّ البقاء معكما في الخارج بسبب عملي والاهتمام بالبيت والأمور الأخرى. لن تكون مغادرتي سهلة. أنتنَّ تذهبان أولاً وتصلان بسلام ونحن إن شاء الله سنكون معكما».

تهيأنا للسفر بهدوء تام وكنا قلقين خاصة والديّ لأن أي خطأ قد يفشل خطتنا في مغادرة العراق.

في إحدى أيام العطلة الصيفية كنا جالسين في البيت مع أختي ووالديّ وخالتي مني حيث نقضي معظم وقتنا داخل البيت. لكي نتجنب الصدام مع أعوان ومرتزقة النظام. كنا نتحدث فيما بيننا عندما سمعنا صوتاً قوياً كأنه انفجار قنبلة .. ثم ركضنا نحو الباب لنرى ماذا حصل. كان الحادث عند المدخل الرئيسي لبيتنا. تحطم المدخل الحديدي مع جزء من الحائط والضوء الجانبي. كان الزجاج المحطم قد انتشر. والجهة التي تحمل اسم والدي على الباب تحطمت. كان على بابنا لافتة ذهبية جميلة تحمل اسم أبي (كما هو

معروف في العراق أن اسم صاحب الدار على الجدار الخارجي. توضع هذه اللوحات كما أظن على الأبواب لأن نظام ترقيم المنازل وعناوين الشوارع غير دقيق فكانت اللوحات تؤكد العنوان الصحيح لمن يريد.

تسبَّب الحادث في ضجيج صاخب. ذهبت والدتي لترى من في داخل السيارة ووجدت شاباً مع صديق له. كلاهما في حدود السادسة أو السابعة عشرة لم يصابا بأذى ولكن مقدمة السيارة قد تضررت عندما ارتطمت بالجدار والباب الخارجي. سألت والدتي الشابين إن كانا بخير فقد كانا خائفين، جلبنا لهما الماء وسمحنا لهما بالجلوس للراحة قليلاً ثم سأل والدي السائق: «ما الذي حصل؟ كيف اصطدمت بالجدار والباب؟ هل لديك إجازة قيادة؟» قال الشاب: «كلا». سأله أبي: «كم عمرك؟» أجاب «17 سنة». أريد أن أتصل بوالدي، أبي هو .... وأنا ابن ....». وذكر اسم أحد مسؤولي النظام البعثي. سأله أبي: «أين بيتكم؟» أجاب باسم منطقة بعيدة.

قال أبي: «ليس لديك إجازة قيادة وحتماً لا تعرف القيادة لماذا جئت إلى هذا المكان البعيد؟».

قال الشاب: «في الواقع أنا أتعلم القيادة. انظر سيدي، أبي (فلان) سوف يقوم بترميم الجدار وإصلاح الباب».

انزعجت والدتي وصاحت: «لا يهمني من تكون، ولكنك دون السن القانوني وليس لديك إجازة قيادة. كان يمكن أن تقتل أحداً عند مدخل البيت».

اتصل الشاب بوالده الذي تحدث مع أبي ووعد بإصلاح كل ضرر. أجاب أبي: «يجب أن أسجل شكوى لدى الشرطة لأن الشاب دون السن القانوني ولا يحمل إجازة قيادة سيارة».

قال الرجل: «أنا آسف. سوف أصلح كل شيء. إذا سجلت شكوى لن تحصل على أكثر من تصليح الضرر غير أن ولدي لن يحصل على إجازة قيادة».

غادر الصبي مع صديقه بسيارة أرسلها والده لهما. غضبت خالتي ووالداي يجب الآن التعامل مع صبيان مراهقين. يتجولون في بغداد فقط لملاحقة الفتيات فقط والتفاخر بالسيارات التي يركبونها وهم أيضاً فوق القانون.

جاء في اليوم التالي بعض العمال وقاموا بترميم الحائط المتضرر. لم يتقنوا العمل وتركوا الباب الحديدي والإضاءة المثبتة عليه محطمة. كان الواجب أن يعيدوا بناء الجدار كما كان قبل الحادث ولكنهم تركوه مشوهاً ولم يستخدموا نفس المواد، حيث كان الجدار السابق مزيناً بقطع حجارة خاصة وبعد الحادث أصبح الجانب المرمم يختلف عن الآخر. اتصل أبي بوالد الصبي المدعو (رياض..) وأخبره بأن ترميم الجدار لم يتم بالصورة المطلوبة. أجاب الرجل: «لقد أرسلت عمالاً لترميمه وكما تعلم ليست القضية بهذه الأهمية. لم يكن الضرر كبيراً وتمّ بناء المتهدم من الجدار».

قال أبي: «إن ولدك قد انتهك القوانين وكان بإمكاني تسجيل شكوى وأنت وعدت بإعادة كل شيء كما كان وأنا صدقتك، غير أن

ترميم الجدار بهذا الشكل لا يكفي. وسوف أتقدم بشكوى إذا لم يتم العمل بشكل جيد».

صاح الرجل: «هل تهدّدني يا أستاذ مكي؟».

صاح أبي: «أنا أنبهك بواقع الأمر، حقيقة أن ولدك لا يملك رخصة قيادة وكان يمكن أن يؤذي أحداً ما قرب الباب. أريدك أن تنفذ وعدك بالترميم الكامل».

والواقع كان من المستحيل أن يتقدم أبي بشكوى ضدّ أيّ من مسؤولي البعث ومع أن القوانين في هكذا حال موجودة غير أنه عادة يتمّ التفاهم على التعويض خارج المحكمة بالنسبة لمعظم الناس.

لم يقم ذلك المسؤول البعثي بالوفاء بوعده بالنسبة لما خربه ولده لمدخل البيت والإضاءة الكهربائية والجدار. كنا جميعاً منزعجين لما حصل وبقيت والدتي تصرّ على تقديم شكوى لمعاقبة هذا الصبي المتهور. أما والدي فقد قرر ترك القضية حيث لم يرغب بالاحتكاك مع السلطة. كانت تلك الفترة حساسة جداً حيث كان أبي يعمل لحصولنا على جوازات سفر وتأشيرة مغادرة وكان من الأفضل أن لا يثير أمثال هذا المسؤول. طلب والدي من أمي أن تنسى الموضوع وأنه سوف يأتي بعمال لترميم المدخل وما تبقى من أثر الحادث. غير أن والدتي لم تتنازل حيث اعتبرت القضية قضية مبدأ وبقيت تطالب أبي بمعاقبة هؤلاء الناس. صاحت: «لماذا لا تسجل شكوى إن القانون معنا. يجب أن يعاقب هذا الصبي». قال أبي: «كلا. لن أفعل هذا أبداً. لا أريد المصادمة مع هؤلاء مرة أخرى».

صاحت أمي: «أرجوك. اذهب وسجل الشكوى إنني منزعجة

جداً. لماذا يفعل هؤلاء كل ما يحلو لهم ونحن نسكت؟» صاح أبي: «أي مصادمة مع هؤلاء ستكون عواقبها وخيمة بالنسبة لنا. لن نحصل على تأشيرة مغادرة للبنات. تعلمين أني أهيئ هذه الأوراق ونحن على وشك أن ننتهي لكي نسافر. إذا حصلت المواجهة مع هؤلاء سوف تضر بمعاملة سفرنا».

لم تتراجع والدتي وقالت: «انظر مكي! يجب أن تقدم الشكوى. أرجوك افعل هذا من أجلي. ماذا يظن هؤلاء؟ هل نتركهم يفعلون كل ما يريدون من دون أي احتجاج؟».

غضب أبي وهو قلما يغضب. صاح: «كلا.... ليذهب الجدار إلى الجحيم.... لو تهدم كل شيء.... لا يهمني ذلك ولكن لديّ بناتي الثلاث .....أريد أن يغادرن هذا البلد الذي انعدم فيه القانون.... أيّ مواجهة مع المسؤولين سوف تسبب منعنا من السفر وسوف تبدأ ملاحقتنا من جديد... لا أريد لهؤلاء العصابات أن تقترب من بناتي. لا يمكنني إصلاح كل خطأ في هذه البلاد. يعلم الله كم كافحت لأجعل هذه الحكومة تلتزم بالقوانين وتتعامل معي بعدالة ولم أنجح. ظننت أن القوانين تحمي الحق وتحميني وخاب ظني. نحن نعيش في غابة.... وليس في دولة تحكمها القوانين... كل ما أريده هو الأمان لبناتي فلو أصيبت إحداهن بأذى سأكون قد فشلت في حياتي ولن أسامح نفسي أبداً وأنت كذلك لن تغفري لي».

سكتت أمي ولم تتكلم. سمعنا هذه المشادة الصعبة بينهما والتي لم نشهدها من قبل. استسلمت والدتي وعلمت أن أبي على حق. كانت والدتي مثالية متمسكة بمبادئها.

مضت عدة أيام والجو متوتر بين أبي وأمي بسبب تلك المشادة وكانت ترتيبات أبي حول سفرنا ناجحة. لم يكن السفر إلى خارج العراق بتلك السهولة كما هو في الغرب حيث يمكن لأي فرد أن يحجز مقعده في الطائرة ويسافر لأسباب شخصية، لقضاء عطلة مثلاً أو لأي سبب آخر. في العراق علينا الحصول على موافقة لمغادرة البلاد ونبيّن ونوضّح أسباب السفر (أسباب صحيّة أو للعمل أو للسياحة).

لذا كنا بحاجة إلى بذل مجهود كبير، وإلى اتصالات مع المتنفذين من أجل ضمان الحصول على الموافقة لمغادرة العراق. ومما يزيد الأمر صعوبة وتعقيداً، أن عائلتنا تعرضت لكثير من المتاعب والمحن والمواجهة مع السلطة. يضاف إلى ذلك أن الأمر يصبح أكثر صعوبة بالنسبة للشباب الذين تجاوزوا سنّ الحادية والعشرين من العمر، وكذلك إذا كان موظفاً حكومياً ففي هذه الحالات يحتاج الشخص إلى تقديم ضمانات مختلفة قبل حصوله على الموافقة لمغادرة العراق. وتتضمن هذه الضمانات وضع مبلغ من المال (كفالة) كضمان للعودة. أو يتعهد فرد من العائلة بعودة قريبه أو ولده وأنه سوف يدفع مبلغاً كبيراً في حال عدم الرجوع وربما يسجن. والبعض كان يوقع على أوراق تنازل عن ملكيته للحكومة ولن يطالب بها مستقبلاً. سعى أبي كل ما في وسعه لعدة أسابيع وأخيراً حصلنا على تأشيرة مغادرة العراق.

غادرنا بلدنا بسرعة ولم نتفوه بأي كلمة لأحد حول هذا الموضوع لم نتمكن من توديع صديقاتنا ومدرساتنا. كانت مغادرة

حزينة، تظاهرنا بأننا نسافر لقضاء عطلة الصيف فقط مثلما يفعل الكثيرون عندما كان السفر مسموحاً به. وحيث كنا فتيات دون السن القانوني لم يكن هناك شكوك حول عدم عودتنا.

أودّ أن أضيف نقطة أخرى مهمة هنا. في جميع سفراتنا من العراق وإليه، كنا شأننا شأن العراقيين الآخرين ـ نتلقى معاملة سيئة في المطار وكأننا أشخاص مشبوهون. في جميع دول العالم التي زرتها فيما بعد مثل الدول الأوروبية وأمريكا الشمالية، يعامل المواطنون بكل احترام وتقدير وهذا عكس ما يجري في العراق. يعامل الأجانب باحترام وإجراءات بسيطة. أما المواطنون العراقيون فيلاقون جميع أنواع الإهانات والاستجواب على أيدي رجال الأمن وكأنهم مجرمون.

يوجد لدى شرطة الأمن والمخابرات أطنان من المعلومات حول كل فرد عراقي. وكان لدائرة الأمن مكتب، في المطار لا يمكن لأيّ عراقي المغادرة من دون المرور عبر هذا المكتب. فتفتح الكثير من الملفات والقوائم لتفحص المرء الذي يرغب في السفر. يسألون الكثير من الأسئلة حول سبب المغادرة وموعد العودة.

ويسألون من ستزور أين ستقيم وما علاقة هذا الاسم أو ذاك بهذا الشخص المسافر ويسألون عن الانتماء السياسي والعضوية بحزب البعث ويكون الله في عون الإنسان الذي لا ينتمي لهذا الحزب فسوف يتعرض لاستجوابات مطوّلة وربما يُمنع من السفر.

في الواقع كان المرور عبر مكتب الأمن في دائرة السفر يشكّل رعباً حقيقياً لجميع المواطنين، وأظنّ أنها كانت من أطول اللحظات

في حياتي شخصياً. هذه اللحظات تحطم جميع الأوقات السعيدة التي يقضيها المرء في سفره إلى خارج العراق أو يجعل توقعاته لسفره مقبلة ومصدر تَأَثُّر كبير له.

حالفنا الحظ أحياناً حيث كان العم سعدي يأتي لاستقبالنا حيث يسهل مرورنا من خلال علاقاته مع الأشخاص الذين يعرفهم في المطار وذلك بسبب مكانته ـ السابقة ـ في الحكومة. عندما غادرنا العراق في آخر مرة كان المرور عبر مكتب الأمن في المطار مرعباً لنا. حيث لم يكن العم سعدي موجوداً أو كنا نخشى أن يوقفونا أو يمنعونا من السفر. حمدنا الله عندما مررنا بسلام.

لأننا غادرنا بسرعة بسبب الظروف الشاذة في العراق ـ آنذاك ـ فقد تركت معظم حاجياتي العزيزة عليّ. فمن بين الأشياء التي افتقدتها كثيراً دفتر مذكراتي حيث يحوي ذكريات معلماتي في المدرسة الابتدائية وفي ثانوية بغداد. كان أمراً مألوفاً آنذاك أن نعطي دفتر المذكرات لمدرساتنا ليكتبن لنا بعض الملاحظات والأمنيات، كنا كذلك نعطيه للأقارب والأصدقاء ونحتفظ بهذا الدفتر ونعتز به كثيراً. كنا نفتخر بكلمات الحب والنصائح التي تسجلها مدرساتنا أو قريباتنا. ونقرأها بين الحين والآخر. يكتب هؤلاء الكثير من التمنيات والإعجاب بنا وبمرور السنوات نعود لقراءة ما كُتب عنا. لم أر مثل هذا الأسلوب لتسجيل الذكريات والأمنيات هنا في أمريكا. ربما الكتاب المدرسي السنوي[1] يشبه ذلك الدفتر إلى حد ما. غير أن دفتر

---

(1) هو كتاب معروف في المدارس الأميركية فيه صور وملاحظات عن الطلاب في المدرسة وما عُرف عنهنّ بين الزملاء والمعلمين. هذا الكتاب تصدره المدرسة وتوزّعه على من يريد.

المذكرات مميز أكثر. عادة يكون بخط اليد وهناك نسخة واحدة فقط. كان هذا الدفتر عزيزاً عندي.

تركت كذلك مجموعتي من الطوابع التي كنت أعتز بترتيبها وكذلك العديد من كتبي التي تذكرني بطفولتي. ومع أن هذه الأشياء ربما صغيرة بحجمها لكنني أفتقدها بشدة وأشتاق إلى رؤيتها فهي أشياء لا تقدّر بثمن بالنسبة لي. ويمكنني أن أتصوّر كيف عانت والدتي لافتقادها أشياء حميمة مثل ألبومات صورنا كأطفال وصور عائلية وهداياها لنا وغير ذلك، هكذا وصلنا إلى أوروبا.

بعد أن أخرجنا أبي جميعاً من العراق عاد مع والدتي إلى بغداد حيث كان قد تعهد رسمياً بالعودة ووقّع الكثير من الوثائق التي تلزمه العودة. بقينا نحن بصحبة أخي الموجود آنذاك في أوروبا، وكان والداي سعيدين لأنهما استطاعا جمعنا مع أخينا. عند عودتهما صعبت علينا ساعة الوداع. بكينا كثيراً أو شعرنا بالانكسار.

ومع أننا كنا ندرك أنهما سيعودان فيما بعد غير أننا اعتبرنا ذلك اليوم بعيداً ووجب علينا أن نفترق عن والدينا.

ظننت آنذاك أن بإمكاننا أن نتحمل ذلك الفراق القاسي أو ربما تظاهرت بالصبر ولكن الآن وبعد أكثر من عشرين سنة أعلم أن ذلك الأمر كان صعباً جداً. كان علينا أن نواجه الحياة دون أبي وأمي وأن نعتمد على أنفسنا ونحن صغار السن. كانت قفزة صعبة من حالة الاعتماد عليهما إلى حالة النضج والاستقلالية. حصل كل ذلك بسرعة. عاد والديّ إلى العراق وبقيا هناك لعدة سنوات. كانت تلك سنوات صعبة جداً. شعرا بالوحدة بعد أن فارقهما الأبناء والبنات.

فجأة أصبح البيت موحشاً والأسوأ من ذلك هو أنه لم يكن ممكناً أن يحدّثا أي كان عن مشاعرهما.

كانت تلك محنة عاطفية صعبة لوالديّ. فمن ناحية شعرا بالارتياح لأننا جميعاً نعيش بسلام خارج البلاد، ومن ناحية أخرى كان فراقهما لنا صعباً جداً. حدثتني والدتي عندما رأيتها بعد سنوات أن قرار إبعادنا عن العراق كان صعباً عليها ولقد كانت معاناتها لغياب إخواني قاسية والآن تفاقمت المعاناة بشعورها بالوحدة القاسية لفراقنا أنا وشقيقتي وكانت قلقة علينا دائماً.

أما أختي زينة كانت قد تزوجت ورزقت بطفلها الأول فكان قلق والدتي على زينة لأنها جديدة العهد بالأمومة وهي ليست معها لترشدها كيفية العناية بطفلها. أما قلقها علينا فلأننا أنا وداليا كنا صغاراً دون سن الرشد وأمامنا طريق طويل لكي نسلكه. كانت تودّ لو أنها معنا مثل الأمهات الأخريات ولكننا حُرمنا من بعضنا في تلك السنوات الصعبة لنا. أحست والدتي بالشوق الكبير إلينا وكانت تبكي دوماً لغيابنا. كانت تدخل غرفنا وتقبل حاجياتنا وتنظر إلى صورنا وتتمنى لو أننا لم نغادرها.

كنت دائماً أعرف أن أمي عاطفية، ولكني توقعت أنها ستتعود فراقنا. وقد أخبرتني فيما بعد وقالت لي «تلك أصعب أيامي حين تركتكما وأنتما لا تزالان طفلتين بريئتين لا خبرة لديكما بالحياة الصعبة. كان فراقنا قاسياً عليها كما كان فراق والدي قاسياً علينا. لم نتصور أن نتمكن من الاستمرار دونهما. كانت قفزة سريعة نحو عالم الكبار. ومع أننا بقينا مع أخي وكنا نشعر بالأمن والسلامة فقد كان

علينا أن نتعلم أشياء كثيرة وأن نستقل بحياتنا ونشعر بالمسؤولية. بالنسبة لي كان عليّ أن أفكر بأمور مهمة مثلاً بأي مدرسة يجب أن ألتحق، وأي فرع سأدرس، وكيف سندبّر أجور الدراسة. كيف سأدبر حياتي اليومية من دون والديّ؟ لم تكن الحياة في الغربة خالية من المتاعب أظن أننا استطعنا التأقلم مع حياتنا الجديدة بشكل جيد. بدأنا نتطلع إلى الحياة أمامنا وما الذي سيأتي به المستقبل ما دمنا بعيدين عن إرهاب البعث فكل شيء على ما يرام. غير أن إرهاب البعث يلاحق حتى هؤلاء الذين غادروا العراق. وبشكل آخر الآن يجب أن ندبر أموراً أخرى. مثلاً تجديد جواز السفر وبالطبع إذا لم يكن المرء بعثياً فسوف تصبح هذه الإجراءات سلاحاً ضده. عند نفاذ صلاحية جواز السفر تصبح الإقامة والدراسة غير ممكنة. كما يُمنع العراقيون من تحويل أي مبلغ من المال لأولادهم في الخارج لذا كانت المشكلة في طريقة توصيل أيّ مساعدة لنا في غياب الطرق القانونية. كان أبي يعتمد على بعض الأصدقاء الذين يسافرون ليحملوا لنا بعض النقود ولم تكن هذه الطريقة مضمونة.

لم تعد تلك السنوات سنوات سلام بالنسبة لوالدي. كانت تلك سنوات الحرب العراقية الإيرانية حيث يجب على جميع العوائل إرسال أبنائها إلى جبهات القتال للدفاع عن حكومة البعث المعتدية. لم يكن أحد من إخواني في العراق ليشارك في تلك الحرب، لذا تعرضت عائلتنا للاضطهاد والملاحقة. كان جلاوزة النظام يدقُّون على الأبواب ويسألون عن الشباب لتجنيدهم وسوقهم إلى الحرب، يسألون عن عدد أفراد العائلة وكم من هؤلاء في الخدمة العسكرية، وعندما يأتي الجواب «لا أحد». يجب على العائلة أن تتبرع بمبلغ من المال.

استمرت أجهزة الأمن بمضايقة والديّ في وضع البيت تحت المراقبة المستمرة ليلاً ونهاراً لمعرفة من يزورنا. امتنع الكثير من الأصدقاء عن زيارة والديّ خوفاً من ملاحقة واستجوابات الأمن. حتى الأقارب امتنعوا عن زيارتهما خوفاً من النظام. عندما جاءت خالتي مع ولدها لزيارتنا أوقفها رجال الأمن وسألوها عن سبب الزيارة. أجابت خالتي «إنني أزور قريبتي. هل هذا ممنوع؟» سمحوا لها بعد إنهاء الاستجواب. كانت تهمة والديّ عدم الولاء لحزب البعث لأنهما دبرا مغادرة إخواني للعراق ولم يشارك أي منهم في الحرب.

كان والداي في ذلك الوقت قد تقدما في العمر وبديا أكبر من عمرهما الحقيقي بسبب المحن التي عاشتها عائلتنا. لم يحترم النظام أي إنسان سواء كان رجلاً أو امرأة كبيرة السن. تعرضت والدتي للاضطهاد في مدرستها حيث تمّ نقلها إلى مدرسة أخرى بحجة أنها تحرّض الطالبات على معارضة السلطة، ولم تقدم أي من أولادها للحرب أو للجبهة المشتعلة على الحدود الإيرانية. جاء رجال الأمن في أحد الأيام إلى البيت وكانت والدتي بمفردها أمروها أن تذهب معهم فلم يسمحوا لها بالاتصال بأبي أو حتى بخالتي. قالوا لها: «لا حاجة للاتصال بأحد ولن تتأخري كثيراً».

خرجت معهم وهي لا تدري إلى أين يذهبون بها وبعد أن وجدت أنْ لا جدوى من الرفض حيث يمكن أن يستعملوا العنف معها لذلك انصاعت لما أرادوا. في مقرهم سألها أحدهم الأسئلة ذاتها التي يسألونها كل مرة مثلاً: «أين ولدك حيدر؟ أين سامر؟ أين عامر؟». «هل فقدت ولداً في الحرب؟» وألقى التهم علينا. أجابت والدتي وهي غير متمالكة أعصابها: «من أنت لكي تشتمني وتشتم

زوجي؟ إنكم جميعاً جهلة ومن وسط دوني تستلمون أموالاً من الحزب وتحملون السلاح وتأخذون مراكز الدولة».

أخطأت والدتي بهذا الكلام فقام الضابط من مكانه وبدأ بضربها حتى أغمي عليها وسقطت على الأرض. عندما فتحت عينيها وجدت نفسها خارج المبنى. لم تتذكر ما حصل ووجدت صعوبة في الوقوف والمشي. شعرت بأن وجهها يتورم ولا تستطيع الكلام. أوقفت سيارة أجرة وعادت إلى البيت. قضت أربع أو خمس ساعات في دائرة الأمن. أخذت تتذكر ما حصل وتملكها الخوف من جديد. عندما عاد أبي أخبرته بما حصل لها. صاح أبي «جاؤوا إلى هنا وأخذوك؟ لماذا لم تتصلي بي؟ يا إلهي ما هذا الظلم؟ هل أنت الآن بخير؟» أجابت والدتي: «لم يسمحوا لي بالاتصال بك أو بأختي». أخبرت أبي بكل ما حصل لها ثم ذهبت لتنام حيث لم تكن تشعر أنها بخير. تألم أبي لأنه لم يتمكن من حماية والدتي وإبعادها عن أيدي هؤلاء الوحوش. كانت تلك قمة الوحشية أن يأخذوا امرأة من بيتها من دون علم زوجها أو أحد أقربائها. ازدادت انتهاكات حكومة البعث للقوانين وازداد حقدهم على الناس. بعد أن تعرضت والدتي للاستجواب والإهانة. كانوا قد أخذوا والدي للاستجواب عدة مرات. غير أن أبي أصبح أكثر هدوءاً فكان لا يستفزهم بالكلام. أما والدتي فلم تسكت أو تشاركهم آراءهم في إهانة الآخرين لذا فقد تعرضت للضرب.

قلق والدي بسبب مرض والدتي بعد تلك الحادثة، اتصل أبي بخالتي ناجية وأخبرها بما حصل. جاءت خالتي وأمي لا تزال نائمة. استيقظت عند المساء ووجدت نفسها عاجزة عن الكلام. شعرت بأن

وجهها صلب كالحجر وشعرت بالدوار عندما وقفت. عندما رآها أبي صاح: «ماذا حصل لوجهك؟ تكلمي .. قولي أي شيء».

حاولت والدتي الكلام ولكن بصعوبة. ذهب أبي إلى جارنا الدكتور أنور ليأتي ويفحص والدتي. عندما فحصها أصابه قلق كبير. سأل الدكتور: «ماذا حصل؟ هل تعرضت لحادثة؟ أرجوك قل لي».

عرف الدكتور بما حصل لأمي في دائرة الأمن. وتكلمت والدتي ولكن بصورة غير مفهومة ثم كتبت على ورقة بعض الجمل. كتبت أنهم ضربوها عدة مرات على وجهها وعلى رأسها حتى أغمي عليها.

غضب الدكتور وصاح: «هؤلاء المجرمون متى نتخلص من شرهم. ما كان عليك معارضة كلامهم كان يمكن أن يقتلوك». ثم أضاف: «يجب أن تبقي في البيت. هذه الإصابة مؤقتة يجب أن تأتي غداً إلى العيادة وسوف أرسلك إلى وحدة العلاج الطبيعي. ربما يستغرق شفاؤك عدة أسابيع».

بعد أن استمرت بالعلاج شفيت والدتي خلال أسابيع. كانت والدتي في البيت في أحد الأيام عندما سمعت جرس الباب وجدت شاباً ربما دون الثامنة عشرة من عمره يرتدي ملابس الجيش الشعبي. لم تعرفه والدتي في بادىء الأمر وإن بدا مألوفاً لها. كان فرداً من أفراد الجيش الشعبي المتكون من شباب العوائل الفقيرة. حاولت والدتي أن تتذكر هذا الشخص الذي فاجأها بخشونة: «أين مكي؟ هل هو في البيت؟» غضبت والدتي لسلوك هذا الصبي الأحمق فهو حتى لم يسلم عليها أو يعرّف نفسه لها، وفوق كل ذلك ذكر اسم والدي هكذا. كان الأمر المألوف في العراق أن يسبق الاسم الأول لأي

شخص أكبر سناً من المتحدث كلمة «أستاذ أو عمو» وذكر الاسم الأول هكذا مجرداً من هاتين الكلمتين يدلّ على عدم الاحترام وقلة الأدب. حتى لو وجدنا غريباً في الشارع وتحدثنا معه أو سألناه عن شيء فإننا نستعمل كلمة عمو أو أستاذ.

سألته والدتي: «عفواً؟ من تكون؟» قال: «أنا حسن ابن الفلاح في حديقتكم. أنا الآن حرس شخصي لطه ياسين، وكان طه ياسين آنذاك يشغل منصباً في الدولة وكان مسؤولاً سابقاً في الحكومة البعثية».

تذكرته والدتي حالاً. لقد كبر. كان يرافق والده أحياناً للعمل في حديقة بيتنا. كان أبوه مسؤولاً عن رعاية الأشجار والنباتات في الحديقة وكان يعمل عدة ساعات في حديقتنا يومياً. كان والداي يشفقان عليه وعلى ولده دائماً. غضبت والدتي وصاحت به «ألا تخجل؟ هل هذا الذي تعلمته في التدريب البعثي ألم يعلموك على كيفية مخاطبة من هم أكبر منك سناً، ألا تحترم صاحب هذا البيت الذي كان يعطف عليك وعلى والدك؟ حتى لا تعرف كيف تقول أستاذ مكي أو عمو مكي؟ اغرب عن وجهي لا أريد رؤيتك؟».

شعر الصبي بالخجل وغادر المكان ولم ينطق بكلمة. غضبت والدتي لما حصل في المجتمع من إفساد وللشباب. لم يبق هناك أخلاق ومبادئ. كان الفلاح رجلاً فقيراً يسكن في أطراف بغداد. لم يستطع إرسال أولاده إلى المدرسة. كان يأتي بولده معه أحياناً لمساعدته في العمل في الحديقة. كانت والدتي دائماً تقدم لهما الطعام وأثناء الأعياد والمناسبات الأخرى كانت ترسل لعائلته الهدايا والنقود

مع أننا لم نكن نعرف تلك العائلة. عندما جاء يسأل عن أبي كان دون الثامنة عشرة ومع ذلك فحزب البعث يجنّد حتى هؤلاء الصغار في جيشه الشعبي ويدربهم على الخشونة وعدم الاحترام حتى لآبائهم أو أقربائهم كبار السن.

كان هؤلاء يتجولون في الشوارع ليجمعوا التبرعات أو القيام بأعمال أخرى وفق طلبات المنظمات الحزبية المختلفة. كان العديد من هؤلاء قد انتظم في الجيش الشعبي وحتى الفتيات المراهقات. ويعطى لهؤلاء السلاح ويتم تدريبهم على إهانة وإرعاب الناس واحتقار العوائل المحترمة. كان شكلهم مخيفاً وهم يتجولون بسلاحهم الذي يخيف الآخرين.

الفصل السادس

رسالة حب

غادر والداي العراق إلى بريطانيا في عام (1985). كان ذلك إنجازاً عظيماً أن سمح لهما بالمغادرة لأسباب طبية. حصلا على تأشيرة المغادرة بعد أن هيأ أبي اتصالاً بطبيبه في لندن وأرسل الطبيب موعداً لرؤية أبي وحصلت والدتي على تأشيرة لمرافقته. تنفسا الصعداء فقد كان الحصول على موافقة السفر أمراً يقرب من المستحيل.

كان إصدار الموافقة «منّة» تمنّها الحكومة على من يريد مغادرة البلاد. لم يسمح لوالديّ بحمل مبلغ كافٍ للعلاج وهذه طريقة أخرى في تشديد القيود على السفر إلى الخارج حيث لن يتمكن المسافر من البقاء طويلاً لأن المبلغ المسموح به لا يكفي المسافر سوى أسابيع قليلة، وإذا بقي أكثر من ذلك فسوف يتعرض للسجن والتحقيق وتهمة تهريب الأموال. إذن فقد هيّأ نظام البعث أساليب عديدة لمحاصرة الناس وعندما ينفد المبلغ القليل الذي يحمله المسافر معه فسوف يضطر إلى العودة حتماً.

غادر والداي البلاد وهما يرغبان في العودة بعد انتهاء العلاج فقد تركا بيتهما كما هو. تركا الحاجيات التي أحبّاها واعتنيا بها

أكثرها صور العائلة واللوحات الفنية والكتب الثمينة وما جمعاه من تحف من دول العالم المختلفة والهدايا التي قدمت لهما. لم يكن بالإمكان تصفية كل ذلك لأنه سينبّه الحكومة إلى أن هؤلاء الناس يعزمون مغادرة البلد. وتركا أيضاً حاجيات جمعتها والدتي لكل منا لتقدمها لنا بمناسبة زواجنا وحتى لأولادنا في المستقبل. كانت أمي رقيقة وذات خيال واسع. فقد جمعت هدايا وملابس وأشياء أخرى لكل واحد من أولادها. كانت تحتفظ بالِأشياء الثمينة منها ملابس من اليابان، أقمشة من الهند، ملابس أطفال من بريطانيا وهكذا... كنت أرتّب هذه الحاجيات معها مرات عديدة. كانت تريني أشياء جميلة وتقول: «هذا لزفافك جلبته من اليابان وهذا للطفل الأول.». كانت تحتفظ بمثل هذه الِأشياء لإخوتي وأخواتي. وعند مغادرتها العراق مع أبي تركت كل شيء في مكانه بأمل أن تعود ثانية. كانت فيما بعد تقول بحزن: «كنت أودّ أن أعطيكم جميع هذه الهدايا في أيام زفافكم لقد جمعتها في سنوات طويلة وكنت سعيدة بجمعها. كنت أريدها مفاجأة لكل منكم فيما بعد. أتمنى أن تصلكم يوماً ما. لا أريد أن تضيع». كان من المحزن أن تذهب كل هذه الأشياء - وإن كانت مادية- حيث كان من الصعب لوالدتي أن تنساها لقيمتها المعنوية. غير أن الخطر في عودتها كان قائماً ممّا جعلها تكتم حزنها وألمها. حتى العواطف والمشاعر الإنسانية الطبيعية غابت عن حياة العراقيين بسبب حزب البعث هذا.

كانت الهجرة إلى دول أخرى صعبة جداً لكبار السن وحتى لوالديّ اللذين سافرا كثيراً خارج العراق خاصة والدي الذي قضى سنوات طويلة في الخارج. فالتأقلم مع حياة المهجر صعب جداً لكبار

السن. يمكن أن يرجع ذلك أن لكبار السنّ ذكريات عزيزة يحنّون إليها دائماً: بيوتهم، أصدقاؤهم، جيرانهم، أماكن نزهاتهم... فيحس هؤلاء أنهم بلا جذور في بلاد الغربة. هكذا كانت مشاعر والديّ وهي كمشاعر كل كبار السن الذين التقيتهم في دول المهجر. في حين أن الشباب والأطفال لا يجدون مثل هذه الصعوبة في العيش والسبب لأن الشباب يندمج في الدراسة ثم في العمل ويحقق هدفه في حياة جديدة ومجتمع جديد يحبه حيث يتزوج ويستقر وينجب ويكوّن جذوراً جديدة. هؤلاء الشباب يواجهون التحديات الجديدة مما يدفعهم إلى النجاح والسعادة.

كان والداي يريدان العودة إلى العراق بسرعة. وكانا في حيرة ودوامة من ناحية كانا يفتقدان بيتهما وأصدقاءهما والأقارب، ومن ناحية أخرى يريدان البقاء قربنا. كانا سعيدين لأن جميعنا أصبحنا خارج العراق، على الأقل كنا في أمان من شر البعث. ولكنهما كانا يأملان تغير النظام في العراق لنعود جميعاً إلى أرض الوطن، كان هذا حلمهما. فبقيا في بريطانيا ولم يعودا إلى الوطن ربما لأننا أصررنا على بقائهما أو أنها مشيئة الله عز وجل هي التي منعتهما لا يعلم الغيب سوى الله عز وجل. لا ندري ما كانا سيلاقيان لو كانا قد عادا إلى العراق. ربما كانت معاناتهما ستكون أكبر بكثير خاصة وأن إخوتي لم يشاركوا في حرب الخليج الأولى وهذا مؤشر لدى النظام على عدم الولاء والإخلاص للحزب والثورة حيث يثبت الناس ولاءهم لنظام البعث بعدد من يقتل في المعركة من أبنائهم. كان صدام يزور العوائل التي يُقتل أبناؤها في الحرب وتنقل هذه الزيارات مباشرة على شاشة التلفزيون دائماً. يكون صدام وسط حاميته وحاشيته

وتكون الزيارة مفاجئة يسأل العائلة: كم عدد الأولاد؟ فيقدم الأهل أبناءهم ويهتف الجميع «بالروح والدم نفديك يا صدام» عند ذلك يقدم للعائلة هدية نقدية كبيرة أو سيارة آخر موديل في حال موت أحد أولادها في الحرب. بالطبع فإن الإنسان العاقل لا يرضى باستبدال ولده بمبلغ من المال أو سيارة. غير أن جميع المفاهيم الاجتماعية تغيّرت بسبب سياسة البعث العدوانية. والأكثر من ذلك، إذا لم يكن للعائلة أولاد شاركوا في الحرب فلن تنجو العائلة من المتاعب. يجب عليها أن تتبرع بالمال لدعم الحرب فتقدم المرأة حليها الذهبية ومجوهراتها لهذا الغرض. فيأتي مسؤول من الحكومة إلى المدارس والدوائر لجمع التبرعات طوعاً أو كرهاً. وتمّ تجنيد حتى الفتيات الصغيرات للقيام بأعمال أو نشاطات تساند الحرب. سارت الأمور في العراق بغرابة وشذوذ لم يعهدها أحد من قبل. أصيب الناس بشبه غيبوبة، يتبعون الحكومة بشكل أعمى مسلوبو الإرادة يرضون بموت أولادهم في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل. لم يكن لدى الناس فرصة الرفض أو الاختيار. وأصبح العراق ماكنة تطحن البشر، فإن لم يمت المرء في زنزانات النظام فسوف يموت في تلك الحروب. منذ (1979) وحتى أواسط الثمانينات تمّ اعتقال وإعدام الآلاف من شباب وشابات العراق، وتعرض الجميع للتعذيب حتى الموت بسبب عدم انتمائهم لحزب السلطة، ومات الآلاف في حروب النظام وانتهى آخرون في سجونه.

أثناء الحرب العراقية الإيرانية، أصبح تجنيد طلبة الجامعات إجبارياً وحتى الشباب دون الثامنة عشرة تمّ سحبهم من مدارسهم وأجبروا على التسجيل في قوات الاحتياط العسكرية. تمّ تجنيد أحد

أقربائنا وكان لا يزال في المدرسة الإعدادية. حاول الناس بوسائل بائسة تجنب الذهاب إلى الحرب. تمّ تجنيد حتى كبار السن وكان البعض من هؤلاء لا يريد المشاركة في الحرب. كان البعض يتسبب عمداً بإصابة نفسه بعاهة لكي يتجنب الالتحاق بالجيش. أصبح الوضع مرعباً لكافة الناس، كلٌّ يحاول تجنب التجنيد العسكري الإجباري. كان البعض يتعمد الرسوب في مدرسته لكي يتأخر سنة ولا يضطر إلى التجنيد وإذا لم يلتحق فسوف يتعرض هو وعائلته للعقوبات القاسية وإذا أُلقي عليه القبض فسوف يُعدم علناً وأمام عائلته ويجب على العائلة بأكملها أن تدينه. كان على الآباء والأمهات أن يقدموا أبناءهم كمادة للحرب وعلى المرأة أن تقدم زوجها كذلك. كان ذلك في منتهى القسوة والوحشية. كان الأمر استخفافاً بالحياة الإنسانية. وإن لم يكن كل هذا كافياً، تُجبر العائلة أحياناً على المشاركة في تنفيذ الإعدام بولدها علناً وأحياناً كثيرة تُترك الجثث في الساحات العامة لتتعفن وتصبح عبرة للآخرين. ولم يُسمح للعائلة حتى دفن أعزائها القتلى، وأضحت معظم نساء العراق يلبسن السواد تعبيراً عن الحزن الدائم. وأصبح لبس السواد هذا ظاهرة أزعجت النظام لذا أُصدر قرار بمنع النساء ارتداء السواد عند موت أحد رجالهم بالحرب أو بالإعدام، ولم يكن هذا يرضي النظام الوحشي فقد منع في بعض الحالات حتى إقامة مجالس العزاء العلنية وهكذا انتهك النظام أبسط أنواع الحريات الشخصية. هكذا يهزأ النظام بمشاعر الناس وظهرت أغاني عديدة تعبّر عن الحزن الذي لا يمكن البوح به.

* * * *

تعرضنا لمحنة أخرى أثناء بقاء والديّ في بريطانيا. فقد أصيب أبي بجلطة دماغية تركته عاجزاً عن المشي والكلام. وبعد العناية المركّزة والعلاج الطبيعي لعدة أسابيع استطاع المشي متكئاً على عصا غير أنه لم يتعافَ تماماً. لم نرض لوالديّ أن يعودا إلى العراق بسبب صعوبة العناية الصحية لوالدي. وكان العراق آنذاك يعاني من جرحى الحرب والمستشفيات تغصّ بالمصابين ولو عاد أبي ما كان ليجد من يهتم به وسيكون أول سؤال له: كم فقدت من أولادك في الحرب؟ ماذا قدمت للحرب؟ أنت كبير السن ولن تنفعنا! لن تعترف الدولة بسنوات خدمته الطويلة في تعليم المئات من الطلبة ولا تحترم كبر سنه وحالته المرضية.

قضى والديّ السنوات المتبقية من حياتهما في بريطانيا يصارعان المرض والحالة الصحية المتدهورة ويحلمان بالعودة إلى العراق متألمَيْن للحالة المزرية التي يعيشها الشعب هناك. لم يتكيَّفا بسهولة مع حالة الاغتراب وهما متقدمان بالسن. تعرض أبي مراراً للجلطة الدماغية وساءت صحته كثيراً.

منذ بداية مرض أبي كانت والدتي ترعاه كعادتها دائماً، تحيطه بالمحبة والحنان. عاشت معه سنوات سعيدة ووقفت إلى جانبه في الأيام الصعبة عند اعتقاله وفيما بعد، وزادت كل تلك المحن في تعلقهما ببعضهما. كانت أمي دوماً الصديقة الوفية والزوجة الحبيبة لوالدي على طول العهد. ولكن أفضل وأجمل ما كانت ستقدمه بعد ـ لأبي ـ كان قادماً في الأيام المقبلة.

فقد اعتنت به ورعته بكل قواها. ورأيت بأم عيني مدى

إخلاصها وحبها ومعاناتها في تلك الأحداث. ومع قلقها وخوفها الشديد مما أصابه فهي لم تظهر أي من مخاوفها وقلقها أمامه. بل بالعكس كانت تبدي نشاطاً ومرونة فوق حدود التصور، بالرغم من معاناتها وألمها وشعورها بالإحباط، كانت قوية وجبارة بإرادتها وكأن التجارب القاسية قد أشعلت الطاقة والقوة في داخلها.

كانت أمي تنهض كل صباح وتذهب إلى المستشفى لتعتني بأبي وكأنها ممرضته الخاصة أو طبيبته الخاصة. تبقى قربه تحدثه وتدخل السرور إلى قلبه. تحدثه عمن سأل عليه وتتمنى له الشفاء، أما نحن فقد كنا نسكن في بلاد شتّى. كنت أنا في زيارة عندهم في ذلك الوقت وبقيت هناك لفترة بعد إصابة أبي. كانت تهيّئ طبقه المفضّل وتحمله إليه وتبقى معه طوال اليوم تحدثه كأنها تضخ الحياة في عروقه وكانت تود لو تبقى معه ليلاً غير أن قوانين المستشفى لم تسمح بذلك فكانت تعود إلى البيت عند المساء. تدعو الله تعالى وتصلي، وكانت معه عند إجراء الفحوصات والأشعة. كانت تسعى حتى لا يعاني من أي إهمال ولا يشعر بالوحدة في المستشفى. كان أبي يشعر بالأمان عندما تكون والدتي قربه وهي نذرت وجودها لكي يكون أبي بخير.

كانت استجابة والدتي لهذه الأحداث شيئاً يفوق العادة فبالرغم من أنها كانت متأثرة وحزينة لكل ما يحصل لأبي فقد تحول ذلك الحزن إلى طاقة وقوة لا يمكن تصورها وظهرت واضحة في روحها التي لم تستسلم إلى أي هزيمة وفي رعايتها لأبي ولنا كلما التقينا بها.

وفي الوقت الذي كانت تعيش الألم والحزن كانت تضفي الحب والحنان على من حولها وأظن أن هذا ناتج عن إيمانها بالله سبحانه وتعالى وعن حبها وإخلاصها لأبي. كان سلوكها معبراً عن إخلاصها وحبها. كانت ترعى أبي طوال الوقت وقد أدهش سلوكها كادر المستشفى الطبي فأهدتها المستشفى وساماً بسبب ذلك الإخلاص والرعاية لمريضها: أبي. كان الزوار يأتون لزيارة أبي بعد أن سمعوا بإصابته. كانوا يأتون من أوروبا والبعض من داخل بريطانيا وكان أحدهم من أقاربنا: السيد هادي الذي كان يرى والدتي كلما جاء لزيارة أبي وقد تأثر الرجل وكان متحدثاً لبقاً ومدح والدتي قائلاً «يجب أن أقبّل هذه اليد التي نذرت صاحبتها حياتها لخدمة مكي ووقفت بجانبه في أيام المحنة». والتفت نحو أبي وقال: «إنك رجل محظوظ لتحبك لهذا الحد». وقد فرح والدي بكلمات المديح والإطراء لوالدتي. لقد نذرت والدتي حياتها لوالدي وكانت تلك الأيام شاهداً على مثابرتها في العطاء بأحسن صوره. لم أشهد مثل هذا الولاء والعطاء ولم أكن أدري بوجود مثل هذا الحب بين الزوجين. كان ذلك مثالاً للحب الحقيقي والإخلاص.

بالطبع من السهل أن يحب المرء زوجه في أيام السعد والسرور غير أن الاختبار الحقيقي للحب والوفاء يأتي في أيام المحن والشدة. كم يتحمل المرء ومتى ينفد صبره؟ إن العلاقة الهشّة سرعان ما تنهار عند أول أزمة. لا يمكن لأحد أن يفهم تلك المشاعر إلّا إذا كان قد أحب شخصاً من كل أعماقه. علمتني تلك الأيام معنى آخر للحب والمعنى الحقيقي للإخلاص. تلك السنوات القليلة التي رأيت فيها والدتي ترعى أبي جعلتني أفهم مصطلح توأم الروح أي اللذين لا

يمكن الفصل بينهما وعندما يتألم أحدهما يشعر الآخر بنفس الألم لأنهما كيان واحد.

عندما كنت قربهما في تلك الأيام لاحظت المجهود الذي تبذله أمي للعناية بأبي. حاولت أن أساعدها وأخفّف عنها بعض العبء رفضت مساعدتي بشكل قاطع كنت أطلب منها أن تبقى في البيت للراحة يوماً أو يومين وأن أذهب أنا بدلاً عنها، غير أنها كانت ترفض، وعندما أقنعتها مرة أو مرتين كانت لا تكفّ عن الاتصال بالمستشفى طوال النهار. كنت أطلب منها أن تذهب لترتاح أو تخرج لتشرب الشاي أو تذهب إلى السوق لترتاح قليلاً ولكنها كانت ترفض وتأتي إلى المستشفى لتقول إنها لا تستطيع عمل أي شيء آخر وهي تعلم أن والدي يتألم وهي بعيدة عنه.

ومع أنها قدّمت أفضل ما عندها في هذه السنوات غير أن ذلك كان فوق طاقتها فتأثرت نفسياً وجسمياً وبدأت تعاني من صحة متدهورة وقلب متعب بسبب تلك المحن. تحمّلت كثيراً أو تحمّلت إلى الحدّ الذي استهلكت فيه كل ما عندها. يتهالك البعض من الناس عند أول محنة ويتحمل البعض الآخر وأعتقد أن أمي كانت من النوع الذي يتحمل. ومع استمرار المحنة طويلاً بدأت صحتها تتدهور. كانت معاناتها لسنوات طويلة مؤلمة جداً. عند بقائي معها وأبي في المستشفى كنت ألاحظ انهيارها العاطفي كأنها كانت تعيش محنة (1973) مرة أخرى. كانت تبكي وتتألم وكنت أحاول أن أخفّف عنها قليلاً وبصعوبة كبيرة.

كان أبي قلعتها الصامدة ورفيق دربها. استمدت منه كثيراً من

القوة منذ أن ربط الحب بينهما. لم أكن أعلم أن للحب قوة كتلك. لقد أحبت أبي ليس كزوج ورجل بل أحبته روحياً. كانا روحين توأمين يتقاسمان المشاعر والعواطف. كانا زوجين وصديقين. استمد أحدهما من الآخر القوة والسعادة.

كانت والدتي تتذكر الأيام الحلوة معه وكيف كان يحيطها بحبه وحنانه. كانت تتذكر تلك الأيام بكل دقائقها وتشعر بالامتنان لأبي دائماً تمتدحه وتشكره لكل الأوقات السعيدة التي عاشتها معه وحيث أعطاها كل ما عنده جاء الآن دورها لتعطيه كل ما عندها. كأنها تفي بوعدها له. كان بينهما حب وإعجاب لا يمكن تصوره.

كانا يتشوقان للعودة إلى العراق ويفتقدان بيتهما وحديقتهما والأصدقاء والأقارب والصور والذكريات الجميلة والأشياء الصغيرة الأخرى. كانا يتألمان لكل ما يحصل في العراق من تخريب وخسارة في الأرواح. يسمعان قصصاً مرعبة عما يحصل هناك حيث تتدهور الحياة يوماً بعد يوم في ذلك البلد الجميل. كانا يشعران بالغربة القاسية والتغير الكبير في حياتهما من حيث المرض وفقدان العمل والأشياء الثمينة الأخرى، وقد زاد هذا في خيبتهما وحزنهما. تعبا من تلك المحن والمشكلات وكانا يريدان الراحة والشعور بالأمن والسلامة. كان حزنهما بسبب الغربة والمرض والأنباء السيئة عن العراق. يصعب على كبار السن ترك الوطن خاصة في حالة والديّ فقد غادراه بسرعة تاركين وراءهم كل شيء: الأصدقاء والأقارب والأشياء المعنوية التي لا تثمن. لم يجدا طريقاً للعودة أبداً. كان عزاؤهما الوحيد إبعادنا أنا وإخوتي جميعاً عن جرائم البعث ومثل

جميع الآباء والأمهات كان قلقهما دائماً حول وضعنا في مجتمع غريب نواجه فيه تحديات جديدة. وفعلاً كنا جميعاً في وضع صعب. كنا نعمل بجدّ لنتقدم خطوة نحو الأمام. كنا في دول متفرقة لا ندري عن بعضنا شيئاً ولم نستطع السفر بسهولة.

ومع أننا تأقلمنا مع الحياة الجديدة بسرعة وشعرنا بالأمان خارج العراق كان علينا أن نتكيف أو نتعلم أساليب الحياة الجديدة ولم يكن سهلاً لأيّ منا مواجهة المتاعب اليومية غير أننا استطعنا تدبير أمورنا.

كان لوالديّ لحظات سعيدة عند ولادة أحفادهما وأصبح مصدر سعادتهما الوحيد رؤية هؤلاء الأحفاد وقد شغلهما ذلك فترة من الزمن. كانا يتلهفان لمعرفة أن حياتنا تسير بشكل طبيعي بعيداً عن متاعب العراق.

في ساعات الفجر من أحد أيام شهر تشرين الثاني القارس في لندن توقفت سيارة شرطة قادمة من المستشفى أمام شقة صغيرة. نزل منها أخي حيدر بعد أن قضى ليلة طويلة في المستشفى وعاد في الفجر. كانت والدتي قد قضت نحبها قبل ساعتين أو ما يقارب. كان أخي قد ذهب معها في سيارة الإسعاف وبقي هناك في المستشفى. لم ينفعها العلاج بعد تعرضها لأزمة قلبية. بقي أخي في قاعة الانتظار وهو يدعو الله تعالى لينقذها. لم يكن منتبهاً لما يجري حوله. كان غارقاً بالصلاة والدعاء لعودتها سالمة. وبدا وكأنه أمضى وقتاً طويلاً هناك. وفجأة جاء الطبيب المعالج لينقل له الخبر المفجع: لقد رحلت أمك ولن تعود. صُدِم أخي ولم ينطق

بكلمة وبدأ الأسى يغمره أحس بأنه لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه. أظن أن هذا ما يحسه كل من يفقد عزيزاً. إنها أحاسيس ذات رهبة ولا يمكن تحملها بسهولة وخاصة عندما نحسها لأول مرة في حياتنا.

ومع أن أخي حيدر هو أكبرنا سنّاً وقد تحمل بشجاعة كل ما مرّ بنا من المحن والمتاعب فقد أصيب الآن بصدمة. بقي في مكانه فترة ثم استعاد جأشه وذهب إلى حيث كان والدتي وقرأ سورة الفاتحة وبعض الآيات الكريمة. وأصبح واجبه الآن أن يحمل النبأ المحزن إلينا جميعاً. غادر المستشفى بسيارة الشرطة التي أوصلته إلى البيت. شعر أنه عاجز عن الكلام وتمنى لو استمرت السيارة في سيرها دون توقف لكي لا يواجه أبي وأختي داليا حيث كانا في البيت. وصل الشقة وشعر كأنه يمشي على جمرات من نار. ماذا سيقول لأختي؟ لأبي؟ رأى داليا بانتظاره قرب الباب. كانت متلهفة تدعو وتصلي طوال الليل وتأمل بعودة والدتي مع حيدر. غير أن المحذور قد حصل.

كانت داليا قد أمضت ذلك اليوم الغريب مع والدتي وقالت: «كأن والدتي علمت بأنها ستتوفى في ذلك اليوم. بدا واضحاً في نظراتها ووجهها المشرق وملاحظاتها وكلماتها القليلة». غمرت داليا مشاعر غريبة عندما رأت أخي يدخل لوحده ويحتضنها والدموع في عينيه. صاحت: «هل انتهى كل شيء؟» أعطاها ظرفاً أسمر فتحته بيد مرتعشة. كان بداخله خاتم زواج والدتي وقرطين نُزعا من أذنيها عند وفاتها.

تهالك حيدر وداليا على الأرض يبكيان بصمت ما أصعب أن

يبكي المرء بصمت حيث لا يمكن التحكم بالمشاعر في هكذا لحظات. ولكن كان يجب عليهما التحكم بأحزانهما لكي لا يشعر أبي الذي كان داخل البيت بفقدان أمي.

كانت داليا مع طفلها ذي الأربع سنوات في زيارة لوالديّ وكان ولدها أحمد متشوقاً لرؤية جده وجدته وتعلق بوالدتي مثل أي طفل صغير يتعلق بجدته. كانت تأخذه في نزهات قصيرة في لندن وتشتري له أشياء كثيرة تعجبه. عندما عادت داليا وإلى الغرفة كان ابنها يسأل عن جدته فهو قد نام قبل أن تصاب بالأزمة القلبية ولم ير ما حصل لها ولم يدر لماذا هي غائبة عن البيت. شعرت داليا بألم كبير عليها أن تهتم بطفلها وأخيها ووالدها.

يأتي موت الأحبة بشكل مفاجئ ومن دون توقع. ومع عقلانية البشر وإدراكنا أن الموت سيأتي حتماً نُصاب جميعاً بالذهول عند قدومه. وهكذا تركت وفاة والدتي آثاراً مدمرة علينا جميعاً وخاصة على أبي. لم تكن هي حياته ومصدر أمله والنور الذي يضيء دربه وحبه الوحيد فحسب بل كانت قلعة صامدة لنا جميعاً خاصة عند إصابة أبي بالعجز عن الحركة والكلام. ففي سنواتها الأخيرة كانت هي الخيمة التي نحتمي كلنا تحتها. كانت مصدر النور المضيء أثناء الظلام. بالرغم من مرضها والمحن التي مرّت بها وهي ترى تردي صحة والدي حافظت على قوتها الروحية والمعنوية معظم الوقت. كانت صلبة ومثابرة بشكل لا يصدق. كانت شديدة الإيمان بالله تعالى متكلة على رحمته. لم تقنط أبداً وهي ترعى أبي. كانت مثل جندي جريح يقاتل حتى آخر رمق في حياته. كانت قد أوجدت ـ بحيوية خلّاقة ـ لحظات سعادة لنا ولأبي. اعتمدنا كلنا على حبها وحنانها

وقوتها. كان فقدانها وكأنه كسر ظهرنا. كان فقدانها الضربة القاضية التي نزلت علينا لتحطمنا. أصبحت الحياة بعدها أكثر صعوبة لنا. شعرنا جميعاً وكأن المتاعب قد انهالت علينا، وكأنما كانت تحمينا جميعاً بدعائها وصلاتها، كانت لنا مصدر الحب والأمل بالرغم من محن الحياة.

يقال إن الأحبة يريدون دائماً صحبة أحدهما الآخر حتى أنهما يتمنيان الموت سوياً. لم أكن أصدق هذا الكلام الأسطوري إلّا بعد وفاة أبي الذي لحق بوالدتي سريعاً. أثناء الأسابيع القليلة التي عاشها أبي بعد والدتي بقيت داليا وإخواني قرب أبي للعناية به. كان أبي في كل يوم يحنّ إليها ويشعر بالحزن العميق ويقول لأخي عامر: «لا أظن أني سأبقى طويلاً بعد غياب والدتك. يجب أن ألحق بها. لا أتحمل غيابها» بقي يتحدث عنها ليلاً ونهاراً يتذكر حنانها وعطفها في لحظات حياتهما المشتركة. كان يتذكر تفاصيل لقائهما وزواجهما ورحلاتهما في شهر العسل والمناسبات الأخرى. كان يتذكر رعايتها لنا ونحن أطفال ثم يسأل: «أين هي الآن؟ ماذا تفعل؟» ثم يبكي قائلاً: «أين أنت أيتها الحبيبة؟ لماذا تركتني؟ أريد أن أكون معك. سآتي إليك قريباً». كان يفكر بها في كل لحظة. كنت أسمع والديّ يتمنيان الموت سوياً لأنهما يحبان بعضهما ولا يمكن لأحدهما الحياة في غياب الآخر. كنت أتجاهل هذا الكلام وأقول لهما: «أتمنى أن تعيشا حياة سعيدة طويلة». لم أتصور أن تتحقق رغبتهما. يبدو أن والدتي أرادت أبي أن يلحق بها. إنها حقاً لعلاقة فريدة بين الأرواح المحبة لبعضها.

بعد وفاة أبي بأيام كنا أنا وإخوتي في شقة أبي نجمع

حاجاتهما البسيطة ونهيئ الشقة لإعادتها لأصحابها. كنا جميعاً نبكي. أثناء ذلك وجدنا رسالة من والدي كتبها لوالدتي بمناسبة ذكرى زواجهما قبل أشهر قليلة من وفاتها. بكينا جميعاً لرسالة الحب التي وجدناها. لم أصدق أن يكون هناك مثل هذه المشاعر الصادقة بعد سنوات طويلة تجاوزت (36) سنة من الزواج.

في مكان ما في بغداد يقبع بيتنا وحيداً كئيباً يشكو غياب أصحابه. ماذا بقي منه بعد أن نُهب وسُلب؟ لم يبق شيء سوى بعض الجدران وبعض الغرف وبعض الحجارة والأشجار، لا حياة هناك لأصحابه. لا أزهار ولا عباد الشمس ولا عناقيد العنب ولا ضحكات الصغار. لا صور ولا أشياء ثمينة».

ماتت معظم الأشجار والأزهار وسُرقت معظم محتويات دارنا الكبيرة. تركنا كل ذلك. لم يعد له قيمة بعد أن امتدت إليه يد الظلم والطغيان. غير أننا نسمع الصدى المدوي بين جدران المنزل يتردد وبين الأشجار. صدى أحداث أيام سعيدة وليالي معتمرة جميلة. صدى لأمنيات والديّ لزيارة بيتهما مرة واحدة قبل الرحيل. صدى كلمات الحب لنا ورغبة أبي في أن يحتفل بزواجنا في حديقة بيتنا الجميل ورغبة أمي في أن تقدم لنا ما جمعته من دول العالم من أشياء جميلة.

أما في الليل الداكن فتحلق روحاهما حول البيت وكأنها تفتش بين ظلمة الجدران عن ذكريات وردية لأيام سعيدة حيث الولائم والزيارات في المناسبات المختلفة والأنوار المتألقة والشرائط الذهبية المتناثرة في الحديقة وليالي الشتاء الباردة

والأمطار الغزيرة ورائحة حبات الكستناء المشوية على النار. تشهد بصمت الشوارع المحيطة بالبيت على الأحداث التي مرّت علينا وتحملناها.

ربما رحل الكثير من الأصدقاء والجيران الشهود على تلك الأحداث وربما هم في طريقهم إلى الرحيل. ربما لا يوجد هناك من يتذكر عائلتنا بعد هذه السنوات الطويلة. أما بغداد فلا تزال تعيش تحت كابوس الرعب والإجرام البعثي وربما أكثر مما حصل من قبل. كان إخراجنا من العراق وإبعادنا عن أيدي النظام انتصاراً لأبي على حكومة البعث. بالرغم من الخسارة المادية وتحمل الألم استطاع أبي حمايتنا من الحروب العدوانية للنظام. كانت بغداد وكأنها فريسة لنار تقترب منها وتلتهم كل ما هناك. تحرك أبي بسرعة لإبعادنا جميعاً الواحد بعد الآخر، أما هما فقد أصابتهما جرائم النظام فرحلا قبل الأوان.

لم يكن ذلك الإنجاز أمراً هيناً بتلك الظروف الصعبة والعقبات الكثيرة كان الأمر يشبه المستحيل ولكنهما نجحا في إنقاذنا. خاطرا بحياتهما وتحملا الحزن والألم في أيامهما الأخيرة من أجلنا. أبعدانا عن المطحنة التي طحنت شباب وشابات العراق على أيدي النظام الذي لا يعرف الرحمة أو الشفقة. قضى النظام على الآلاف من أبناء العراق وكان يمكن أن نكون بين هؤلاء لولا قرار أهلي بإبعادنا عن العراق.

سببت المحنة التي حصلت لأبي الحزن الكبير لهما ولنا. كانا قبل ذلك في غاية السعادة مع أولادهما وبيتهما الجميل ونجاحهما

في العمل. وفجأة تغيّر كل شيء. تحطمت سعادتهما وسعادة أسرة بريئة لا ذنب لها سوى رفض الفساد والإجرام البعثي.

لم تتحسن الأمور في العراق وقاسى والداي كافة أنواع المتاعب كانا في نهاية رحلتهما ينتظران الفرج للعراق وهذا كان أملنا جميعاً. جاهدا كثيراً لإعطائنا فرحة حياة كريمة فهما يستحقان امتناننا الكبير.

الخاتمة

وعيت على إجرام البعث ونظام صدام منذ السابعة من عمري. فقد اعتدى علينا هذا النظام بكل قسوة وظلم وسبّب لنا الخوف والرعب لجشعه بالسلطة ورغبته في السيطرة والقوة. فعانت عائلتي الحزن والألم وانتكست الطفولة في حياتي بسبب تلك الأحداث وحُرمت من والديّ لأشهر وسنوات وابتعدتُ عن والديّ وأنا في الرابعة عشرة وقد أثر ذلك الى اليوم في حياتي فقد تفرقنا عن الأهل وعشنا الغربة ونحن نجهل ما يخبئه المستقبل لنا.

تركتُ أهلي- بسبب الأحداث كما ذكرت- في سن مبكرة لأعيش بعيداً عنهما آلاف الأميال بسبب الرعب الذي خيّم على العراق وحروب النظام والقيود على السفر إضافة إلى معوقات أخرى مثل الاحتياجات المادية. وعلى مرّ السنين لم أستطع زيارة أبي وأمي سوى مرات قليلة (يمكن جمعها لتصبح تسعة شهور أو ما قارب في ست زيارات) أثناء مرض أبي وبقائه في بريطانيا. حيث كانا يتقدمان في السن ويبدو عليهم التعب والإرهاق من كثرة الهموم. لم أمض مع والديّ سوى سنوات قليلة عانيت في سبع منها جميع أنواع الخوف والرعب والحزن بسبب جرائم النظام والبعث.

كم تمنيت لو أن القدر منحني سنوات أخرى معهما لأتعلم من خبرتهما وأستشيرهما في أموري وأتعامل معهما كبنت راشدة وأرافقهما إلى أماكن شتى ونمضي الوقت معاً نتحدث ونشرب الشاي مثلاً. كم تمنيت لو كنت قرب أمي وأنا على أعتاب الثامنة عشرة من عمري وعند تخرجي من الجامعة وعند زفافي وعند بدء حياة العمل بعد الدراسة، كم تمنيت لو كنت مع أهلي في هذه المناسبات وغيرها.

لم يستطع والدايَ زيارتنا خلال تلك السنوات بسبب الحروب آنذاك ومنع السفر المعروف لدى العراقيين وظروف أبي الصحية. كم أتمنى لو أني أمضيت كل حياتي معهما غير أن الموت والقدر يسبقان تطلعاتنا دائماً ويأخذاننا غفلة. ولا أعترض على الموت لأنه إرادة الله سبحانه وتعالى وقدرنا جميعاً. وأنا كمثل الكثير من شباب وشابات في هذا العالم، حُرمنا من والدينا في أهم مراحل حياتنا. وأنا بالتأكيد محظوظة وسعيدة حتى بالفترة القصيرة التي أمضيتها معهما ولمست مدى حبهما لي ولأخوتي، ومدى حرصهما على سلامتنا في تلك الظروف المأساوية في العراق. وترك رحيلهما جرحاً لن يندمل في أعماقي وسيبقى بؤرة ألم عميق طوال حياتي حيث تفارقنا وأنا في سن مبكرة مجبرة على ذلك حيث كان خيارنا الوحيد لتجنب اضطهاد البعث.

وعزائي الوحيد هو في السنوات القليلة التي تمتعت فيها بقربهما وحنانهما. تلك السنوات التي زرعت فيّ القوة للسير قدماً في هذه الحياة، فأنا أتذكر دوماً تلك السنوات وأعيش لحظاتها الحبيبة فهي كمثل مخزون من السعادة أستلهم منها أو مثل رصيد من المال

في أحد البنوك. هذه الذكريات السعيدة رافقتني في حياتي في لحظات الفرح والحزن وبنيت عليها حياتي أعتز بها وأرى تلك الأيام وأرى نفسي متميزة بوالدين رائعين. وفي الواقع كمثل أي إنسان آخر فقد واجهتُ أنا المتاعب والمصائب في الحياة وفي لحظات الابتلاء قاومت تلك المتاعب بمفردي وكنت على وشك الاستسلام أمام الصعاب غير أن ذكرى والديّ وصورتهما الحية الجميلة كانت تصرخ في ذهني مع صدى كلمات الحب والتشجيع فتعيد لي القوة والإرادة وكأن حبهما ناراً أزلية لا تنطفئ.

وعلى مرّ السنوات بدأت أجمع القطع الفنية الجميلة والحاجيات الثمينة كالهدايا والتذكارات لأماكن زرتها وأقيّم تلك الأشياء حتى وإن كانت بسيطة وأتذكر قصة كل قطعة: من أهداها لي؟ ومن أين اشتريتها أنا بنفسي؟ وتغمرني السعادة عندما أهيئ مائدة الطعام الجميلة لعائلتي وضيوفي حيث أضيء الشموع وأزيّن المائدة بالشرائط الذهبية. وكلما فعلت أتذكر المرات القليلة التي فعلت كل ذلك مع أمي عند تهيئة المائدة للضيوف والأقارب. كم أحب أن أجعل كل من حولي فرحاً وسعيداً زوجي وإخواني وأخواتي وكأني أم لهم جميعاً. كل هذه الأمور تذكرني بوالدتي وقد رسخت هذه اللمسات الصغيرة في ذاكرتي وانعكست في سلوكي.

ولشّد ما أحب اليوم زيارة المتاحف وقراءة الشعر كما تعلمت من أبي أثناء طفولتي. فعندما أتجول في المتاحف المختلفة في الدول التي زرتها أتخيل انني معه أصغي لقصصه مرة أخرى. وعندما أنظر الى الأزهار الجميلة في أي مكان أتذكر المشي والتمعن في الاشجار والأزهار مع أبي في حديقة بيتنا. ومازلت حتى اليوم أحب محلات

الكتب والقرطاسية وأحب الأوراق الملونة ودفاتر المذكرات والأقلام الجميلة حيث أتذكر أبي يأخذنا إلى تلك الأماكن لشرائها إضافة إلى الحاجيات الجميلة.

وعندما زرت شلالات نياغارا - في نيويورك- وبرج إيفل وجسر البوابة الذهبية - في سان فرانسيسكو- تذكرت صور والديّ في تلك الأماكن وما حكوا لنا عن رحلاتهم. وما زلت أتمنى زيارة أماكن أخرى جميلة وأمشي في ذات الأماكن التي زاراها وأتذكر حديثهما لي عنها. السعادة التي أحسها عند تذكر هذه الأمور تعيدني إلى الأيام السعيدة التي عشتها مع والديّ في بغداد.

عندما أمرّ بتلك الأشياء وأتلمسها لحظات أشعر كأنها لمسات سحرية. لقد قضيت وقتاً قصيراً مع والديّ ولكن بخصوصية متميزة لقد تركا بصماتهما على حياتي وعلى روحي. في خضمّ المحن والحزن الذي سببه لنا نظام البعث كان هناك صلة حب حقيقية مع والديّ زرعت السعادة والحب الدائم في روحي. أحاطاني بحب وعناية في السنوات القليلة التي عشتها معهما وعندما أتذكرهما اليوم يمنحاني القوة التي أحتاجها. في المرات القليلة التي التقيت بهما تعجبا كيف كبرت بسرعة ودخلت الجامعة وتخرّجت منها ثم تزوجت. غير أنهما أحسّا بالحزن وخاصة أمي لأنهما لم يكونا معي ومع شقيقتي في تلك الساعات المهمة في حياتنا. لم ترغب أن تكون أمّاً بعيدة عن ابنتيها كانت تريد أن تكون معنا يومياً لترعانا وتطمئن علينا وتقدم لنا المساعدة في أيام المراهقة وغيرها. تألمت لأنها لم تكن قربنا مثل أيّ أمّ. تألمت لأننا أُجبرنا على الافتراق عن بعضنا.

لم ألق اللوم أبداً على والديّ بسبب الفراق القاسي الذي عشناه

وأعلم أنه كان قاسياً عليهما أيضاً. لقد كانت الظروف الصعبة في العراق هي التي أجبرتنا على الافتراق. تألما لأنهما لم يتمكنا من رؤيتنا في لحظات مصيرية ومهمة في حياتنا لوجودنا في أماكن غريبة عنّا وعن ثقافتنا. اعلم أنهما قدما أفضل ما عندهما لنا وبذلا جهوداً كبيرة للعناية بنا.

والآن عليّ مقاومة مشاعر الحزن والغضب التي أشعر بها منذ رحيلهما لأنني لم أجد الفرصة الكافية لخدمتهما ومساعدتهما عندما تقدما بالعمر وتدهورت صحتهما. عندما كانا في قلب المحنة كنت لا أزال طفلة فكيف يمكنني المساعدة؟ وعندما بلغت سنّ النضج كانا قد رحلا. كم وددت لو أني قدمت لهما بعض الخدمة والمساعدة للتخفيف عنهما بشكل ما.

إن ما تعلمناه من هذين الإنسانيين الرائعين سيبقى معنا:

أن نقف دائماً بجانب الصدق والمبادئ والقيم وأن لا ننحني لهؤلاء القتلة والمجرمين مهما كانت سطوتهما وعلينا أن نعيش بضمائر حيّة وصادقة أمام الله سبحانه وتعالى وهذا الطريق يصعب على المرء المشي فيه فهو طريق مملوء بالمصاعب والأشواك إنه طريق الحق الذي يقلّ سالكوه.

لا تزال ذكراهما الطيبة لدى كل من عرفهما من جيلهما، ولا تزال صورتهما الجميلة معنا في كل ما تعلمناه منهما من قيم ومبادئ سامية وحب لأولادهما لا حدود له. هذا الحب يشدّ بعضنا إلى بعض وإن كنّا نعيش بعيدين عن بعضنا آلاف الأميال. لا يزال الكثير من الصور في ذاكرتي بالرغم من سنوات حياتي القصيرة بصحبة والديّ. إنها الكنز الذي لا يمكن تقييمه بشيء. إن والديّ خالدان في ذاكرتنا

لن يتمكن نظام البعث من إزالة تلك الصور لأنها قد تجذرت في أعماق قلبي وروحي. وأجمل ما تعلمته منهما أن الحب بين الزوجين هو قلب العائلة النابض. إنه قوة عظيمة أبقت والديّ متماسكين بالرغم من المحن والمتاعب. ليس هذا فحسب فإن الحب يولّد مزيداً من الحب ويغيّر كل ما حول المرء وينتقل إلى الأجيال الأخرى. والآن وفي غيابهما لم نفقد كل شيء. لم نفقد صدى كلمات حبهما لنا لم نفقد ذكريات حنانهما ورعايتهما لنا.

كانت مشيئة الله تعالى أن يأخذ والديّ من هذه الحياة لكي لا يشاهدان مزيداً من الدمار ويشعران بمزيد من الحزن للحالة التي وصلها العراق حيث تدهورت الأمور يوماً بعد يوم. كان يمكن لهذا الحزن وحده أن يقتلهما. ازدادت وحشية وقسوة نظام البعث بمرور السنين، تلك الوحشية التي بدأت بمحنة أبي قبل ما يقرب من ثلاثة عقود من الزمن. لم يعد مهماً تأييده للبعث أو عدم تأييده. كانت وحشية الحزب في البداية محدودة بعدد من الأفراد والعوائل ثم ازدادت وتوسعت لتشمل جميع شرائح المجتمع العراقي فكان هناك الإعدامات المستمرة والمقابر الجماعية والتطهير العرقي. وطحن الشباب في حربين ظالمتين فكانت مأساة الشيعة بالجنوب بعد حرب الكويت ومأساة الأكراد في الشمال في حرب الأنفال.

عندما نلتقي بعراقيين في بلاد الغربة نسمع قصصاً محزنة يمكن أن تملأ المجلدات لو دوّنت. إنها قصص الألم والحزن لفراق الأهل والوطن وقصص الخوف والملاحقة. افترق الأطفال عن الآباء والأمهات ومضت عشرات السنين ولا يعرف هؤلاء مصير ذويهم. هناك من لم يلحق رؤية والديه على فراش الموت. هناك من اعتقل

ولده أو أخوه أو أبوه منذ الثمانينات وأواخر السبعينات وحتى الآن يجهل مصير أحبته لا يدري هل هو حيّ أم ميّت، وإن المأساة التي عاشها العراقيون لم يشهدها أي شعب من شعوب العالم، مأساة لا يمكن لأحد أن يتصورها.

لم أدرك يومها عندما غادرت العراق أني سأتغرّب لأكثر من عشرين سنة. لا أدري لماذا لم يخطر هذا على بالي أبداً. ربما تصورت أنه سيكون غياباً قصيراً. لم أتصور أبداً أني لن أحظى مرة أخرى برؤية صديقاتي ولن أتمكن من رؤية خالاتي وأخوالي وأولادهم وجيراننا وباقي معارفنا. وأنا دوماً أفكر بصديقاتي ومعلماتي من المدرسة. من منهن على قيد الحياة؟ كيف يتحملن الأوضاع الصعبة بعد حرب الخليج الأولى والثانية؟ كم من أقاربهن مات وكم منهم قد ترمل؟ كم منهن لا تزال تصارع مصاعب الحياة لكي تعيش ومن أطفال يعانون من الجوع؟ كم أتمنى أن أرى صديقاتي وأتحدث معهن وأوضح لهن سبب مغادرتي العراق في سرعة ومن دون وداعهن ولماذا لم أكتب لهن الرسائل!.

عندما تسلط صدام على الحكم في 1979 وأعلن عن المذبحة الوشيكة الوقوع في خطابه الذي يهدد فيه أن كل من يحاول إزاحته عن السلطة بأنه سوف يستلم أرضاً من دون شعب، لم يعبأ العالم بذلك التهديد المرعب ولم يهتم أحد للمطحنة التي حصلت في قرية جيزان الجول شمال بغداد. لم تدن أي منظمة إنسانية جرائم النظام البشعة ولم تنقل الصحافة العالمية أي خبر. استمرت الشركات الغربية بمشاريعها التجارية -آنذاك - مع نظام البعث وخلال السبعينات والثمانينات لم يصدر أي حصار أو رد

فعل عالمي ضد نظام البعث الذي قتل الآلاف من الشباب وهجّر آلاف العوائل العراقية وصادر ممتلكاتها من دون أي حق أو إجراء قانوني.

أخيراً وفي عام 1998 أصدر مجلس الشيوخ -الكونغرس- في الولايات المتحدة قانون تحرير العراق ودعم الديمقراطية في هذا البلد. وعندما نقرأ تلك الوثيقة نحزن ونعتصر ألماً حيث لا تشير الوثيقة إلى جرائم النظام في العراق خلال السبعينات - المذكورة هنا في الكتاب - مثل انتهاكات حقوق الإنسان وزجّ الناس في السجون وقتل العوائل البريئة وترحيل الآلاف من بلدهم. بينما يشير القانون الى جرائم النظام الأخرى مثل احتلال الكويت وشنّ الحرب على إيران - وهي إشارة محقة. ولكن أن يتجاهل أبشع جرائم النظام ضدّ شعب العراق نفسه فذلك سكوت مشين وصمت حتى من الرأي العام العالمي وجشع العديد من الشركات الغربية لجني الأرباح أعطى النظام شرعية حطمت آمال الملايين المتلهفين للحرية والحياة الكريمة من العراقيين. لم يدن أحد تلك الجرائم البشعة في العراق بينما غضب الرأي العالمي في عام (1989) لأحداث ساحة «تيانمين» عندما قتل بضع عشرات من الصينيين وفرضت حينها التزامات عديدة على الصين لاحترام حقوق الإنسان ولم يتحرك الرأي العام العالمي لمأساة شعب العراق بالرغم من اقتراف النظام المجازر وقتل الآلاف من أبناء الشعب العراقي؟ لماذا التزم العالم الصمت؟ سؤال بقي بلا جواب.

وفي أواخر حرب الخليج الثانية - حرب الكويت- عام (1991) وفي آذار ذلك العام حصلت مجازر واسعة النطاق ضدّ

المدنيين العراقيين وأمام أعين قوات التحالف ونتيجة لشروط وقف القتال بين الطرفين آنذاك. روى الشهود الذين كانوا قرب موقع الأحداث أثناء الحرب عن الجرائم التي كان تحصل على بعد كيلومترات قليلة فقط من قوات التحالف. طلب العراق رسمياً من قوات التحالف أثناء محادثات وقف القتال التي أنهت حرب الخليج حق استعمال الحوامات الحربية (الهيلوكبتر). كان ذلك الاتفاق المشؤوم هو الذي مكّن النظام من استعمال الهيلوكبتر ونقل عصابات البعث إلى أماكن الانتفاضة الشعبية والقضاء عليها. فتم سحق الانتفاضة بفضل قوات التحالف وحصلت مجازر إبادة جماعية للشيعة في الجنوب. لم يبق من يشهد عن تلك المصيبة سوى صحراء الجنوب وبعض ممن بقي على قيد الحياة.

آمل أن يعلم كل من يقرأ هذا الكتاب، أن الجرائم التي اقترفها نظام البعث ضدّ شعب العراق فاقت بكثير، حجماً وشراسة وشدة، ما فعله النظام في الكويت وأماكن أخرى ولا ينكر أحد أن ما حصل للكويت هو ظلم ولكنه لا يقارب حتى واحد بالمئة مما فعل النظام ضد العراقيين- وللأسف بمساعدة الكثير من أعضاء التحالف - الذي حرر الكويت. ونحن لانزال في بادىء ذي بدء من أن نسمع عن تلك الجرائم حيث إن معظمها لم يَوثّق وقد قضى أغلب من شهدها.

أتمنى أن يكون هذا الكتاب الأول من مجموعة كتب ستظهر الى العلن حيث لا يمكن بعد الآن تجاهل صيحة الإنسانية في العراق وهي تدوي بشدة وباستمرار إلى حدّ لا يطاق. نسمعها من المقابر الجماعية حيث دُفن الآلاف من الشيعة وهم أحياء. نسمعها

من أقبية التعذيب المعبأة بالأبرياء. ونسمعها من الآباء والأمهات ممن قتل أبناؤهم في الحروب، ومن الشباب الذين رآهم أبي يساقون الى الموت في سجن أبي غريب، ومن النساء اللاتي تعرضن للاغتصاب من عصابات النظام. نعم انه من الواجب إيقاف جرائم النظام في خارج العراق ولكن تجاهل انتهاك حقوق الإنسان داخل العراق فهو خزي وعار. ولا يحق أبداً مسامحة هؤلاء الذين ساعدوا النظام اقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً وهيئوا له الدعم الاستخباراتي واللوجستي.

لقد ذاق الشعب العراقي، بجميع شرائحه، المأساة واليوم يعاني الجميع الحزن لفقد أعزائهم في حروب النظام وفي أقبية وزنزانات التعذيب. ومن لم يدركه الموت بالحرب والتعذيب فهو يموت بسبب الحصار الجائر على أبناء الشعب وبقاء النظام الذي زادت وحشيته.

قام البعثيون، وبمساعدة الحكومات الغربية وحكومات المنطقة خلال السبعينات والثمانينات، بتدمير العراق، ذلك البلد الجميل، وتحويل أُناسه الكرماء الأذكياء الذين حملوا حضارة الإنسان قُدماً لآلاف السنين إلى شحاذين وأيتام ولاجئين ومعدومين ويائسين. واليوم تكاد تتألم كل نفس بشرية في العراق لفقدان الأمل وفقدان العناية الصحية وفقدان الكهرباء وارتفاع الجريمة والبغاء نتيجة الفقر والقهر الذي حلّ بالجميع. يموت البشر- في العراق - من الجوع والعوز وفقدان المناعة وتلوث الماء بل وحتى الهواء الذي يستنشقوه. تهرب من العراق مجاميع غفيرة من البشر، يائسة لا تريد غير النجاة بنفسها،

تهرب الى أي مكان في العالم مختبئة في حاويات الشحن والبواخر عبر البحار والمحيطات.

شهد العراق من المآسي ما تستوجب كلها كتابة المئات من الكتب، وسيكون ذلك بإذن الله.



هذا الكتاب

صدر هذا الكتاب باللغة الإنكليزية في عام 2003 قبل أيام حرب الخليج الثالثة التي سقط بها نظام صدام حسين.

كتبت هذه الذكريات العزيزة والمؤلمة لكي أدوّن جزءاً ولو بسيطاً من تاريخنا المؤلم، وفيها ليس فقط ما حصل لأهلي وأسرتي وأنما أحكي عن الظلم الذي عاصرناه كأسرة وكشعب وكأي بشر منذ أن حلّ علينا ذلك البلاء المسمى حزب البعث. وبهذه الذكريات، أتمنى أن يعرف العالم وأن يعترف ولو لمرة واحدة ـ بما فيهم الدول الغربية والعربية وحتى العراقيين أنفسهم الذين دافعوا عن النظام ووصفوا من عادى النظام بالرجعيين والمتخلفين والغوغائيين ـ بأن إجرام البعث بدأ منذ اليوم الأول، بل ومنذ اللحظة الأولى لتسلمهم للسلطة، وأن جرائم «أبي طبر» هي أولى «إنجازات» البعث في العراق، وأن أقول للجميع باديء ذي بدء أن ليس هناك في الكون ثمة عذر أو سبب يتقدم به من ساندوا البعث ـ سواء كانوا عراقيين أم عرب أم أجانب ـ ليُكفّر عن ذلك الجرم الكبير.

أبدأ هذا الكتاب بذكريات منها ما هو جميل ومميّز وليس له مثيل، ومنها ما هو اعتيادي وقد يحصل في أي أسرة، وهنا أنا لا أريد أن أتبجّح بالحياة الجميلة التي لمستها أنا واستمتعت بها- لسنوات قليلة- ثم اختطفها البعث مني بسرعة ومن الآلاف الذين قتلوا وهجروا، بل أسردها وأريد أن يعلم كل صغار العراق بأنه كان هناك بلد جميل وحياة ناعمة وأني وغيري قد ذقنا من ذلك الشيء اليسير، ولكنه - على الأقل بالنسبة لي - هو كاف أن جعلني لأكثر من سبع وعشرين سنة في الغربة أنتظر وأحلم بالرجوع وأعشق الحياة في العراق على الرغم من المصاعب المعيشية والأمنية التي نسمع عنها كل يوم، ذلك لأن سنوات قليلة فيها لمسات من الحب والسعادة زرعت في نفسي بحراً من الحب لهذا الوطن.

ومع أني، ككل العراقيين، فرحت لانتهاء البعث وحزنت لما حلّ ببلدنا وأهلنا بعد السقوط من فوضى ودمار وطائفية تغطّت كلها باسم الديمقراطية، الا أن أشدّ ما أحزنني وصدمني، أيضاً كالملايين من العراقيين، هو اختزال «انسيكلوبيديا» جرائم البعث باثنتين أو ثلاث من كبرى جرائمه وإهمال حتى مجرد ذكر أو قراءة أو تدوين المئات بل الآلاف من الانتهاكات لحقوق الانسان....

Alwarrak Publishing Ltd.

دار الوراق للنشر

ISBN 1-900700-01-6

